





المشروع القومي للترجمة

51

ترجمة و دراسة : سمير عبد الحميد إبراهيم

إهـــــداء ٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة

القاهرة

المشروع القومى للترجمة

مختارات من الأدب الأردى المعاصر

نقشٌ على الماء
وقصص أخرى ...

ترجمة ودراسة

سمير عبد الحميد إبراهيم



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥١٧
- نقش على الماء وقصص أخرى
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٣

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084

المحتويات

تصدير المترجم

هذه مختارات قصصية من الأدب الأردى المعاصر لنخبة من أدباء الهند وباكستان ، روعى فى اختيارها أن تقدم نماذج متنوعة من فن القصة القصيرة المعاصـرة فى الأدب الأردى ، لأدباء ، من الجنسين ، لا زالوا يثرون الأدب الأردى بفنهم ، كما روعى أيضًا فى اختيارها ، أن تضم عدداً لا بأس به من قصص أديبات نلن شهرة بين قراء الأردية ، لتكون قصصهن هذه نموذجًا للأدب النسائى فى شبه القارة الهندية الباكستانية ، حتى تتحقق الفائدة المرجوة ، من نشر هذه الترجمة ، إذ يمكن للمهتمين بدراسات الأدب المقارن ، الاستفادة من هذه القصص المترجمة ، والمقارنة بين الأدب النسائى فى الهند وباكستان ، والأدب النسائى فى عالمنا العربى .

كما روعى فى اختيار هذه المجموعة القصصية أيضًا تناولها لموضوعات متنوعة ، ما بين الريف والمدينة ، وتناولها لطبقات المجتمع المختلفة ، ومعالجتها لقضايا الشباب والشيوخ ، وبقية شرائح المجتمع المختلفة ، والهدف من هذا الاختيار ، هو حرص المترجم على إفادة القارئ العربى ، والدارس العربى ، المهتم بآداب الشعوب الشرقية غير العربية .

ولا شك أن المجلس الأعلى للثقافة ، بنشره لهذه المجموعة القصصية المترجمة عن الأدب الأردى ، يؤكد على حرص وزارة الثقافة على إثراء المكتبة العربية بما أبدعه الأدباء فى بلدان الشرق ، مما يوجب شكر القائمين عليه ، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس والمشرف على المشروع القومى للترجمة ، وجميع الأخوة والأخوات بالمجلس الأعلى للثقافة ، الذين يساعدون فى إعداد وطباعة هذه السلسلة ، التى تصدر ضمن خطة المشروع القومى للترجمة .

وبالله التوفيق .

فن القصة فى الأدب الأردى المعاصر

شهدت شبه القارة الهندية أوائل القرن العشرين الميلادى نهضة أدبية شملت أيضاً المرأة ، وهى نهضة كانت تهدف فى المقام الأول ، إلى التخلص من العادات الاجتماعية البالية ، التى كانت تفرض على المرأة ألا تشارك فى تطوير المجتمع ، وألا تساهم فى بنائه ، ومن الجدير بالذكر أن الأدباء من الرجال هم الذين قادوا هذه الحركة . ونخص بالذكر منهم : الشيخ عبد القادر (١) والشيخ محمد إكرام (٢) ومولانا راشد الخيرى (٣) وكان هدفهم تعليم المرأة ، والحفاظ على حقوقها داخل المجتمع ، فأصدروا مجلة " عصمت " فى دهلى سنة ١٩٠٨ م ، وكتب مولانا راشد الخيرى عدة مقالات، وبعض القصص بأسماء نسائية مستعارة ، فأدى هذا بدوره إلى تشجيع المرأة الهندية تدريجياً على كتابة القصة والرواية ، وهكذا ظهرت أسماء أديبات ، جنباً إلى جنب مع أسماء الأدباء المشهورين ، على صفحات مجلة " عصمت " الأدبية .

وقد تأخر فن كتابة القصة القصيرة فى الأدب الأردى عن فن كتابة الرواية ، إذ ظهر هذا الفن فى أوائل القرن العشرين فى مجلات أدبية مثل :" مخزن "(٤) و " زمانه "(٥) حين كتب أدباء مثل : سجاد حيدر يلدرم(٦) ومنشى بريم تشند(٧) وراشد الخيرى(٨) وسلطان حيدر جوش(٩) قصصاً قصيرة نشرت فى المجلات الأدبية ، ويعد هؤلاء بحق رواد هذا

النمط الأدبى فى الأردية ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفترة شهدت مشاركة أديبات فى هذا الفن ، اتجهن فى البداية إلى كتابة مقالات فى الأدب الإصلاحى ، ثم بدأن فى اتخاذ القصة القصيرة والقصة الطويلة (التى لا تصل إلى كونها رواية) [١٠] وسيلة لتحقيق أهدافهن ، ومن بين هؤلاء الأديبات : محمدى بيكم (بالكاف الفارسية) ، وعباسى بيكم ، ونذر سجاد حيدر ، وبيكم شاه نواز ، وصغرى همايون مرزا [١١] وقد كتبن جميعًا قصصًا وروايات ، تتناول موضوعاتها أساسًا ، تعليم المرأة وحقوق المرأة .

اندفع الأدباء من الرجال يشجعون المرأة فى الهند على الكتابة ، وكان للمجلات الأدبية - كما ذكرنا - أعظم الأثر فى ازدهار فن القصة، ولم يكن مولانا راشد الخيرى هو الوحيد الذى كتب بأسماء مستعارة ، لنساء لا وجود لهن أصلاً ، بهدف تشجيع المرأة على الكتابة ، فقد قام أدباء آخرون فيما بعد بالشيء نفسه ، فوقّع الأديب فضل حق قريشى[١٢] قصصه باسم " طاهره بيكم شيرازى " وكتب نياز فتحبورى[١٣] قصصه باسم " مريم زمان بيكم " ، وساد قصصهما طابع الشقاوة ، وتخللتها روح الدعابة .

على كل حال اشتهرت فى تلك الفترة أديبات كتبن القصة القصيرة، من بينهن : عباس بيكم ، ونذر سجاد حيد ، وخاتون إكرام ، وأمة الوحى[١٤] وهناك بعض الأديبات مثل آرا بيكم ، وشايسته اختر سهروردى[١٥] وهما من أسر ترعى العلم والأدب مثل سابقاتهما ، ولها مكانتها فى المجتمع الهندى ، اتخذن من قضايا المرأة موضوعًا لقصصهن ، ونجحن فى كتابة قصص تعبر عن وجهة نظر إصلاحية .

كان لظهور عدد آخر من المجلات الأدبية أثره الواضح فى انتشار وتطوير فن القصة ، إذ صدرت مجلة " نكار " (بكاف فارسية) من مدينة لكهنو ، و" همايون " و " نيرنك خيال " (بكاف فارسية) و " أدبى دنيا " من مدينة لاهور ، و"ساقى" من مدينة دهلى[١٦] كما ساعد عصر الترجمة أيضًا على ذلك، فكان لترجمة القصص الغربية إلى الأردية أثره الواضح فى إيجاد حركة الرومانسية فى القصص الأردية ، ودخول المذاهب الأدبية الغربية فى الأدب الأردى ، وذاع صيت حجاب إسماعيل [١٧] من بين أديبات الأردية، وهى التى عُرفت فيما بعد باسم " بيكم حجاب إمتياز على " (بكاف فارسية) ، ولا تزال تكتب قصصها الرومانسية التى تتميز بالإبداع ، وذاع صيت الأديبة المعروفة باسم " مسز عبد القادر " [١٨] التى أعطت للقصة الأردية هيبة وعظمة ، وجعلت لها هدفًا ، وتأثرت بروايات " إدجار ألن بو " [١٩] الرومانسية ، ومن رواياتها : " لا شون كا شهر "أى مدينة الجثث ، و"صدائى جرس" رنين أو صليل الجرس ، و " وادى قاف و " راهبه " وقد أبدعت هذا الفن القصصى فى الأردية لما كانت تلجأ إليه من استنباط نتائج رومانسية ميتافيزيقية من خلال الأحداث الواقعية .

ظهرت فيما بعد أديبات أخريات مثل : " عصمت تشغتائى "[٢٠] و"هاجره مسرور" [٢١] و" خديجة مستور " [٢٢] و " واجده تبسم " [٢٣] وكانت أعظمهن شهرة عصمت تشغتائى ، التى تناولت فى قصصها عصيان المرأة ، أو تحدى المرأة للمجتمع من حولها ، فنقلت ما يدور خلف الحجب إلى خارج الحجب ، وعرضته بمتعة فكرية عجيبة ، ولكنها تعرضت لهجوم النقاد ، لكنها وجدت من يدافع عنها سواء من الرجال أو من النساء .

أما خديجة مستور ، وهاجره سرور فقد شاركتا في حركة الأدباء التقدميين (٢٤) والتزمتا بما يمكن أن تلتزم به المرأة أولاً ثم الأديبة ثانياً ، وحاولتا تقديم رؤية للحياة من خلال إحساسات المرأة الأرستقراطية ، بما تحمله من عواطف رقيقة وإحساسات مرهفة ، وقد نالتا الشهرة من خلال قدرتهما على رسم صورة واقعية لتضاد الخير والشر ، بهدف عرض صورة مؤثرة لطبيعة الإنسان ، ولما يجب أن يكون عليه من مصداقية مع نفسه ومع المجتمع .

وفي مقابل هذه المجموعة من الأدباء التقدميين ، ظهرت جماعة أخرى لا تنتمي إلى الأدباء التقدميين وكان من بينهم قرة العين حيدر ، وهي من أسرة اهتمت بالأدب ، فوالدتها هي نذر سجاد حيدر ، ووالدها هو سجاد حيدر يلدرم ، وكلاهما أديبان من كتاب القصة ، اختارا لقصصهما الطبقة الأرستقراطية في المجتمع الهندي ، حيث نشأ وترعرعا ، ثم بحثا بعد ذلك عن أسئلة متنوعة ومتعددة للحياة الاجتماعية من خلال مصادر ثقافية وحضارية متنوعة .

حاولت قرة العين حيدر جمع أشواك الحياة الحقيقية ، وكتبت عنها من خلال الواقع المعايش ، وهي تشعر بالجراح والألم الذي ابتلى به المجتمع كله ، ومن هنا احتلت مكانة فريدة ، بما تملكه من شعور وإحساس ثقافي وحضاري واجتماعي وتاريخي ، ولا يزال فنها الأدبي في مجال القصة والرواية يتطور حتى اليوم .

نالت قرة العين حيدر مع غيرها من الأديبات (٢٥) شهرة وحققت مقاماً رفيعاً بين الأدباء عامة ، شهدت النماذج الأولى لفن القصة والرواية في الأدب الأردي على يد والدها سجاد حيدر يلدرم ، ووالدتها

نذر سجاد حيدر ، ورفاقهما من الأدباء مثل راشد الخيرى وبريم تشند ، وكان والدها يلدرم صاحب مزاج رومانسى ، بينما بريم تشند كان يميل إلى الواقعية وقد استفادت منهما بالإضافة إلى إفادتها من أدباء الرومانسية الآخرين مثل نياز فتحبورى وحجاب إمتياز على وغيرهما ، وكذا الأدباء الذى اتجهوا إلى كتابة القصة من أجل المتعة وهم أصحاب مذهب الفن للفن أو الفن للمتعة ، ومن بينهم عاشق حسين بتالوى ، وسيد عابد على عابد وفياض محمود وخليق دهلوى ورئيس أحمد جعفرى وغيرهم.

كما شهدت قرة العين حيدر أيضًا ما طرأ على القصة الأردية ، والرواية الأردية فى العقد السادس من القرن العشرين ، وهو اتجاه معظم الأدباء إلى أسلوب التجريد والرمز .

فى عام ١٩٧٨م بعد تطبيق قانون الطوارئ بدأ أصحاب الأقلام فى البحث عن طريق جديد ، فبدؤوا يعبرون عما بداخلهم عن طريق الرمز والاستعارة والتجريد ، من خلال قصصهم ، ومن ناحية أخرى كان فن القصة قد اكتمل فى الأدب الأردى ، وبدأ النقاد يشعرون بالحاجة إلى وجود قصص أفضل من خلال نوعية جديدة من الكتابة الأدبية.[٢٦]

من هنا تكمن أهمية قرة العين حيدر كأديبة تأثرت بمن حولها ، وأثرت أيضًا فيما بعد فيمن حولها ، والإبداع القصصى عندها واضح ، وقد صورت الحياة فى المدينة بشكل واضح ، وجعلت من شخصيات قصصها مظهرًا للحياة الحديثة فى مجتمع المدن الهندية والباكستانية بكل خصائصه ، بل وفى مجتمع بعض المدن المختلفة فى العالم مثل الفلبين ، كما نلاحظ فى قصة كارمن التى نقدمها ضمن هذه المجموعة المختارة .

ومنذ سنة ١٩٨٠م وما بعدها بدأت فترة الإبداع فى فن القصة القصيرة فى الأدب الأردى على يد أدباء كبار ، بينما حققت بعض الأديبات شهرة واسعة ، فبالإضافة إلى ذكية بلكرامى ، هناك حجاب إمتياز على ، وعقيلة كاظمى وغيرهن.

ولدت ذكية بلكرامى فى بلكرام (بكاف فارسية) فى منطقة يو بى الهندية ، وفى سنة ١٩٦٥ م حصلت على درجة البكالوريوس فى العلوم من جامعة كراتشى فى علم النبات ، وعينت محاضراً فى كلية سر سيد للبنات فى كراتشى ، لكنها تركت العمل وتفرغت إلى بيتها بعد الزواج بناء على رغبة زوجها ، نالت درجة الدكتوراه فى ديسمبر عام ١٩٩٨م .

نشرت أكثر من ثلاثمائة قصة قصيرة ، وعشر روايات ، واهتمت بأدب الطفل فنشرت ثلاثة كتب للأطفال ، بالإضافة إلى بعض الكتب التعليمية ، فى مجال تخصصها أى علم النبات .

ويمكن للقارئ الرجوع إلى العدد رقم ٢٨٠ من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة للمشروع القومى للترجمة ليعرف المزيد عن الأديبة ذكية بلكرامى التى تعبر عن روح الأدب النسائى الذى يعالج قضايا مهمة فى المجتمع النسائى بشكل خاص .

أما الأديبة حجاب إسماعيل التى صار اسمها بعد الزواج بيكم حجاب إمتياز على ، فقد نالت مكانة عالية فى الأدب الأردى بين كتاب القصة القصيرة ، وقد عمدت فى قصصها إلى التركيز على التعاطف بين الناس ، وبيان الشعور بآلام الآخرين ، ومن هنا غلب طابع الحزن على قصصها ، واشتهرت من ناحية أخرى بقصصها الخيالية ، وعنصر الخيال دائمًا واضح فى قصصها ، كما أن الطابع الرومانسى يسود

كتاباتها التى تتميز بالإبداع ، ومن العجيب أن تتوقف عن الكتابة منذ مدة طويلة .

وقد كان لنشأتها فى حيدر آباد الدكن ثم انتقالها مع أسرتها إلى المنطقة الجنوبية وبالتحديد فى مديرية أو مركز كرشنا الواقع على شاطئ نهر كوداورى (بكاف فارسية) حيث كان للطبيعة الجميلة ، بمناظرها الخلابة ولياليها المقمرة أعظم الأثر عليها ، ففى هذا المكان كما قالت تعلمت كيف تميز بين الخريف والربيع ، هنا قضت طفولتها ، فتأثرت بما حولها ، بالإضافة إلى تأثرها باهتمامات والدها فقد كان عاشقًا للموسيقى وللبساتين والأزهار ، أما جدها فكان مغرمًا بجمع الكتب ، أما والدتها فكانت مغرمة بالقراءة وبكتابة المقالات ، ونالت شهرة فى الحياة الأدبية فى زمانها ، وكان هناك اسمان فقط من النساء مسز نذر سجاد حيدر ، ووالدتها عباسى بيغم ، فكانا ينشران مقالاتهما فى "مخزن" و "زمانه" والمجلات الأدبية الأخرى .

وهكذا تأثرت حجاب إمتياز على بأمها كثيراً ، وتمنت منذ صغرها أن تمسك بالقلم ، وحين بدأت الكتابة كانت تحمل بداخلها كثيراً من القصص ، التى كانت ترويها لأختها الكبرى ، ومن العوامل المؤثرة عليها أيضًا ، وفاة والدتها فى سن مبكرة مما جعلها تدفن نفسها - على حد تعبيرها - بين الكتاب والقلم ، فلم تكن تعرف كيف ستعيش حياتها الطويلة دون أم ، فقد كانت وحيدة فى البيت مع والدها والكتب ، وما عدا ذلك أحزان ، وذكريات .. ومن هنا ظهر الإبداع، وبدأت حياتها الأدبية .. لم يكن أحب إليها فى تلك الفترة من كتابة القصص ، تسرى بذلك عن نفسها .

بعد موت والدتها كتبت أول كتاب طبع لها باسم " نغمات الموت " كتبته نظمًا منثوراً ، أو كما يطلق عليه بالأردية "نثرى نظم" ، وكان مولانا راشد الخيرى قد زارهم في مدراس ، فقرأ ما كتبته ، وحمل المسودة إلى دهلى حيث نشرها في كتاب بعنوان نغمات الموت ، بعدها كتبت حجاب إمتياز على كثيراً من القصص والروايات ، التى نالت إعجاب القراء ، وتساؤلهم أيضًا عن شخصيات قصصها ورواياتها ، مما يعبر عن مدى إعجابهم بإبداعها لتلك الشخصيات .[٢٧]

ويمكن القول باختصار شديد أن حجاب إمتياز على التى كانت تشير إلى نفسها باسم حجاب إسماعيل تنتمى إلى جيل الأدباء الرومانسيين فى شبه القارة الهندية الباكستانية ، وهى تركز فى قصصها على التفاصيل وعرض الجزئيات ، من جوانب مختلفة ، وتجعل شخصيات قصصها ترى الحياة أيضًا من زوايا فريدة ، ولهذا كان أهل شبه القارة يطالعون قصصها بشوق ، ولا يزال اسمها يتردد حتى اليوم في أسماع الناس ، فقد احتلت مكانة فى الأدب النسائى يجعلها تقف جنبًا إلى جنب فى مصاف الأدباء الرجال ، وقصة رسم الأحبة التى نقدم ترجمتها هنا ، تصور شخصية تعبر عن رؤية إنسانية تتمتع بها الأديبة ، كما أنها نموذج فريد من أدبها الراقى .

أما الأديب محمد سعيد شيخ فهو من أدباء الأردية المعاصرين ، يكتب القصة القصيرة منذ فترة طويلة ، وله أكثر من مجموعة قصصية من أهمها " كفارة " التى اخترنا منها ما ترجمناه له هنا ، وهو بطبيعته يميل إلى تصوير المجتمع الباكستانى وما فيه من قضايا ، وقدرته على التحليل ورسم صور شخصياته تضفى الواقعية على قصصه وتزيد من تأثيرها على القراء .

يعد سعادت حسن منتو فقد – الذى ولد فى (مديرية لدهيانه) بالهند وهو ينتمى إلى أسرة (منتو) الكشميرية – من أدباء الأردية الكبار، وقد نال شهرة واسعة نتيجة لكتاباته الصريحة ، وفَضْحة لمساوئ المجتمع ، كان والده قاضياً ، التحق بجامعة على كره ، لكنه لم يستطع أن يكمل تعليمه بسبب مرضه ،كان يكسب عيشه من الكتابة ، وتمتاز قصصه بالواقعية .

والدكتورحسين عاشق بتالوى الذى ترجمنا له إحدى قصصه القصيرة ، مؤلف وباحث وكاتب قصة قصيرة ، ولد فى بلدة " بتاله مديرية كورداسبور"، وهو الأخ الأكبر للأديب عالم القانون إعجاز حسين بتالوى ، كان أميناً لحزب الرابطة الإسلامية حين كان العلامة إقبال رئيساً للرابطة سنة ١٩٣٨ م ، سافر إلى بريطانيا سنة ١٩٥٣ م ، وهناك قضى معظم وقته فى كتابة التاريخ والبحث والتأليف ، ساعده فى ذلك وجوده فى مكتبة المكتب الهندى Indian Office Library كما كتب قصصاً قصيرة هادفة منها هــذه القصة بعنوان زندكى أى الحياة ، وقد توفى سنة ١٩٨٩ م .

ويعد كل من سيد عاصم محمود ، وسيد نويد أختر زيدى ، وعرفانه تزئيين شبنم ، وشهناز إسلام ، وسيد جاويد أختر من الأدباء الذين يثرون فن القصة القصيرة فى الأدب الأردى بإبداعاتهم التى تنال اليوم إعجاب القراء ، وتنشر فى العديد من المجلات الأدبية .

وأخيراً أود أن أشير هنا إلى أن الأحداث فى معظم قصص هذه المجموعة ذات طابع اجتماعى، دينى، سياسى وأحياناً فلسفى وأخلاقى ، فالأدباء يرصدون الواقــع كيفما تسنى لهــم ، ويختارون من الأحداث

ما يخدم الغرض ، وسوف يطالع القارئ قصصًا تعالج أحداثًا مختلفة ، فى أزمنة مختلفة ، وفى أمكنة مختلفة.

وهم هنا لم يقتصروا على تصوير المجتمع فقط بل تغلغلوا فى النفس البشرية ، وأوضحوا أثر الأحداث على الأفراد والجماعات .

.. ولما كانت القصة تحتاج إلى الحوار فى بعض أجزائها فقد اهتم بهذا أدباء الأردية الذين كتبوا القصة القصيرة وضمن هذه المجموعة نلاحظ أجزاء تضمنت حوارًا بين الشخصيات، والحوار له أهميته كما هو معروف فى السمو بفن القصة القصيرة لأنه يبين الشخصية ويضيف حيوية إلى الحدث ثم هو عامل أساسى ومهم، يُبيّن كيف تفكر الشخصية من ناحية ثم يوضح نوعيتها التى تظهر طريقة التفكير ونوعية الحوار من ناحية أخرى ، ويمكن أن نلاحظ هذا بوضوح فى معظم القصص المترجمة فى هذه المجموعة.

* * *

الهوامش

(١) الشيخ عبد القادر : ولد بسنة ١٨٧٤م وتوفى سنة ١٩٥٠م واشتهر بمجلته التى كان يديرها وهى "مخزن" ، تلك المجلة التى ساعدت فى تطوير اللغة الأردية والأدب الأردى ، فكان يكتب فيها ويستكتب الآخرين مما ساعد فى ظهور النقد الأدبى الأردى ، واهتم الشيخ بالكتابة عن الآداب الغربية ومذاهبها ونظريات النقد الغربية . وأثرى مجلة مخزن التى كانت تصدر من لاهور بالأبحاث الدينية والسياسية أيضًا ، وحين سافر الشيخ عبد القادر إلى إنجلترا سنة ١٩٠٤م تولى إدارتها شيخ محمد إكرام حتى عاد الشيخ عبد القادر سنة ١٩٠٦م ، وحين انتقل إلى دهلى بعد سنة للعمل بالمحاماة أصدرها من دهلى فى أكتوبر ١٩٠٧م وعاونه راشد الخيرى ، وفى سنة ١٩١٠ باعها إلى مولوى غلام رسول مهر وظل اسمه يكتب عليها كمدير شرفى لها وساهم فى المجلة عدد كبير من أدباء شبه القارة مثل العلامة محمد إقبال ومرزا إعجاز حسين وظفر على خان وألطاف حسين حالى ومولوى ذكاء الله وأبى الكلام آزاد وسجاد حيدر يلدرم وعبد الحليم شرر وآغا حشر كاشميرى وإسماعيل مرهتى وغيرهم من الأدباء والأديبات . انظر تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند أردو أدب جلد جهارم ص ١٩١ - ١٩٢ وأيضًا ص ٥٤٤ وما بعدها وأيضًا Natrajan,S.,A History of Indian Press . Asian Publishing House 1962

(٢) الشيخ محمد إكرام : ولد شيخ محمد إكرام (كلمة شيخ تكتب مع الاسم بدون ألف ولام) سنة ١٩٠٧م وهو مؤرخ ومحقق وناقد ، ألف بالأردية عن التاريخ الحضارى والعلمى والروحى للمسلمين فى شبه القارة الهندية والباكستانية ومن أهم كتبه : آب كوثر و رود كوثر وموج كوثر ، شارك فى إدارة مجلة مخزن الأدبية مع مديرها شيخ عبد القادر حين كانت تصدر من لاهور ، وتولى إدارة المجلة من سنة ١٩٠٤م حتى سنة ١٩٠٦م ، وتوقف حين انتقلت المجلة إلى دهلى فتولى مهمته الأديب راشد الخيرى سنة ١٩٠٧م انظر تاريخ أدبيات باك وهند أردو أدب جلد جهارم ص ٤٦٩ وأيضًا أردو أدب سوم ص ١٩٨

(٣) مولانا راشد الخيرى : (مولانا لقب يناله العلماء احتراماً لمكانتهم فى المجتمع مثل سماحة ، ومعالى وغيرها) ولد راشد الخيرى فى سنة ١٨٦٨م بمدينة دهلى وينتمى إلى أسرة اشتهرت برعايتها للعلم ، وإشرافها على تعليم أبناء ملوك الدولة المغولية وتربطه صلة قرابة (زوج عمته) بالأديب المعروف نذير أحمد ، درس العربية والفارسية والإنجليزية فى المدرسة العربية بدهلى ، وتوفى سنة ١٩٣٦م اهتم بتعليم المرأة من خلال ما كتب من روايات وأسس إدارة عرفت باسم " تربيت كاه بنات " كان هدفها خدمة المرأة فى الهند ، وساهم فى العديد من المجلات الأدبية بالإضافة إلى مجلة " عصمت " فكان يكتب فى مجلة " بنات " و " تمدن " و "جوهر نسوان" و"سهيلى" وغيرها . انظر ما كتبه عنه د. سيد عبد الله الأديب والناقد الباكستانى فى كتابه أردو أدب ١٨٥٧ عيسوى سـ ١٩٦٦ عيسوى تك ط لاهور وما كتبه أحسن فاروقى فى كتابه أردو ناول كى تنقيدى تاريخ ط لاهور ص ٥١ وما بعدها .

(٤) مجلة مخزن مؤسسها ومديرها شيخ عبد القادر ، ظهرت فى بداية ق ٢٠ الميلادى من لاهور ، انظر ما سبق ذكره عن الشيخ عبد القادر .

(٥) زمانه ، مجلة أدبية لم تنل شهرة مخزن وساهمت فى نشر قصص الأدباء والأديبات فى تلك الفترة .

(٦) سجاد حيدر يلدرم : ولد فى نهتور مركز بجنور بسنة ١٨٨٠م وتخرج من كلية M A O فى عليكره ، درس اللغة التركية ، ونال درجة الليسانس فى الحقوق ، وعمل مترجماً فى القنصلية البريطانية فى بغداد ، ومنها إلى السفارة البريطانية فى اسطنبول ، ورجع إلى الهند سنة ١٩١٢ ليتزوج من الأديبة نذر ، تنقل فى عدة وظائف حتى توفى سنة ١٩٤٣م ، أبدع أدباً رومانسياً ، وأوجد مكاناً للقصة الإيرانية والتركية فى الأدب الأردى فقد ترجم عدداً من القصص والروايات التركية والفارسية إلى الأردية ، وبخاصة الروايات التركية المأخوذة عن الفرنسية ، ولم يترجم ترجمة حرفية بل عمد إلى نقل المضمون وإعادة الصياغة بما يتناسب مع بيئة شبه القارة وبالإضافة إلى القصص والروايات التى كتبها وترجمها كتب مسرحيات أيضاً مثل جلال الدين خوارزم (مسرحية تاريخية) وجنك وجدل . انظر أردو أدب جهارم ص ١٦٦-١٦٨

(٧) منشى بريم تشند (بريم جند بباء مثلثة وجيم مثلثة أيضاً ومنشى لقب لمن يعمل بالكتابة) ولد فى إحدى القرى القريبة من مدينة بنارس فى يونيو ١٨٨٠م ، واسمه دهنبت رائد، لكنه اشتهر باسمه الأدبى بريم تشند ، تولت جدته تربيته بعد وفاة والدته وكان يعشق

سماع القصص والحكايات ، وكانت له ذاكرة قوية ، وقد عبر فى قصصه عن المجتمع الهندوكى فى الوقت الذى عبر فيه نذير أحمد عن المجتمع المسلم فى الهند ، وقد نال شهرة عظيمة فى الهند وخارجها ومن قصصه . أسرار المعابد و (بيوه) أرملة و(بازار حسن) سوق الجمال و (سوز وطن) حرقة الوطن و(لعنت) اللعنة وغيرها . انظر مؤلفاته ص ١٦٣ أردو أدب جهارم وانظر أيضًا بريم جند فن اور تعمير فن للدكتور جعفر رضا ط شبستان اله آباد الهند ط الثانية ١٩٨٠م ومجموعته القصصية واردات ط كشمير كتاب كهر لاهور يناير ١٩٨١م . انظر الإصدار رقم ٢٨٠ للمشروع القومى للترجمة من الأدب الهندى الحديث والمعاصر .

(٨) راشد الخيرى انظر حاشية رقم (٣) .

(٩) سلطان حيدر جوش : يأتى هذا الأديب فى مرتبة أقل من يلدرم ، وقد اهتم بإصلاح المجتمع ، وأوضح سمات الاختلاف بين الشرق والغرب ، والفرق الطبيعى بين أمة الشرق وأمة الغرب ، أصدر مجموعة قصصية بعنوان فسانهء جوش أى حكاية جوش ، وأخرى بمعنى جوش فكر أى ثورة الفكر وهو هنا يرمز إلى نفسه ، غلبت فيها الناحية الفنية على الناحية الإرشادية التى كانت سمة على كثير من أدباء تلك الفترة ، ومن رواياته ابن مسلم وهى رواية تاريخية عن أحد المجاهدين المسلمين ومن رواياته أيضًا نواب فريد ، ونقش ونقاش . انظر أردو أدب جهارم ص ١٦٩-١٧٠ .

(١٠) وقد تختلف القصة القصير عن الرواية فى الحجم ، وقد تضغط الرواية لتصبح قصة قصيرة أو تمط القصة القصيرة لتصبح رواية ، لكن النقاد يرون غير هذا لأن الفرق كبير بين القصة القصيرة والرواية . انظر الدكتور الطاهر احمد مكى القصة القصيرة دراسة ومختارات ط . السادسة دار المعارف مصر ١٩٩٢ ص ٩١ وما بعدها .

(١١) هؤلاء من رائدات فن القصة فى الأدب الأردى وارتبطن بأدباء كبار فنذر سجاد حيدر هى زوجة الأديب سجاد حيدر يلدرم ووالدة الأديبة قرة العين حيدر .

(١٢) فضل الحق قريشى : ساهم فى إثراء اللغة والأدب الأردى عن طريق كتاباته فى المجلات الأدبية وبخاصة النسائية منها وعاصر الأدباء السابق ذكرهم .

(١٣) نياز فتحبورى : ولد فى فتحبور بشمال الهند سنة ١٨٨٧م وتوفى فى كراتشى سنة ١٩٦٦م درس فى المدرسة الإسلامية فى فتحبور ثم بالمدرسة العالية فى رام بور ودار العلوم بندوة العلماء فى لكهنو ، درس العربية والفارسية والإنجليزية ودرس علم الحديث

واللغة التركية وساهم بالكتابة في عدة مجلات مثل " نكار " بالكاف الفارسية وكانت تصدر من بهويال أولاً ثم صدرت من لكهنو فيما بعد ، وقد هاجر بعد التقسيم إلى كراتشيى وهناك صدرت " نكار " مرة أخرى ، ومن مؤلفاته : صحابيات ، وتمدن ، ونكارستان ، وايك شاعر كا انجام (نهاية شاعر) ومن رواياته شهاب كى سركذشت أى سيرة شهاب وأيضًا نهاية شاعر ، وله مجموعة نقدية بعنوان انتقاديات فى النقد الأدبى صدرت فى مجلدين . انظر د. سيد عبد الله أردو أدب جنك عظيم ، وأيضًا أردو أدب بنجم ص ١٧٢-١٧٤ وأيضًا جلد أرد أدب جهارم ص ١٩١-١٩٢

(١٤) نلن شهرة واسعة بين أديبات الأردية نظرًا لمكانتهن فى المجتمع ومساهمتهن فى الكتابات الصحافية . وخاتون إكرام نالت شهرة أوسع منهن . ومن بين قصص عباسى بيكم ذاعت شهرة قصتها (كرفتار قفس) أى حبيس القفص وقصة (دو شهزاديان) الأميرتان ، ومن بين قصص نذر سجاد ذاعت شهرة (حور صحرائى) حورية الصحراء و(خون ارمان) دماء الرغبة ، أما أمة الوحى فقد نالت قصتها (شهيد وفا) شهيد الوفاء شهرة كبيرة . انظر بحث محمود هاشمى بعنوان فن الإبداع فى القصة نشر فى كتاب اردو افسانه روايت اور مسائل ص ٤٩٣ وما بعدها مرتبه بروفسر كوبى تشند نارنك ايجويكشنل بلشنك هاوس دهلى ١٩٨١م

(١٥) سادت الكتابات الإرشادية قصصهن ورواياتهن إذ كن يعبرن عن وجهة نظر إصلاحية بحتة .

(١٦) كما أصدر أيضًا عبد الحليم شرر دل كداز (١٨٦٠م) وظل يكتبها وحده لمدة خمسين سنة ينشر فيها مسلسلات رواياته ومقالات أدبية ونقدية كما أصدر " محشر " من لكهنو " ومن المجلات الأدبية أيضًا «كلدست» التى أصدرها رياض خير آبادى سنة ١٨٧٩م وبعدها أصدر فتنه وعطر فتنة سنة ١٨٨٣م ثم أصدر بيام عشق وارمغان فرح ، انظر تاريخ الصحافة الهندية بالإنجليزية للكاتب ناتراجان س . واردو ادب جهارم ص ٥٤٣ وما بعدها .

(١٧) حجاب إسماعيل . حجاب إسماعيل التى عرفت بعد الزواج باسم حجاب إمتياز على نالت مكانة عالية قبل التقسيم ، وتمتاز كتاباتها بالتركيز على التعاطف مع الناس والشعور بآلام البشر، ولهذا غلب على قصصها طابع الحزن ، واشتهرت بقصصها الخيالية ، ومن الجدير بالذكر أنها توقفت عن الكتابة بعد تقسيم شبه القارة .انظر وقار عظيم ، داستان سافسانه تك ص ١٢٤ وص ١٣١

(١٨) مسز عبد القادر : نالت شهرة أوسع من رفيقاتها نظراً لأسلوبها القصصي المميز، وتأثرها بالرومانسية .

(١٩) ادجار ألن بو : علم متميز فى الأدب الأمريكي ربما ولد فى ١٩ يناير ١٨٠٩م ، كان شاعراً وناقداً وقصاصًا ، كتب القصة القصيرة ، بعضها تحليلي والآخر خيالي ، وأغرم بالمناظر العابسة والمبانى القديمة ، وقد غلب عليه رغم كل هذا الطابع الرومانسي . انظر الدكتور الطاهر أحمد مكى القصة القصيرة ص ٧٦ وما بعدها .

(٢٠) عصمت تشغتائى : ارتبطت الأديبة عصمت تشغتائى بحركة الأدباء التقدميين ، وتعد أشهر الأديبات بسبب قدرتها الفائقة على كتابة القصة ، وتصويرها بوضوح تام لقيم المجتمع ، وبسبب روح الدعابة والشقاوة فى كتاباتها ، وقد عالجت بوضوح موضوع الجنس فى رواياتها ، سيطر عليها الاتجاه الواقعى ، فاختارت لموضوعاتها الأسر المسلمة من الطبقات المتوسطة ، وعالجت نفسيات المرأة ومتاعبها الجنسية ، وكان هذا من الأمور التى لا يمكن للمرأة فى زمانها الكتابة عنها ، وبعد التقسيم تركت كتابة القصة القصيرة واتجهت لكتابة الرواية . انظر أردو أدب بنجم ص ٩٤٤ وما بعدها . وأيضًا وقار عظيم داستان سافسانه تك ص ١٢٩ وما بعدها والأدب الأردى الإسلامى لسمير عبد الحميد الصفحات المتعلقة .

(٢١) هاجره مسرور تنتمى إلى أدباء ما قبل التقسيم ويعتبرها النقاد أشهر كاتبة قصة فقد اختارت موضوعات قصصها بدقة ، وساد كتاباتها طابع السخرية والتهكم ومن قصصها الأمة المرحومة والظلمة والنور . انظر داستان سافسانه تك ص ١١٨ وما بعدها.

(٢٢) خديجة مستور: من أدباء ما قبل التقسيم واشتهرت بقدرتها على رسم شخصيات قصصها ببراعة ، وصورت الحياة الاجتماعية والسياسية والبيئة المحيطة بها .

(٢٣) واجده تبسم: صورت فى قصصها الصراع داخل الأسرة من جهة وداخل المجتمع من جهة أخرى وتعد أيضاً من أديبات ما قبل التقسيم

(٢٤) حركة الأدباء التقدميين أو ترقى بسند تحريك أو انجمن ترقى بسند مصنفين أى جمعية المؤلفين التقدميين ، حركة ظهرت بعد سنة ١٩٣٦م بعد أن تأثر بعض الأدباء والمؤلفين بالنظريات الاشتراكية التى عمت العالم فى تلك الفترة ، وقد ظهرت بعد صدور قصة الأديب بريم تشند " كفن " ومجموعة قصص بعنوان " انكارى " أى الجمرة " فكانت هذه هى إرهاصات ظهور حركة الأدباء التقدميين ، وبعدها نشر الأديب أحمد على قصة بعنوان شعلة فعمت شرارتها الهند ، واجتمع مجموعة من الأدباء وعقدوا أول اجتماع لجمعيتهم سنة ١٩٣٦، وألقى فيهم الأديب بريم تشند خطبة الحفل الافتتاحية ، فأعلن الثورة

ضد الرجعية والتخلف ، وأشار إلى ضرورة نشر المبادئ الاشتراكية .. ونصح الأدباء بضرورة تناول الموضوعات السياسية والاجتماعية فى كتاباتهم ، ونشر أصحاب هذا الاتجاه أدبًا يقوم على الفحش أحيانًا مما أثار عليهم المجتمع والحكومة ، وحدث تغير طبيعى بعد تقسيم الهند ، وراح الأدباء أنفسهم ينهجون نهجًا معتدلاً .

انظر تاريخ أدب أردو بنجم ص ٤٣٦-٤٣٨

(٢٥) من هؤلاء ممتاز شيرين التى حاولت أن ترقى بالقصة الأردية إلى المستوى الغربى وهى تمتاز بسلاسة البيان وجودة الحبكة الدرامية وكان لها إدراك عميق بالتجربة الفنية واعتبرها النقاد " أول ناقد " للقصة الأردية وهناك أسماء أخرى مثل سحاب قزلباش وتسنيم سليم جهتهارى وعائشة درانى وشايسته اختر سهروردى وجيلانى بانو وصالحة عابد وبروين مسرور وحميدة سلطان وزهرة جبين وسيدة أشرف وغيرهن .

(٢٦) انظر قومى دائجست بهترين افسانه نمبر جون ١٩٩٣

(٢٧) قومى دائجست فبراير ١٩٨٩م ص ١٩٣ وما بعدها .

نقشٌ على الماء

عقيلة كاظمى

منذ فترة طويلة وهى تعيش حياتها كامرأة فاشلة ، لهذا صار قلبها رقيقًا ، مثل الموج، إذا ما تعرض لضغط بسيط من يد الحزن، اضطرب ، وفقد الثبات والانتظام ، وهو ما يطلق عليه القلق أو عدم الاستقرار والاضطراب ، كانت تشاهد وجوه الناس الضاحكة ، تلك الوجوه التى تعلوها مسحة من الحزن والأسى ، كما كانت تشاهد العيون الذابلة التى انطفأ بريقها ، والشعر الأشعث غير المرتب ، عندها تَغْرَوْرَق عيناها بالدموع ، وتتحرك الدموع إلى أطراف عينيها ، فتحاول أن تحرك رموشها بسرعة ، حتى تخفى هذه الدموع ..

لا يمكن – فى الظاهر – إذا رأيت وجهها أن تقدر مدى الحزن بداخلها ، فهى تمامًا مثل البيت الجميل ، تغبط صاحبه على جماله وعظمته ، وتتمنى من صميم قلبك أن تعيش فيه ، لكن إذا دخلته ، رأيت جدرانه ، وقد تقشرت طبقة الألوان عليه وتساقطت هنا وهناك ، بينما الغرف من الداخل تبدو مثل خرابة مهجورة .

كانت مروة تعتبر أحلامها حقيقة وواقع ، وذات يوم حين شعرت فجأة أن هناك فجوة واسعة بين تصوراتها وبين الواقع ، كما أنها لا يمكن أن تعتمد على أحد فى أسرتها ولا على حبيب روحها ؟ ، عندئذ أصابها اليأس الشديد ، وصارت الحياة بالنسبة لها بلا معنى ، بلا هدف ، بلا مقصد ، لم تكن سوى سقف تعيش من تحته ، ولم يبق أمامها سوى الدعاء لله بأن يقبض روحها بسرعة.

كان صيف ذلك العام حاراً ، واشتدت الحرارة فى تلك الأيام ، وبدأت العاصفة تثير الغبار هنا وهناك ، وبدأت ريح السموم تهب على فترات متقطعة طول النهار والليل أيضاً ، بدأت أصوات تخبط الأشياء ببعضها ، وأصوات تكسر غصون الأشجار وفروعها ، بل وصوت اقتلاع الأشجار من جذورها ، وارتطامها هنا وهناك ، وتحطم النوافذ وسقوطها من ارتفاعات مختلفة .. كل هذا بينما مروة راقدة على سرير متواضع فى ركن من أركان البيت المبنى بالطوب اللبن ، مغمضة العينين ، كانت غارقة فى تفكير عميق منذ عدة ساعات ..

صارت بالتدريج مثل كنز الأسرار، لهذا لم تعجب نساء القرية أبداً، كن ينظرن إليها نظرة سوء ، لكنها كانت امرأة شجاعة ، كانت امرأة ولا ألف رجل ، كانت هناك قصص عجيبة وغريبة تحكى عنها ، ويحكى أن لصاً دخل بيتها ذات ليلة ، كانت ليلة من ليالى الشتاء القارس ، كانت ليلة مظلمة شديدة البرودة ، وكانت مروة قد أطفأت نور المصباح ، حتى تقتصد فى الوقود الذى شح فى تلك الأيام ، حين سمعت مروة صوت حركة فى البيت ، استيقظت ، حين اقترب اللص من سريرها انقضت عليه ، وأمسكت بياقته ، ولم يستطع اللص ، رغم استجماعه لكل طاقته

الرجـولـيـة ، أن يفلت من يدها ، وتجـمع الناس مع طلوع الصـبـاح ، فسوّدوا وجه اللص ، وطافوا به في حوارى القرية .

والآن زادوا على القصة أمورًا كثيرة ، لكن كبار السن فى القرية يقولون إن حكاية شجاعة مروة ، قد انتشرت فى أنحاء القرية لدرجة أن حادثة سرقة واحدة لم تسجل فى قرية " مارى بور " بعد هذه الحادثة .

تعيش مروه وحيدة فريدة منذ زمان ، تقوم بعملها ، وتدير شئون بيتها بنفسها ، ربما لو كانت هناك امرأة فى القرية تقوم بمثل ما تقوم به مروه ، لتكسرت عظامها و"انهد" حيلها ، كانت مروه تعتمد على الله .

كانت " مارى بور" قرية صغيرة ، تضـم على أكثر تقدير خمسين أو ستين بيتًا ، وعمدتها (والد نياز أحمد) كان رجلاً طيب القلب ، كريمًا سخيًا ، كما كان دائمًا يتعاطف مع أهل القرية ، فى المساء يجلس فى "المضيفة" فيجتمع الناس كبيرهم وصغيرهم، فقيرهم وغنيهم دون تمييز ، يناقشون قضاياهم ومشكلاتهم ، كانت مارى بور تعتبر قرية مثالية ، يسودها الأمن والأمان ، لكن هذا الاسم الطيب "مارى بور" كان قد ارتبط باسم الرجل الطيب الشريف عمدة البلد ، كانت مروة هى البنت الوحيد لوالديها ، التى بقيت على قيد الحياة من بين أربعة عشر أخ وأخت ، وكان بقاؤها على قيد الحياة بصعوبة كبيرة ، وقد ظنوا أن ذلك كان بفضل الله ، وبمساعدة التعويذة المعلقة بخيط طويل فى رقبتها ، ونتيجة دعاء الشيخ الولى الكبير ، من الواضح أنها كانت فتاة عنيدة ، ودماغها صلب مثل الحجر ، كانت من حيث الشكل جميلة ، كانت قمحية اللون ، مليحة ، فى عيونها ملامح السحر البنغالى ، كان شباب القرية من أصحاب القلوب المرهفة ، إذا ما شاهدوها أطلقوا آهات حارة ،

وكان بعضهم يصدر أصوات الصفير الخافت ، معبراً عن إعجابه بها ، لكن مروة لم تلتفت لأحد أبداً ، ولم تعر أحداً انتباهاً ، كانت تفخر بجمالها وحسن شبابها ، فكانت تتدلل على الجميع ، وبدأت تحلم ، ووصلت أحلامها إلى مراتب عليا ، فوق .. فوق ..

كان والدها فقيراً ، يعمل بالزراعة ، لكنها كانت تتخيل نفسها مكان زوجة ابن العمدة ، تتخيل نفسها تعيش فى "السرايا " الخاصة بحضرة العمدة ، وليس فى هذا البيت الصغير المشيّد بطوب اللبن ، المسقوف بفروع الشجر ، وكانت تتصور نفسها جالسة على أريكة جميلة ، تستند على وسائد مخملية جميلة ، وتصدر أوامرها إلى الخدم ، فيلبون طلباتها دون تأخير ، وإلا عاقبتهم عقاباً شديداً ...

كانت أمها تسمع ما تهذى به مروة فى أحلامها ، فقد كان صوت مروة يسمع فى معظم الليل، وهى غارقة فى أحلامها الوردية، التى تفيق منها فجأة، فتنهض على الفور، وتذهب إلى جوار أمها مكسورة الخاطر!

كان الحقل كله قد اكتسى بالبياض ، كأن الخالق عز وجل فرش الأرض بالجليد ، ذات يوم ذهبت مروة إلى الحقل ، لا لتجمع القطن، ولكن لتجلس هناك تراقب بإمعان لوز القطن الذى تفتح عن آخره ، وإذا بها تشعر بمن يربت على كتفها ، فانتفضت على الفور ، ورفعت عينيها ، فإذا بنياز أحمد ابن عمدة البلد ، يقف أمامها ، فى سرواله ، وقميصه الأبيض ، يتطلع إليها بنظرات ملؤها الحب ، فشعرت مروة بالخجل ، ولم تدر ماذا تفعل ، فقال لها :

– يا عفريتة ! منذ فترة وقلبى ميّال إليك ، وأفكر طول الوقت فى فرصة تسمح لى بلقائك ، فأنا لا آتى إلى القرية إلا فى الإجازات فقط ، ومع هذه فقلّ أن أراك ، فكرى فى حالى إذن !!

– بس .. بس .. توقف يا سيدى .. لا تثر قلبى بكلامك ، حتى لا أنوب ولا أتمكن من تمالك نفسى ، ماذا يعجبك فىّ .. ؟ هناك فى السرايا " الغنضورة" الست حميدة ..

هكذا ردت مروة بتهكم وسخرية ، وهى تحاول أن تخفى السرور العظيم الذى ملأ قلبها ، وحاولت أن تظل متماسكة لا تلين ولا تتأثر أمام نياز أحمد .. لكن منذ ذلك الوقت بدأت اللقاءات بينهما سراً كل يوم .. لكنها القرية .. ماذا يمكن أن يخفى على أهل القرية .. انتشر الكلام بين الناس وبدأ الجميع يسبونها مرة ويلعنونها مرة أخرى ، بل ويبصقون عليها ، لم يكن أحد يستطيع أن يتنفس بكلمة أمام العمدة أو أمام ابن العمدة ، وتحملت مروة الألم ، وكتمت فى قلبها معاناتها الشديدة .

ذات يوم وصلت مروة بصعوبة شديدة إلى السرايا ، تحت جنح الظلام ، وتشجعت حتى وصلت إلى فراش نياز أحمد ابن العمدة ، فهزت قدميه ، ففتح عينيه ، وحين رأى مروة أمامه ، نهض فى صمت ، ومضى معها ..

– مروة ! ماذا فعلت ؟ ماذا لو رآك أحد؟! الحمد لله فأبى ذهب إلى المدينة ...

هكذا خاطبها بصوت خافت مضطرب فقالت له :

– يا سيدى ! سوف يزوجونى من رجل عجوز قريباً ، أنا لا أقول لك إن حبى لا بد أن يكلل بالزواج منك ، لكن أخبرنى كيف يمكننى أن أعيش الحياة الآن ، وما هو أملى فى الحياة بعد ذلك ؟

فرد عليها نياز أحمد بلهجة ممزوجة بالألم قائلاً :

- مروة ! يمكننى أن أكون بجوارك طول العمر ، لكنها التقاليد الأسرية والعادات التى راجت بين العائلات ، وكذلك مسائل الميراث .. كلها قيدت يدى ..

فقالت مروة :

- حسنًا يا سيدى ! إنى ذاهبة

هكذا تمالكت مروة نفسها ، واستأذنت منه ، وعادت إلى بيتها فوجدت أمها تقف فى صحن الدار المتهالك ، وفى يدها فردة حذاء ، فأشبعتها ضربًا ...

وفى كل يوم كان على مروة أن تنظف البيت ، بينما أمها تدفعها هنا وهناك ، تحثها على العمل تارة ، وتؤنبها تارة أخرى .. حتى جاء يوم ، قدم فيه إلى بيتهم نديم .. عجوز وأب لأربعة أولاد ، تزوجها وأخذها ومضى ، وهكذا ذهبت مروة إلى بيتها الجديد على بعد ثلاثة أميال ، حيث كان نديم العجوز يسعل ويكح طول الليل ..

فى النهار يأكل الأولاد الطعام ثم يتفرغون للعب والصياح ، ومروة فى حالها لا تهتم لا بالعجوز ولا بالأطفال ، ولا حتى تهتم بالبيت ، كل همها أن تعد الطعام ثم تنطلق طول اليوم لتعمل فى الحقول ، تُدخل السرور على قلوب الذاهب والقادم من الشباب ، كان الشباب ممن يعملون فى حرث الأرض ، أو ريها ، أو جمع المحاصيل يحاولون لفت انتباه مروة إليهم ، بالإعلان عن حبهم لها ، فكانت مروة تسوق عليهم الدلال حينًا ، وتمنيهم بالأمانى حينًا ، ثم تتمتع برؤيتهم يكتوون بنار حبها.. لقد اختارت مسلكًا عجيبًا .. وبينما كانت مروة تشب وتكبر ، كانت تزداد ملاحة وحسنًا !!

تم زواج نيـاز ابن العمـدة من حـميـدة ، فـأنجبت له ولدين ، كـانت مـروة عـادة تمر بالقـرب من مـجلس نيـاز ، وكـان هـناك بعض الشـبـاب يتبادلون عمداً كلمات وتلميحات لها مغزى ، لكنهم لم يفعلوا ذلك بالطبع أمام نياز أحمد ، كان نياز أحمد فى الحقيقة يشعر بالخجل ، حاول أكثر من مرة أن يتعرض لها ، واعتذر لها بجدية ، فقد أراد أن يوضح لها الظروف التى أجبرته على زواجه من حميده ، لكن مروة لم تعد تحتمل سماع أى كلام أو أعذار ، كما أنها لم تعد تتحمل المكوث فى البيت ، فكانت تقوم مبكراً ، فتطبخ الطعام ، وتعجن وتخبز خبز يومها ، وتضع كل هذا فى " طبق الخوص " الكبير، بعدها تبدأ اهتمامها بنفسها ، فتعدّل من هندامها ، وتسرّح شعرها، وتنتعل حذاءها ، ثم تلبس أجمل ملابسها وتنطلق خارج البيت ، حذرها زوجها أكثر من مرة ألا تذهب ناحية الحقول ، لكن مروة لم تصغ إليه أبداً ، وكأنها لم تسمع شيئًا ، فقد كانت تعيش حياتها بالطول والعرض ، وتحمل الحياة معها على كتفيها حيثما مضت ، فتارة تجلس على السكة الضيقة الفاصلة بين الحقول ، وتارة تقف فى ظل شجرة تضحك للخولى ، الذى يشرف على الأنفار ، وتارة تقف بجوار الإسكافى تقهقه وتضحك ، كانت مروة تمثل فى كل وقت خطراً على جميع نساء القرية ، ومن هنا كان يحلو لهن أن يتكلمن عنها بسوء أمام الرجال :

– غانية .. تحاول دائمًا إغواء الرجال .. أمثلها يكون مؤمنًا بالله؟!

– إنها تتصنع الحديث وتتكلم من أنفها ...

– ماذا لديها هذه المرأة حتى يمتدحها كل رجل فى القرية؟!

قالت واحدة لأخرى :

– لا شىء .. الشباب .. وماذا يريد الرجال غير ذلك ؟

– لا تقاس المرأة دائمًا بابتساماتها وضحكاتها .

– ماذا يضير فى اللعب والتمتع ..؟!

– لو تزوجنى أحد فربما صدقت كلامك .

– ألم تعرفى كيف لعب بها ابن العمدة ، ثم كيف دحرجها بعيداً عنه ؟!

– نعم هذا صحيح أيضًا ..

كانت مسرة تتكلم بشجاعة وهمة ، لأن زوجها كان أكثر الرجال مدحًا لمروة وإطراء عليها.

ظلت سلسلة الأمطار التى هطلت هذه المرة فى الصيف لا تتوقف، بل لم يكن من الواضح أنها ستتوقف ، وكان سقف بيت مروه ، وسقف بيوت أناس آخرين غيرها قد تهدم ، وظل كثير من الشيوخ يدعون ويعلمون الناس الدعاء لله حتى يتوقف المطر، وارتفعت أصوات المؤذنين أيضًا ، لكن السماء ظلت تمطر هذه المرة بغزارة شديدة ، غير معهودة ، لدرجة أن المحاصيل فى الحقول غرقت فى الماء ، وظل جميع أهل القرية قلقين مما أصابهم، إلا مروة، التى ارتسمت على وجهها ملامح الطمأنينة كالعادة ، فهى الآن أيضا تدور تبتسم وتضحك ، لكن شباب القرية سئموا مداعباتها التى جاءت فى غير محلها ، فعنفها معظمهم بشدة :

– ألا تخجلين ؟! مات طفلك .. ألا تتعظين ؟ زوجك مريض يرقد فى الفراش .. وسقف بيتك سقط عليكم ..! من أى طينة أنت ؟! ألا تخافين من غضب الله ؟!

وترد مروة على الجميع بابتسامة عريضة ، وتظل صامتة ، لا ترد على أحد بكلمة واحدة ..

ذات ليلة بينما كان الناس جميعًا يغطون فى نوم عميق، وبينما توقف هطول المطر إلا من زخات خفيفة ، كانت حوارى القرية قد امتلأت بالوحل ، وكان الصمت يغلف كل شىء ، حتى الهواء سكت ، لم يعد يتحرك ، وفجأة بدأت أصوات مرعبة تتردد فى الأجواء ، فى البداية ظن أهل القرية أنهم واهمون ، لكن حين بدأ الصوت يتحول إلى زئير مرعب ، أفاق الجميع من هول الصدمة ، ونهضوا من فراشهم ، وارتفعت أصوات الصراخ هنا وهناك :

– يا إلهى ! الطوفان ... الطوفان ..

بدأ الناس جميعًا يفرون .. يهربون من القرية ، بينما الماء ينساب ، يغمر بيوت القرية بالتدريج .. كان الصراخ والعويل مخيفًا ، لم تعد الأصوات تسمع ، كان الناس يهربون ، وكانت النساء يصرخن ، ويندبن حظهن بالعويل ، بينما اندفع الأطفال هنا وهناك يحاول بعضهم تسلق الأشجار .. وكان الناس إذا ما شاهدوا بيتًا من البيوت المتينة أو المبنية بالإسمنت ، اندفعوا إليها وصعدوا على سطحها ، فالمياه قد دخلت غرف البيوت ، كانت هناك هضبة مرتفعة قريبة من القرية ، فاندفع الناس جميعًا ناحيتها ، لكن مروة كانت تمضى وهى مرتبكة ، مشغولة بسحب أطفالها وطفلى زوجها الذين حاصرتهم المياه ...

متى تعلمت مروة السباحة ؟! لا أحد يعرف .. لكنها أنقذت الكثير من أطفال القرية ونسائها من الغرق .. لم تكن تفكر فى شىء ، كانت

منشغلة فقط في الاندفاع ناحية الماء ، فتسحب أي طفل تراه أو أي امرأة تراها إلى بر الأمان ، ثم تندفع ثانية ناحية الماء ، وبينما هي كذلك إذا بموجة شديدة ، تسحبها إلى وسط النهر ، لم تعد لديها قدرة على أن تنقذ نفسها ، وهكذا التهمتها الأمواج ، كان بعض من أنقذتهم ، قد صعدوا على سطح منزل ، فشاهدوها وهي تتلوى مع الأمواج ، فظلوا يصرخون ، يطلبون من الناس النجدة ، ويصيحون حتى يسرعوا بإنقاذها من الغرق .. .

بدأت مسرة تخاطب صديقتها صفية ، وهي تنظر إلى الأرض في خجل :

- كم هي طيبة .. انظري كيف تعاطفت مع الجميع ..إنها لم تفكر أبداً في نفسها ، وفيما قد يصيبها ، وجازفت بحياتها وأنقذت أطفالنا من الغرق .. لقد أسأنا إليها كثيراً ، وتكلمنا في حقها ، كنا نشعر بالغيرة منها ، لقد خدعها الرجال .. لم تزرنا أبداً ...

لم يستطع نياز أحمد أن ينسى مروة حتى اليوم ، فقد تركت على الماء " نقشاً " لا يمكن أن ينمحي أبداً ، لقد أصابته بجرح لا يندمل طول عمره ...

واليوم نياز أحمد رجل طيب ، عطوف ، خير .. عادت الحياة مرة أخرى إلى قرية " ماري بور " ، وعادت البهجة إليها ثانية ، لكن مروة اليائسة ، لا تزال نقشاً على الماء ، نقشاً لم يستطع أحد أن يقرأه ، أو يعرفه ، أو يفهمه .

تمت

كيسٌ من الخبز

سيد عاصم محمود

كانت " سارة بيغم " تأتى إلى محلات " الحاج كرم الدين وأولاده " يوميًا فى تمام الساعة الخامسة مساءً ، وهى أسواق مركزية مملوءة بكل ما يحتاجه البيت تقريبًا من مستلزمات وبضائع ومأكولات ، كانت تتمعن فى كل شىء ، وتتفحص كل شىء ، سواء علب البسكويت أو مكعبات الزبدة ، أو حتى علب السمن المغلقة ، أو حتى " الكيك " و"الجاتوه " الذى كان يجهز بطريقة خاصة فى مخبز أسواق " الحاج كرم الدين وأولاده " الشهيرة .

حين كانت سائرة بيغم تأتى إلى الأسواق ، كان يستقبلها على الفور أحد العمال المكلفين بخدمة الزبائن ، وقبل أن تتطلع هنا أو هناك كانوا يبادرونها بالسؤال :

– هل يمكن أن نساعدك ؟ عن أى شىء تبحثين يا تُرى؟!

عندئذ كانت تسأل عن ثمن بضائع مختلفة ، وتنصت إليهم وهى تتطلع إليهم بإمعان ، وقد أخبروها أكثر من مرة أن "الكعك المحشو

بالزبيب" ثمنه خمسون روبية ، وأن علبة الشاى الصغيرة بأربعين روبية ، وحين سمعت أن "كيلو" الحلوى بمائة روبية ، هزت رأسها وكأنها تقول :

– آه ! تذكرت الثمن ، ربما أشترى الأسبوع القادم حين أدعو إلى بيتى بعض الأقارب .

لكنها لم تدع إلى بيتها أحداً أبداً ، ورغم مجيئها إلى أسواق "الحاج كرم الدين وأولاده" مدة ستة أشهر ، لم تشتر شيئًا ولا حتى بروبية واحدة ، ومع هذا فهى لا تزال تأتى كل يوم فى تمام الساعة الخامسة مساءً ، فتسرق " كيس" خبز ، وتخفيه تحت عباءتها ، ثم تخرج من المحل بهدوء .

إن سرقة الخبز بالنسبة للمرأة أمر صعب ، لأن إخفاء كيس من الخبز أمر غير طبيعى على الإطلاق ، لكن سارة بيغم كانت تأتى إلى "أسواق الحاج كرم الدين وأولاده" ، وهى تلف جسمها بعباءة واسعة من القماش الثقيل ، وكانت حين تسرق الخبز ، تضعه تحت إبطها ، ثم تضغط عليه بذراعها ، وهكذا يختفى كيس الخبز تحت العباءة بسهولة ويسر ، كان الخبز القمحى اللون الطازج ، الذى يعد فى فرن "أسواق الحاج كرم الدين وأولاده" قد جذب إليه الزبائن من كل صوب، وذاعت شهرته فى المنطقة كلها .

وإن أردت أن تتذوق طعم هذا الخبز اللذيذ ، فلتذهب فوراً إلى حى "مُدل تاون " لتشترى الخبز الطازج المخبوز فى فرن الحاج كرم الدين ، لن تجد صعوبة فى الوصول هناك ، فنكهة الخبز اللذيذ سوف تجذبك إلى المكان دون عناء ، ذلك الخبز الذى يضاعف من لذة الطعام ، عدساً كان أو دجاجًا ، أو أى إدام ! وهكذا ففى تمام الساعة الخامسة مساءً

يعج المحل بالزبائن ، وتأتى سارة بيغم ، فتسرق " كيس" الخبز ثم تمضى لحال سبيلها بهدوء وسكينة .. كان شاه دين هو أول من اكتشف السرقة !!

كان شاه دين هو ابن محمد دين أكبر أبناء الحاج كرم الدين ، كان ابنًا مطيعًا ،لا يزال يدرس فى المرحلة الثانوية ، وفى هذا العمر يضل معظم الأولاد سبيلهم ، ويتجهون إلى قضاء أوقاتهم فى اللهو واللعب ، أما شاه دين فقد كان بعيداً عن كل هذا ، فكان يخرج من المدرسة ، فيذهب على الفور إلى البيت ، حيث ينتهى من واجباته المدرسية ، وفى المساء كان يذهب إلى المحل حتى يتمكن من مساعدة الآخرين العاملين فيه ، خاصة فى وقت الذروة ، وهجوم الزبائن .

أما عمر دين الابن الثانى للحاج كرم الدين ، فقد كان ولده الأكبر جاويد فى البداية مهملاً ، يدور هنا وهناك ، لا يبالى شيئًا فى الحياة ، لكنه الآن تغير وصار يتحمل المسئولية ، بعد أن رأى سلوك شاه دين الجاد ، كما كان الابن الثالث للحاج كرم الدين يساعد أيضًا فى العمل .

كنا نتحدث عن أمر السرقة ، وأن شاه دين كان أول من اكتشف أمرها ، لم يكن كغيره من بعض الشباب متسرعًا ، تحركه العاطفة ، كما لم يكن يندفع سريعًا فى اتخاذ قراراته كغيره ممن هم فى مثل عمره ، فى اليوم الأول ، ساوره الشك ، عندئذ قام فى اليوم الثانى ، وقبل مجىء سارة بيغم بدقائق ، فسجل عدد " أكياس الخبز " الموضوعة على الأرفف ، وبعد خروجها ، عدّ الأكياس ، فتحول شكه إلى يقين ، فقد اكتشف غياب " كيس" من الخبز ، من فوق الأرفف !

لو كان أحد غيره فى مكانه ، لصاح على الفور وهاج وماج ، وعرف الجميع حين ذلك بأمر السرقة ، لكن شاه دين ظل ينتظر اليوم التالى بصبر وتحمل ، وحين حدثت السرقة أيضًا فى اليوم التالى ، خرج فى صمت وسكون خلف المرأة العجوز .. وبعد حوالى عشرين دقيقة ، وجدها تدخل فى مبنى قديم ، يتكون من عدة شقق مختلفة المساحات ، عرف شاه دين اسم المرأة وعنوانها من الحارس ، واكتشف أنها تقيم فى شقة قديمة متهالكة ، تتكون من غرفتين فقط ، رجع شاه دين بعد أن عرف المعلومات التى يريدها ، ثم ذهب إلى والده ، واختلى به فى ناحية ، وقص عليه القصة من أولها إلى آخرها.

استشاط محمد دين غضبًا ، لكنه ظل صامتًا ، لم يخبر شاه دين أحداً آخر بأمر السرقة ، وظل صامتًا كما فعل والده .

كان محمد دين يختلف من ناحية القوام والجسم عن بقية أفراد الأسرة ، كانت زوجه شمسه تطهو ألذّ أنواع الأطعمة ، ومرة ظل يأكل وهو جالس على المائدة حتى شبع تمامًا ، إلا أن هذه الأطعمة اللذيذة لم تتمكن من زيادة وزن محمد دين ولا حتى نصف كيلو، فقد كان نحيفاً مثله مثل فيلسوف لا ينقطع عن التفكير .

فى تلك الليلة ، بعد تناول الطعام ذهب الجميع إلى غرفة الحاج كرم الدين للجلوس معه كالعادة لمدة نصف ساعة ، والحاج كرم الدين لم يعد يفكر فى مشاغل الحياة ، فهو الآن يتمدد على الفراش أو يجلس على الكرسى يدخن النارجيلة ، بينما لحيته البيضاء الطويلة ، تحتك بصفحات الكتاب الذى يضعه فوق " كرشه " الممتلئ .

على مـدى هذه النصف سـاعـة ، يتـبـادل جـمـيع أفـراد الأسـرة الأحـاديث ، وينصـتـون مستفيـدين من تجارب جدهم وجدتهم ، في تلك الليلة حين أوشكت الدقائق الثلاثون على الانتهاء بدأ دين محمد يقول :

– أريد أن أخبركم بشيء !

فتح الحـا ج كرم الدين إحدى عينيه ، فارتفع شعر حاجبيه الأبيض وهو يقول :

– أي خبر ؟

فقال محمد دين بهدوء:

– خبر سرقة !

عندئذ ساد صمت ، وتحول الجميع إلى آذان مصغية ، وفتح الحاج كرم الدين كلتا عينيه ، فقط ظل شاه دين العاقل صامتًا لم يقل شيئًا .

قال محمد دين :

– امـرأة عـجـوز .. لا أدري منذ مـتى وهي تسرق يومـيًا من المحل كيس" خبز " ..

حركه الغضب .. فاحمرت عيناه من الغضب .. فعاد الحاج كرم الدين إلى كرسييه، وغاص فيه من جديد ، وأخرج "خرطوم" النارجيلة من فمه ، وأرخاه على " كرشه " الضخم، وظل صامتًا برهة ، ثم تمتم قائلاً :

– هذا كلام غير مفهوم!

صاحت ابنته بيغم جهان قائلة :

– مثل هؤلاء الناس مكانهم السجن.

فقال الحاج كرم الدين :

- هذا لص عجيب !

وقال خورشيد وهو ابنه الثالث الذى يعمل فى المحل بلهجة غاضبة :

- أنا أعرف هذه العجوز المكارة .. فهمت .. عرفت .. من تكون !

تكلم الحاج كرم الدين ثانية ، كان صوته أشبه بصوت الرعد يأتى من فوق السحاب :

- يا لها من امرأة عجيبة ، تسرق فقط كيس خبز!!

كانت الكلمات الأربع الأخيرة على خلاف ما توقع الجميع ، وكأن حية أصابت جميع من بالغرفة بعد سماعهم هذه الكلمات ، فقد كانت تحمل فى طياتها معان خفية ، تركت أثرها على أسرة الحاج كرم الدين كلها ، صغيرها وكبيرها .

قال الحاج كرم الدين وهو يحاول أن يغير مجرى الحديث :

- تسرق.. كل يوم .. فقط .. كيس .. خبز ... واحد !!

وشدد على كلمة خبز وتوقف عندها لدرجة أن السامعين جميعًا اقشعرت أبدانهم من رؤوسهم إلى أرجلهم .

استرخى الحاج كرم الدين فى كرسييه ثانية ، وأغلق عينيه من جديد ثم سحب " خرطوم " النارجيله ، ووضعه فى فمه وبدأ صوت " الكركرة " من جديد ، وتصاعد دخان الطباق مرة أخرى .. بينما خرج الجميع من الغرفة فى صمت وهدوء .

وفى اليوم التالى ، عادت الأمور إلى طبيعتها .. لم يتحدث أحد مع الآخر بأى شىء مما حدث ، لكن العجيب أنهم جميعًا ظلوا يفكرون فى نفس الموضوع .

كان السيد سليمان رجل الأعمال له أسهم أيضًا فى هذا المحل وكان ولداه يشرفان على قسمين من أقسام المحل ، فى ذلك المساء التقى بدين محمد وقد استشاط غضبًا فقال :

- لقد عرفت أنها تلك العجوز التى تضع البرقع الأسود يا لها من لص ..

فنظر دين محمد إلى السيد سليمان ، وكأنه ينظر إلى فراغ سحيق وقال :

- نعم ..

ثم تطلع إلى السيد سليمان وسأله بصوت مملوء بمشاعر الإنسانية :

- أتدرى ماذا تسرق ؟

- أخبرنى ولدى أنها تسرق " كيس " خبز.

فقال دين محمد :

- إنها تسرق كيس خبز .. لا علينا !

وكأن كهرباء سرت فى دماغ السيد سليمان ، فشعر بالخجل قليلاً ثم انفجر ضاحكًا :

- صحيح .. لا علينا !

ثم أخذ يضحك ويقهقه بشكل غير طبيعى .

كانت هناك علاقات متينة تربط بين أسرة السيد سليمان التاجر الكبير وبين أسرة الحاج كرم الدين ، ولهذا كانت المودة قائمة بينهم ، وكان التفاهم أيضًا ضروريًا ، لهذا فقد أدرك على الفور الموقف الذى يجب اتخاذه ، تجاه سارة بيغم .

فى ذلك المساء حين دخلت سارة بيغم المحل ، استقبلها أصحاب المحل كالعادة بكل ترحاب ، كانت ترتدى اليوم أيضًا البرقع الأسود الذى غيرت الأيام من سواده فصار كالحًا، كانت التجاعيد تملأ وجهها ، لكنــه يدل بوضـــوح على أن هــــذا الوجــه كان ذات يوم جميلاً جداً ، لم يحاول أحد أن ينظــر إليها أو يهتم بها حتى لا يلفت انتباهها .. كل ما فعلوه هو اهتمامهم العادى بمن حولها من الزبائن ، بنفس الطريقة التى اعتاد عليها الجميع .

حسب العادة حين سئلت ماذا تريد ؟ سألتهم عن ثمن "كيك الشيكولاته" وسألت عن ثمن الرمان القندهارى ، وحين تحركت هنا وهناك تتفحص البضائع المعروضة ، انشغل فجأة جميع العاملين فى المحل ، وكأن أمامهم أعمال كثيرة يجب عليهم إنجازها .

استمر هذا الحال مدة ستة أشهر ، لكن ذات يوم لم تأت سارة بيغم إلى المحل ، شعر الجميع على الفور بغيابها ، وفى ذلك اليوم دار حديث أيضًا بالهاتف بين الحاج كرم الدين وبين السيد سليمان عن هذا الموضوع . وحين لم تأت فى اليوم الثالث ، ذهب شاه دين إلى مسكنها ، وهناك عرف من إحدى العجائز أن سارة بيغم مريضة ، وهى طريحة الفراش، ولهذا فهى تقيم فى شقتها لا تبرحها ، فرجع ليخبر الجميع بمرض سارة بيغم، وكان يشعر بالقلق والخوف الشديد من وقوع مكروه، لا يدرى عنه شيئًا .

ورأى محمد دين أن يتخلص من هذا القلق ، فوصل إلى حل ، ورغم أنه فى الظاهر رجل جاف حاد المزاج لكن الأسرة كلها تتعجب من قدرته على حل القضايا والمشاكل المعقدة .

فى الليل وحين انفض الزبائن ، وأُغلقت أبواب المحل صاح محمد دين بصوت عال :

– ضع ثلاثة كيلوات من الرمان القندهارى فى كيس وكيلو قهوة .. جاويد ! أخرج " كيكة بالشيكولاته" من الثلاجة ، وضعها بطريقة طيبة فى علبة جميلة .. أنت عمر دين ..!

وهكذا طلب من كل واحد منهم أن يقوم بتجهيز شىء ما .

كان أولاد الحاج كرم الدين ، وأولاد السيد سليمان رجل الأعمال متعاونين متفاهمين فيما بينهم، وكانوا يدركون أفكار بعضهم ويعقلونها ، ويعتمدون على بعضهم ، ولهذا كانت العلاقة بينهم متينة ، وهكذا فهموا جميعًا على الفور قرار محمد دين ، وفى دقائق معدودات فى ليلة من ليالى شهر يونيو الحارة ، كانوا جميعًا يحملون هذه الأشياء إلى بيت سارة بيغم .. وحين دخلوا المبنى وبدؤوا فى صعود السلم ، وجدوا بعض الأبواب مفتوحة .. فشموا روائح متنوعة . .

حين وصلوا إلى الطابق العلوى طرق محمد دين الباب ، مرت لحظات لكن الباب لم يُفتح ، فطرق الباب من جديد ، لكنه لم يُفتح ، فارتسمت على وجوه الجميع ابتسامة واسعة.

بدأ محمد دين يقرع الباب بشدة ، فانفرج الباب قليلاً ، فمد رأسه إلى الداخل ، ومن ورائه حاول الجميع أن يمدوا رؤوسهم ، لينظروا ماذا

في الداخل .. كان هناك مجلس تتوسطه طاولة كبيرة ، تحتها سجادة قديمة من النوع الرخيص ، وعلى الحائط رف وضع عليه خمسة أو ستة كتب، وفى الناحية الأخرى من الحائط علقت صورة رجل يرتدى سروالاً وقميصًا ، ويضع على رأسه قبعة مثل قبعة محمد على جناح مؤسس باكستان ، فعرف الجميع على الفور أنه زوج سارة بيغم .

تفحص محمد دين الطاولة لآخر مرة ، ثم تقدم ناحية الباب المغلق ، ووقف الجميع دون أن ينطقوا بكلمة واحدة فى صف واحد ، كان فى مقدمته محمد دين، وفى مؤخرته شاه دين، الذى كان يصغرهم جميعًا ، مع أنه كان من ناحية الذكاء لا يقل عن أكبر واحد فى الأسرة .

قرع محمد دين الباب لفترة طويلة ولم يرد عليه أحد ، فدق الباب بشدة ، ومع هذا لم يرد أحد ، وفى النهاية حرك مقبض الباب ، وفتح الباب ببطء شديد .. كان كل ما فى الغرفة كرسى جلست عليه سارة بيغم ، وهى تمسك فى يدها ورقة ، بينما رأسها يميل ناحية اليمن ، كأنها غارقة فى عالم من التفكير ..

لم ينطق محمد دين بكلمة ، تراجع ببطء إلى الوراء ، ثم أغلق الباب وهو فى حالة من اللاوعى ، واتجه ناحية السلم ليعود من حيث جاء ، ومع أن عدة أشخاص كانوا فى الغرفة لكنهم جميعًا عادوا من حيث جاءوا فى صمت ، وكأنهم يتصرفون بعقلية رجل واحد ، لدرجة أنهم لم يحملوا أى شىء مما وضعوه على الطاولة ، ماذا أدراهم .. فربما يتحول فرحها إلى حزن؟!

نزل الجميع دون وعى على درجات السلم ، كانت الدموع تترقرق فى عيون شاه دين ، بدأ محمد دين يحاول طمأنة ولده ، فقد شعر بمدى

ما اعتراه من حزن وأسى ، ذلك هو شاه دين الذى عادة ما يطالع الصحف فى الصباح الباكر ، وهو ولد ذكى ، وفطن ، طالما قال عنه الحاج كريم الدين أنه سيصل إلى أعلى المراتب .

فى صالة الطعام ، نشر الصحيفة أمام والده ، وأشار فى صمت إلى عنوان مكتوب بخط واضح ...

نظر محمد دين بإمعان إلى عنوان الخبر وبدأ فى قراءته : (عجوز تعيش بمفردها تهب لأحبابها مائة ألف روبية) وحين طالع الخبر وقع نظره على اسم سارة بيغم فتطلع ناحية زوجته شمسة ، التى كانت تقرأ الجريدة من خلفه، ولم ينطق بكلمة ، لكن شمسة فهمت ما يعنيه زوجها ، فذهبت لتتصل هاتفياً بالسيد سليمان رجل الأعمال ، وفى غضون ساعة، تجمع الجميع ، واتجهوا إلى المجلس حيث كان الحاج كرم الدين يجلس على كرسيه ويدخن نارجيلته .

فهم الحاج كرم الدين على الفور بحكم سنه وتجربته أن هناك خطباً ما ، لأنه فتح كلتا عينيه عن آخرهما ، وسأل دين محمد :

- ما الخطب ؟ !

فقرأ عليه دين محمد الخبر المنشور فى الصحيفة ، المتعلق بسارة بيغم ، لقد وجدتها الشرطة ، وقد فارقت الحياة ، وفى يدها رسالة ، يوصى فيها أحد أقاربها لها بمبلغ مائة ألف روبية .

قرأ محمد دين العبارة الأخيرة بلهجة ذات معنى ، بينما أخذ أولاد الحاج كرم الدين ، والسيد سليمان يتطلعون إلى بعضهم ، فقط كان شاه دين وحده يجلس وقد لفه الصمت ، واعتراه سكون عجيب ، ربما لأنه كان قد قرأ الخبر كله وعرف ما فيه من قبل .

قال الطبيب بعد الفحص والمعاينة إن قلب العجوز كان ضعيفاً لهذا لم تستطع أن تتحمل شدة الفرح ، الناتج عن نجاتها من حالة الفقر المدقع التى كانت تعيش فيه ، وطبقًا لتحقيقات الشرطة ، فقد وجدت وصية كانت العجوز قد كتبتها قبل وفاتها بيد مرتعشة ، كانت وصية فى سطور مختصرة جاء فيها :

" أوصى بجميع ممتلكاتى فى هذه الدنيا ، لأسرتى الحاج كرم الدين ، والسيد سليمان التى أشفقت على ، وحفظت على كرامتى ، واحترمت عجزى وتقدم عمرى ، حفظهم الله جميعا فى أمن وأمان."

وجدت الشرطة قليلاً من الأمتعة فى شقة سارة بيغم ، لكن حين تسلمت الشرطة مبلغ المائة ألف روبية قامت على الفور ، بتقسيمه على أسرة الحاج كرم الدين ، وأسرة السيد سليمان .

وضع محمد دين الصحيفة على الطاولة ، ثم خلع نظارته وأخذ ينظف عدساتها ، من الدموع التى بللتها ..

ساد الصمت الحجرة فترة ، لم ينطق أحد بكلمة ، وفى النهاية تنهد الحاج كرم الدين ، وانطلقت منه آهة باردة ، ثم رفع حاجبيه اللذين غطاهما المشيب ، وقال بلهجة رقيقة :

- " يحصدون ما يزرعون " ..

تمت

تحت ظلال الصنوبر

بيغم حجاب إمتياز على

منذ قدمت إلى هذه المناطق الجبلية، وأنا أسمع من الصغير والكبير عن جمال نهر "روحناك " وفتنته الخلابة ، يقول الناس : إن الأحلام الوردية تتلألأ على شاطئه المغطى بظلال الصنوبر ، وطبقًا لما يردده البدو القادمون من أعالى الجبال ، فإن قمم جبال مجهولة ، تشق أخدوداً فى السماء ، عند منطقة ما ، ومن هناك ينساب مجرى نهر "روحناك" أخدوداً يمضى بين المناطق الجبلية ، يتلوى ، وينحنى ، حتى يشكل فى النهاية نهراً يمضى فى هذا الوادى .

متى كان يمكن أن يقر لى قرار دون أن يجذبنى الشوق العارم لمشاهدة هذه المنطقة والتنزه فيها خاصة بعد أن سمعت هذه العبارات الرومانسية ؟!

توسلت إلى صديقتى " جسوتى " ذات يوم .. قلت لها :

" مرّ على مجيئنا هنا أسبوعان بالتمام ، ومع هذا لم نذهب حتى الآن للنزهة فى نهر " روحناك " إن رأيت الأمر مناسبًا لك ، استأجرنا الليلة " فالوكة " وقمنا بنزهة فى النهر .

صديقتى جسوتى فتاة لها طبع سليم ، تغطى وجهها حمرة ممزوجة بالبياض ، وأنا نفسى حملتها على المجىء معى فى هذه الرحلة ، بل أجبرتها على ذلك .. ابتسمت جسوتى وقالت :

" كما تحبين يا عزيزتى ، ولكنى أخاف الماء "

عندئذ قالت خادمتها السمراء ، ممشوقة القوام :

" سيدتى ! سمعت أن هناك على شاطئ نهر روحناك ملاّح عجوز ، يبلغ من العمر مائة عام ، ملاح خبير ، لا تهتز له سفينة أمام الأمواج ، فإذا أمرت قمت باستئجار فالوكة (الصحيح فُليكة) هذا الملاح "

فقلت دون مبالاة : " لا يهم من يكون الملاح ، ولا يهمنا أى فالوكة تكون .."

فقاطعتنى جسوتى : " ملاح عمره مائة عام ، ويبحر بفالوكة ... "

قالت الخادمة السمراء : "سيدتى ! سمعت أنه يقود الفالوكة منذ سبعين سنة ، ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ، لم تتعرض لحادثة قط"

وانتهى الأمر بذهابنا على الفور لاستئجار الفالوكة ، وترتيب أمور شاى المساء الذى سنتناوله فيها.

حين وصلنا جسوتى وأنا إلى المكان الذى سيبدأ منه الملاّح العجوز الرحلة على سطح نهر روحناك ، وجدنا فى انتظارنا فالوكة مزخرفة بقطع من المرايا الصغيرة والفصوص الزرقاء والحمراء كأنها جواهر حقيقية ، ومن خلال تموج الستائر المرصعة باللآلئ ، بدت لنا وسائد جميلة مصفوفة فوق قطع من السجاد العجمى ، كأنها تدعو القادم للجلوس والراحة .

ابتسمت وقلت لجسوتي : " يبدو أن هذا محراب هارون الرشيد "

بعد أن انحنينا قليلاً ودلجنا إلى الداخل ، التفتنا فرأينا ملاح السفينة ، شيخ بلغ المائة ، يجلس فى الناحية المقابلة ، ممسكًا بيده المجداف بقوة ، وعلى وجهه الذابل ، كانت شعيرات لحيته البيضاء الطويلة تتراقص بفعل نسمات هبت فى التوّ ، لم نشاهد فى عينيه الغائرتين بريق الحياة ، كل ما بدا على وجهه ، كان ملامح حسرة الماضى الذى ألقى بظلاله على نظرات عينيه .

أعدت الخادم السمراء الشاى ، ووضعته أمامنا ، فبدأنا نرتشف الشاى بلذة ، ونسكب جرعة منه تلو الأخرى فى حلوقنا ، ونحن نمضى ببطىء إلى داخل مجرى النهر الذى كان الغروب قد غطّاه ، بينما كانت الشمس تماطل ، تنثر أشعتها الذهبية فوق سطحه .. وبدا المنظر تدريجيًا يدعو للهيام ، وشعرنا بعطر النسيم العليل يفوح أكثر وأكثر ، بينا بدا صوت تتابع الموجات الهادئة كأنه مطر يسقط فى جزيرة أحلام على البعد .. واحتوتنا الطبيعة بجمالها ، وضمتنا بسحرها الخلاب ، فشعرنا كأننا فى أحضان جمالها الربانى ، صورة رائعة .. ترى فيها الشمس وهى تميل للغروب ، تظهر فى كل لحظة بطريقة مختلفة ، يصعب على الناظر تخيلها ، كنا كالأطفال المنبهرين أمام "الحاوى " الذى يعرض ألعابًا تتغير أشكالها بين لحظة وأخرى .. يا إلهى سبحانك !

كانت هذه أرض الأحلام بحق ، كانت جزيرة الخيال دون منازع .. تراءت لنا أشجار الصنوبر الفارهة الضخمة التى بدت وكأنها انبثقت من باطن الأرض منذ لحظة ، ومن بينها ينساب بساط من الأزهار البديعة ، ومن ناحية أخرى بدت التلال الخضراء كأنها تستحم فى بحر من النور

البـديع ، وبدت فـى إحـدى النواحـى سلسـلة هضــاب تخـتـفى وسط نتف السـحاب فـى الأفق البـعيد .. غلفنا الصـمت ، وعمّنا السكون ، لم أدر كم ابتـعدنا ؟ وكم من الوقت مـر على الفـالوكـة وهـى تسـيـر بنـا فـى النهـر ، وفجأة انتبهنا على صوت الخادم السمراء وهى تقول :

" سيدتى ! لنرجع .. فـالشمس تغرب .. حتى لا نضل طريقنا على سطح الماء "

فنطق الملاح الـعـجوز وقد علت وجـهه شبه ابتسـامـة مشكوك فيـها وقال :

" مسـتـحـيل .. لن نضـل الطريق .. لقـد اعـتـدت مـجـرى النهـر مـدة سبعين عامًا "

أخـذت أحـدق صــامـتـة فى وجــه الملاح ، الذى تركت حـرارة الأيام وبرودتها على وجـهه أخـاديد ظاهـرة ، كتلك التى تتركـها عـوامل التـعرية على وجه الطبيعة ، ثم سألته :

" يبدو أنك تسكن هنا منذ ما يقرب من قرن من الزمان ؟! "

" نعم "

" أين بيتك ؟ "

" بيـتـى ! لا يوجـد لى بيت فى أى مكان يا سـيـدتى ! إننـى أسكن ظلال أشجار الصنوبر "

وشـعرت أن آهـة انطلقت من صـدره الضـعيف وهو ينطق بعبارته الأخيرة ، فقلت له وأنا فى حيرة :

" تسكن ظلال الصنوبر ! هذا الحر الشديد الذى لا يطاق ، والبرد القارس لا يجعلانك ترفض هذا الشكل من المعيشة ؟ ألا يوجد لديك حل لهذا الأمر ؟

" حل ! " قالها وهو يضحك ضحكة باهتة

" يوجد لدى ذكريات قديمة ، ومن يوجد لديه ذكرى ، لا يمكن للصيف ، ولا للشتاء ولا لأى فصل آخر أن يترك أثره عليه "

وازداد فضولى فجأة فقلت له :

" يبدو أن ماضيك مملوء بالحكايات "

لكن العجوز لم يلتفت إلىّ وظل يتمتم ..يتكلم مع نفسه :

" أفضل أن أعيش تحت ظلال الصنوبر ، من الصعب علىّ أن أفارق هذه الظلال لساعة واحدة ، حينما لا أذهب للعمل فى المدينة أظل هنا أتجول فى مركبى هذا تحت هذه الظلال "

سألته بلهجة كلها توسل ورجاء :

" ألا يمكن أن تطلعنا على السر الذى يجعلك تعشق ظلال الصنوبر إلى هذا الحد ؟"

" هذا ليس سراً " نطق بهذه الجملة فجأة ، وقد تحول إلى شبح أسود تجاه أشعة الشمس .

" إن الجميع يعرف لماذا أعشق ظلال الصنوبر ، ولماذا أريد أن تنتهى آخر أنفاس حياتى تحت هذه الأشجار "

أسندت أنا وجسوتي ذراعينا على الوسائد ، وأنصتنا إليه بعمق ، بينما أمسك العجوز بالمجداف بين يده وراح يسمعنا حكايته دون مبالاة..

" منذ سبعين سنة كانت الدنيا في نظري في عنفوان شبابها ، كنت أشعر في كل حركة من حركاتها بالفتنة والسحر والجمال ، لم أكن ملاحاً فقيراً، بل كنت من التجار الميسورين في هذه الناحية من الجبل..

ذات يوم وفي فصل الربيع .. وفي ليلة كان فيها القمر الفضي يضاحك السماء ، خرجت إلى شاطئ النهر ، وحين اقتربت من ظلال أشجار الصنوبر تلك وقعت عيناي على صورة نادرة للحسن والجمال .. كانت فتاة صغيرة تجلس على صخرة خضراء تحت ظلال الصنوبر ، ثم تحولت فجأة إلى سلّة !! لا تطلبوا مني تفصيل ما حدث .. فظلمة الليل تحل علينا.. اعتبروا أنني لم أذهب إلى هناك .. كانت هناك قوة تجذبني، تلك القوة التي تملأ قلب كل شاب بورود المحبة وأزهارها .. بدأ الحب يربط بيننا ، كنا نلتقي كل يوم تحت ظلال الصنوبر المتراقصة ، فيعبر كل منا للآخر بقلب مضطرب عن أمانيه وآماله .. وبسرعة فائقة تزوجنا "

بلبل حزين من أعلى شجرة الصنوبر، فاستدار العجوز، ونظر إليه ، ثم قال وهو يرتجف :

هذا الطائر المجنون ؟ هنا نهاية طريق المحبة ، إنه لظلم شديد للغاية "

نظرت إلى جسوتي بصمت ، تطلعت إليها دون أن أنبس بحرف ، لابد أن قلب العجوز كان يفور يوماً ما بينبوع الشعر .. ضرب العجوز الماء بمجدافه عدة ضربات ثم تأوه وقال :

" بعد الزواج مرت ستة أشهر فى غاية السعادة ، وفجأة قلب حلمٌ تعس حياتنا رأسًا على عقب ، ففى الصباح فتحت زوجتى عينها وهى راقدة على وسادتها وقالت بلهجة حزينة :

" لقد رأيت حلمًا فظيعًا "

فنظرت إليها بحب متسائلاً : " كيف كان هذا الحلم ؟"

فأصدرت آهة طويلة وقالت :" رأيت فى منامى ملاك الأقدار الذى أوكل له الله كتابة أقدارنا ، جاء يرفرف بجناحيه من أعلى قمم الجبال ، وقال لى : إذا لم تزّينى شعرك بزهرة ورد ذات لون بنفسجى قبل حلول الليل ، فسيحل الخراب فى بيتك .. "

قبل سبعين عامًا كانت الدنيا مملوءة بالخرافات والأوهام التى لا حصر لها ، وهكذا حين سمعت من زوجتى قصة الحلم الفظيع ، تحول حبى إلى خوف وذعر ، فقالت زوجتى بعد أن رأت اضطرابى وقلقى :

" لكن لماذا كل هذا القلق ؟ "

فقلت لها : " كيف لا أقلق يا أعز من فى الوجود ؟! ألا تعلمين أن زهرة الورد ذات اللون البنفسجى نادرة بل لا وجود لها فى هذه المنطقة الجبلية ! "

اصفر وجه زوجتى على الفور وقالت :

" نادر .. غير موجود ؟! إذن ماذا سنفعل ؟! لا بد أن أزين شعرى بالوردة البنفسجية قبل حلول الليل ، وإلا تحطم بيتنا السعيد ، هكذا قال ملاك الأقدار "

واضطـربت مـن الأفكار التى ملأت ذهنها ولا تدرى عنها شيئًا ، ثم انفجرت فى البكاء ، فأخذت رأسها ، وأرحتها على صدرى ، ووعدتها أن أرسل جـميع " الجنايينيـة " فى المدينة إلى مـختلف حدائق المناطق المجاورة ، وسوف أؤكد عليهم أن يحضروا بشكل أو بآخر زهرة الورد البنفسجية.

نشرت زوجتى شعرها الطويل على كتفيها فانساب حتى وصل إلى خصرها ، وانطلقت لتستحم عند عين الماء القريبة ، حتى تصفف شعرها قبل أن تصل الوردة البنفسجية.. وخرجت بدورى مرتبكًا مضطربًا قلقًا ، للبحث عن الوردة البنفسجية ، قابلت كل بستانى فى المدينة ، وسألته ، لكن الجميع قالوا بأن من المحال أن توجد وردة بلون البنفسج فى تلك المنطقة ، وأصابنى اليأس والحزن والأسى ، فذهبت إلى بستان حاكم المدينة ، وعرضت على البستانى حاجتى .. كان رجلاً ظالمًا للغاية ، فكر .. و فكر ثم قال : إن زهرة الورد البنفسجية موجودة فى بستاننا ، لكن قيمتها لا تقل عن ستة جنيهات أشرفية ،فوضعت الجنيهات الستة فى كفه ، وأخذت الوردة البنفسجية ، وعدت إلى بيتى فرحان تغمرنى السعادة .

طارت زوجتى من الفرح حين شاهدت الوردة البنفسجية ، وقالت مبتسمة .

" لو لم أزين شعرى بهذه الوردة فأى مصيبة كانت ستحل بنا يا تُرى ؟!"

فقلت لها :" هاك الوردة ضعيها فى شعرك على الفور .."

لكن لا أدرى ما الذى جعلها تقول لى إن شعرها لا يزال مبتلاً ، ويستحسن ألا أضعها الآن ، سأضعها قبل أن يحل الظلام .. قالت هذا ثم ملأت إحدى الزهريات بالماء، ووضعت فيها الوردة ، وحتى تظل الوردة بطراوتها ورونقها وضعت المزهرية على حافة الشباك فى الهواء الطلق ..

لم أستطع الذهاب إلى عملى ذلك اليوم لانشغالى بالبحث عن الوردة طوال اليوم ، فذهبت إلى أحد المحلات ، وفى المساء وحين كنت فى طريق عودتى إلى البيت التقيت فجأة بصديقى القديم " حمرى " قريباً من بيتى ، لم أكن قد رأيته هنا منذ عدة أسابيع ، عانقته بسرور ..

" كنت قد ذهبت إليك ، ولكن لم أجدك ، ويئست من لقائك ، وها أنا راجع من حيث أتيت " ولم يكد ينهى جملته حتى وقع بصرى على عُروة عباءته ، فتوقف الدم فى عروقى ، وانكتمت أنفاسى وسألته على الفور :

" حمرى ! من أين أتيت بهذه الوردة البنفسجية ؟! "

كان صديقى حمرى بطبعه مرحًا وصاحب دعابة ، فضحك قائلاً : "لماذا ؟ لماذا بدا عليك القلق هكذا ؟ لقد أهدتها لى حبيبتى .. شىء نادر الوجود ، بل لا وجود له هنا فى هذه المنطقة !! "

أظلمت الدنيا أمام عينى ، وأُصبت بالذهول ، ذلك الحلم ، ملاك الأقدار ، نبوءته كل ذلك كان كذبًا وخداعًا ، لقد اخترعت زوجتى هذا الكذب المزخرف لمجرد أنها تريد أن تزين عروة عباءة حمرى ... يا للحياة القاسية .. يا للحياة الظالمة ..

وصلت إلى البيت وأنا أرتعد غضباً، رأتنى زوجتى، فجاءت مهرولة ، قالت والدموع تترقرق فى عينيها :

" يا للأسف .. انظر لسوء الحظ .. لقد ضاعت الوردة .. يا الله .. ما أفعل الآن ؟ لا بد أن مصيبة ستحل بنا ، لا بد ستحل بنا مصيبة "

وصدر عني زفير وقلت :

" لا يمكن أن تكون هناك مصيبة أكبر من الموت ، أدركى أن موتك قد حان "

وتحيرت زوجتى ، وبدأت تنظر إلىّ ، لكنى فى ذلك الوقت لم أكن أرى فى أى حركة من حركاتها سوى المكر والخداع والدهاء ، فصرخت وقلت :

" حان موتك .. استعدى لتتحقق نبوءة ملاك الأقدار "

فتعجبت وقالت :

" ماذا تقول ؟ لا تقل هذا الكلام ، بالله عليك ، ابحث عن الوردة البنفسجية ، لقد وضعتها فى الشباك حتى تكون فى الهواء الطلق ، وانشغلت بتصفيف شعرى ، وحين عدت ، نظرت فلم أجدها فى الشباك "

أشعل كلامها الماكر النار فى جسدى وفى بدنى ، فأمسكت ذراعيها اللينتين بيدى القويتين ، ودفعتها بقوة إلى الحائط ، فارتدت بعد أن اصطدمت به ، وتفجرت الدماء من رأسها كالنافورة ..

وفى ظلمة الليل البهيم دفنتها تحت ظلال أشجار الصنوبر تلك ، حيث كان لقاؤنا الأول..

وانتابنى شعور جنونى لا إرادى ، وبينما كنت عائداً إلى البيت إذا بى صدفة ألتقى بصديقى حمرى عند منعطف أحد الطرق ، وحين رأيته فارت الدماء فى عروقى ، وتطاير الشرر من عيونى ، لكنه ضحك وقال :

" عيناك حمراوان ، كأنك سفكت دم أحد فى التو واللحظة "

كان يتكلم وكأننى لا أعرف عن سره الدفين شيئًا ، فهجمت عليه وأمسكت بتلابيبه وقلت :

" يا خسيس ! أتظن أنى لم أسيّل دمها ؟ لقد واريتها التراب " قلت هذا ونزعت الوردة البنفسجية من عروة عباءته وألقيتها على الأرض ورحت أسحقها تحت حذائى بحركات مجنونة ، وظل حمرى يحملق فى وجهى دهشًا متعجبًا ، حتى إذا ما قلت له : لقد قضيت على حبيبتك ، وأنا أستعد الآن لأقضى عليك، عندئذ وجدته يصرخ من أعماق قلبه قائلاً :

" يا قصير النظر ! يا متعجل ! أيها التعس المنحوس ! تلك الوردة البنفسجية التقطتها من الشارع حين كنت أمر من ناحية السوق ، وجدتها فالتقطتها ، ولعلها سقطت من شباك بيتك "

سمعت كلماته ، فغيمت سحابات الظلام على عينى .. سحابات لا تزال تُغيب عن نظرى تقلبات وتعاقبات الزمان ..

كان كلام ملاك الأقدار صحيحًا ، فلم تستطع زوجتى أن تزين شعرها بالوردة البنفسجية فى تلك الليلة ، وتحطم بيتنا على يدى ، نتيجة لحماقتى ، وتسرعى ، لقد مر على هذه القصة أكثر من سبعين سنة ، ولكنى لا أزال نادمًا على ما ارتكبت من خطأ ، وما اقترفت من ذنب ، ولا زلت أشعر بالاحترام والحب لهذا الطين الذى دفنت فيه حبى تحت ظلال الصنوبر ..

ووصلت الفالوكة إلى الساحل .

تمت

واستيقظ الضمير !

سيد نويد أختر زيدى

مرت سنوات طوال لم تقع عيناى عليه ، لهذا لم أصدق نفسى حين وجدته أمامى .. هل هو حقًا صديقى الحميم رضا حميدى بشحمه ولحمه!! بجسمه القوى المتين ، وقامته الطويلة ..

لم أصدق نفسى بعد أن رأيت هيئته تلك ،كم تغير رضا حميدى ! كانت لحيته منفوشة ،وشعر رأسه منكوش غير منظم .. يبدو أنه يعانى من مرض ما ،لا بد أن الحياة لم تمض على هواه ،أو ربما واجه مشكلة ، أو تعرض لحادثة قلبت حياته رأسًا على عقب ، وغيرت من هيأته التى عهدته عليها ..

يا تُرى أى حادثة تلك ؟ !

كان القطار يمضى بسرعة ، ينهب الأرض ، ويقطع المسافات ، متجهًا إلى محطته، بينما جلس رضا حميدى فى المقعد المقابل ، يغط فى نوم عميق ، لا يدرى بما حوله ،وبينما كان القطار يمر بمحطة صغيرة ، يوشك على الوصول إلى مدينتى، سيطرت علىّ مشاعر الحيرة والارتباك:

هل أوقظه أم أتركه ؟ وزاد من حيرتي وارتباكي أن حالته كانت متردية للغاية ، فأنا أعرف أنه لم يكن له في هذه الدنيا - بعد الله - غير والده ، كان يحب أباه حبًا جمًا ، فقد كان يردد على أسماعنا دائمًا حكايات عن أبيه ، بينما كنا ننصت إلى أحاديثه بشغف ، لا نشعر بمرور الوقت ، وهو يعبر بقصصه تلك عن حبه وعشقه لأبيه ، وكان يتميز بشيء فريد ، وهو أنه لم يكن يتحمل أو يقبل الغلط ، ولا يوافق عليه أبداً ، وإذا ما رأى خطأً ما حاول إصلاحه بأى شكل ، وحاول أن يجد له حلاً سليمًا ، وهكذا التف حوله جميع طلبة الكلية ، واختاروه زعيمًا لهم ، بعد أن شكلوا جمعية أُطلق عليها اسم " جماعة شباب الكلية " ، وهكذا كان الطلاب إذا ما واجهتهم مشكلة ما ، ثاروا وقدموا مطالبهم فى ظل قيادة رضا حميدى ، وكانوا يحصلون دائمًا على مطالبهم .. فى تلك السنة زادت مصاريف الكلية فجأة ، وكنا فى السنة النهائية ، لكن الطلاب الذين سيعانون هم طلاب السنوات الأولى ، ومن هنا قامت " جماعة شباب الكلية " بمقاطعة الدروس ، احتجاجًا على زيادة المصروفات ، وقرروا الاستمرار حتى تلبى إدارة الكلية مطالبهم ، وخسرنا كثيراً نتيجة لمقاطعة الدروس ، لكننا كنا مجبرين على ذلك ، فى وقت لم تحرك فيه إدارة المدرسة ساكنًا .

حاولت إفهام رضا حميدى :

- يا أخى إن مقاطعة الدروس خسارة لنا، علينا البحث عن طريق آخر.

فابتسم وهو يجيبنى تمامًا كما توقعت قائلاً :

- يا صديقى بالتأكيد فى هذه خسارة ، لكنها خسارة بسيطة إذا ما قورنت بالضرر الشديد الذى يقع على الطلبة الفقراء ، فكر بنفسك

فى الأمـر ، كـيف سـتُـعَلَّم الطلاب الفـقـراء المسـاكين ،هؤلاء الطلاب المجتهدون الأذكياء سيحرمـون من التعليم ليس لشىء إلا لأنهم لا يملكون نقـوداً ، وسيقتصـر التعليم على الأغنيـاء فقط ، وحين يصـير هؤلاء أطباء ومهندسين أو قـادة للبلاد فلن يكون ذلك بسبب كفاءتهم بل سينالون هذه المناصب مـروراً على جسـر الثروة ، أمـا من هم على شـاكلتنا ، فلك أن تقدر بنفسك مصيرهم ، يجب أن نمنع هذا الضرر ..

كان دائمًا يتكلم ، بينما أظل أنا صامتًا أستمع إليه ..

استمرت مقاطعة الدروس أسبوعًا متواصـلاً ، ولم يجد جديد فى الأمر ، ففكر رضا حميدى فى خطة جديدة ..

الخروج إلى الشوارع ..

وهكذا خـرج جـمـيع طلاب الكلية تحت قـيـادة رضـا حـمـيدى فى مظاهرة عـارمـة ، وأغلقت الشـوارع ، وارتفـعت الهتـافـات ضد عـميـد الكليـة ، عندئذ طلب العـمـيـد - لأول مـرة - حـمـيدى إلى مكتبـه ، ظل يتحدث معـه لفترة طويلة ، وحين خـرج حـميدى من المكتب شـاهدنا على شفتيه بسمة الانتصار.. لقد أُجيبت مطالبنا ، وتم تخفيض المصروفات بنسبة ٧٥٪ ..

إن الوقـوف فى وجـه الظلم ، ورفع الصـوت عـاليًا ضـد أى خطأ هو أمـر طيب ، لكن إلحـاق الضـرر بالآخـرين فى سـبـيل ذلك لم يكن يلق ترحيبًا منى ، ولم يكن يعجبنى أبدًا ، وهذا ما رددته كثيراً على مسامع حـميدى ، فكان يرد علىّ مُقدمًا الدليل تلو الآخر ، عـارضًا حـجـجه ، حـتى أسكت رغم أننى لم أكن أتفق أبداً مع حـجـجـه وآرائه ، كـان بين

أفكارى وأفكاره بون شاسع ، لكننا إذ ما تناقشنا فى أمر ما كان هو الفائز دائماً ، وكان يسخر منى قائلاً :

– يا صديقى اترك هذا الكلام الدقيانوسى ، فنحن لسنا فى زمن المثاليات ، ففى هذا الزمن لا يمكن للمثاليات أن تؤدى إلى نتائج واقعية .

وينتهى النقاش عند هذا الحد !

وتمر الأيام وتفاجئنا الامتحانات ، ثم تظهر النتيجة بعد شهر ، نلنا معًا أعلى الدرجات وكانت تقديراتنا مرتفعة ، ثم أخذ كل منا طريقه بعيد عن الآخر ، ذهبت إلى مدينة أخرى للحصول على دبلوم فى الصحافة ، وعرفت بعدها أنه احترف الصحافة ..

فجأة قطع حبل تفكيرى صوت رضا حميدى القوى ..

وقف رضا حميدى أمامى ، يتطلع إلىّ فى حيرة .. ثم تعانقنا فى حب عناقًا طويلاً ، أخذنا نتذكر ونسترجع القصص والحكايات القديمة .. لكن يا ترى .. لماذا لا أجد فى نبرات صوته الوقار القديم ؟! أشعر أنه لا يريد أن يفرض رأيه أو يجعلنى أوافق عليه . لا يرغب أيضًا فى ذلك ! فى لهجته مسحة من ألم .. لا بد أنه محطم من داخله ، وفى النهاية وضعت يدى على موضع الألم ..

– رضا حميدى ! هل أُخبرك بشىء ؟ لم تعد رضا حميدى الذى عرفته من قبل .. عيونك الذابلة .. هذه العلامات .. هيئتك هذه تدل بالضرورة على أنك تعرضت لحادثة ما ثم ...

كانت فى عينيه دموع ..

- شاء القدر أن يغّيرني .. يجعلني أشعر بالذل ، أنهزم ..

لا أدرى ماذا كان يقول .. فبقيت صامتًا أنصت إلى كلامه ..

- كنت دائمًا ألجمك بكلامي وحججي ، وكانت هذه أكبر غلطة ارتكبتها ،لم أستمع أبدًا إلى كلامك ، ولم أقدره ، بل كنت دائمًا أصرف النظر عن كل ما كنت تقوله لى ، ليتنى استمعت إليك .. لا أزال أتذكر جيداً حتى الآن ذلك اليوم المنحوس حين خرجنا نحن الصحافيين فى مظاهرة ضخمة ، نعلن عن مطالبنا ، تأثرت حركة المرور إلى حد ما بسبب هذه المظاهرة، واستمرت المظاهرة حتى أذعنت الحكومة لمطالبنا .. ففرحنا بما حققناه ، ورجعت إلى بيتى سعيداً منتشيًا ، وحين وصلت إلى البيت ، كان كل همى أن أُبشر والدى بهذا الخبر ، لكنى وجدت " قفلاً " ضخمًا على الباب !!

يا ترى أين ذهب والدى ! وبينما أنا على هذا الحال إذ قدم أحد الجيران فألقى علىّ بقنبلة فتاكة !! أخبرنى بأن أبى أصيب بنوبة قلبية وحمله أهل الحى إلى المستشفى ، فأسرعت إلى المستشفى .. وهناك وجدت كل شىء قد انتهى .. لقد فقدت صحبة أبى فى هذه الحياة ، فقدت رفقة أبى لى فى هذه الحياة .. لم أكن على استعداد لتصديق ما حدث ، فأخذت أصرخ : يا دكتور من فضلك افحصه ثانية ، بالله عليك افحصه مرة أخرى .. مكثت أهذى وأنطق بكلمات غير مفهومة .. طالما صحت باحتجاجات ، وطالما هتفت بهتافات ، حققت بعدها النجاح ، لكن احتجاجى هذا ، وصياحى أمام الطبيب لم يحقق فائدة تذكر ، فقد أجابنى بكل وضوح قائلاً : آسف يا سيد.. آسف.. آسف.. لو جاء أبوك مبكرًا بدقيقتين فربما كان من الممكن إنقاذه، لقد توفى فى الطريق..

والتفتُ إلى جارى :

– أفضل ! كيف حدث هذا ؟

– كانت حالته لا تحتمل الانتظار يا حميدى ، فأسرعنا به إلى المستشفى ، حاولنا أن نصل هنا بأسرع ما يمكن لكن مظاهرة فى الطريق أعاقت وصولنا بسرعة، كان المرور قد توقف نصف ساعة تقريباً بسبب هذه المظاهرة .

هزتنى كثيراً كلمات جارى ، وشعرت بأننى قاتل والدى ، والآن أيضاً لا أزال أشعر أننى لم أقتل والدى فقط بل .. لا أدرى كم من الآباء قتلت !!

وسكت حميدى .. وعلمت سر هذه العيون الذابلة ، التى صارت خالية من كل المعانى الحلوة .. وأخذت أفكر : هل سيتوقف رضا حميدى عن رفع صوته ضد الظلم والعدوان ؟! لا ليس هذا بالإمكان فأنا أعرف طبيعته ، لقد أقسم بالله منذ أن كنا فى الكلية أن يواجه الباطل بكل شدة ، لكن ربما يلجأ إلى أسلوب آخر ، وربما يكون هو الأسلوب الصحيح ، وأقصد " لا ضرر ولا ضرار " فقد شعرت بأن همته كانت هى نفس الهمة ، وعزمه هو نفس العزم ، وعواطفه ومشاعره لم تتغير ، لكن فيها فرق !! وانطلق القطار بأقصى سرعته متجهاً إلى محطة جديدة .

انتهت

رسـم الأحـبة

بيغم حجاب إمتياز على

تعودت من زمن أن أرسم بقلمى صوراً لكل من أُقابلهم فى حياتى ، ومن بين هؤلاء يوجد جميع أنماط البشر : الأقارب والمعارف والأصدقاء والأحبة والخدم وغيرهم كثر ، ومن الواضح أن مثل هذه الصور لا يمكن أن ترسم لإنسان ما لم يتميز بشخصية معينة ..

فتعالوا أعرفكم على أحـدهم .. فإذا ما صادفكم فى الشارع أو السوق أو الحارة شخص يضع على رأسه " طاقية" تعلو رأسه بشكل غير عادى ، ويمضى على دراجة ، ممسكًا بيده دراجة أخرى فاعرفوا أنه هو الشخص الذى أريد أن أعرفكم عليه.

إنه أحد معارفنا القدامى الذى طالما ساعدنا وعاوننا على أمور كثيرة ، رجل على خلق ، تجده دائمًا وقت الشدة ، يقدم لك كافة أشكال المساعدة ، فإذا حدث مثلاً وانتهى " تموين " السكر نتيجة تردد الزوار على البيت ، ولم تبق فى البيت حبة سكر واحدة ، قام من فوره وجاءنى بعدة كيلوات من السكر ، وإذا احتاجت السيارة إلى قطعة غيار ، ولم أتمكن من الحصول عليها ، تولى هو أمر البحث هنا وهناك حتى

يعثر عليها ويحضرها على الفور ، والخلاصة أنه يتعاون فى مثل هذه الأمور ، لكنى منذ فترة طويلة لم أتمكن من معرفة الوسيلة التى يركبها حين يأتى إلى بيتى ، ومن هنا لم أكن أدرى شيئًا عن سر الدراجتين اللتين ترافقانه على الدوام ، إلا أن هذا السر الدفين انكشف لى قبل عدة أسابيع ، وحدث هذا بالصدفة أيضًا ..

فبينما كنت أقف فى الحديقة أشير على البستانى بغرس شتلات ورد النرجس إذا ببوابة الحديقة تنفتح فجأة محدثة دويًا ، ولأن القادم كان طويلاً وعريضًا ، وضخم البنية ، أخذت أطالع فيه وقد ركب دراجته ممسكًا مقودها بيد ، وممسكًا فى يده الأخرى دراجة ثانية .. هكذا ظهر أمامى فجأة .. فأثارتنى هذه الحادثة كثيراً بل أفزعتنى ..

نزل من فوق دراجته ، ابتسم لى وهو يلقى على بالسلام ، واتجه ناحية الدراجة الثانية ، ففتح " صرة " من القماش كانت مثبّتة على الدراجة ، وقدمها لى مبتسماً وهو يقول :

– هذا سكر نبات !

لقد اعتاد كلما زارنى أن يأتى لى بهدية ما ، يا لها من عادة طيبة ، شكرته ووجدتنى وأنا أمسك بقطع السكر النبات أسأله فى حيرة :

– لماذا .. ؟ هاتان الدراجتان .. اليوم .. !!

اليوم .. نطق الكلمة بهدوء ثم أردف قائلاً :

– أنا دائمًا أستعمل دراجتين فى وقت واحد ..

وضعت " صرة " القماش فوق الحشائش وحيرتى تزداد فسألته :

– يمكنك أن تغير دراجة بين حين وآخر ؟!

فأجاب :

– لا أغير ، فطالما أركب هذه الدراجة فهى لا تخرب

هكذا شرح لى وجهة نظره ، فسألته :

– ألا تخرب الدراجات أيضاً ؟

فغضب من جهلى وقال :

– كيف تفكرين؟ هل الدراجات مصنوعة من الحجر ؟ إذا كانت السيارات التى تسير فى الشوارع يمكن أن تتوقف عن الحركة فلماذا لا تتوقف هذه أيضاً ؟

فسألته :

– ماذا يحدث ؟

فقال :

– يمكن أن ينفجر الإطار ، يمكن أن ينقطع الجنزير !

عندئذ سألته :

– اذن الدراجة الثانية هى التى انفجر إطارها ؟!

فقال :

– لا .. إنها سليمة تماماً وبحالة جيدة ، إننى أسحبها معى دائماً على سبيل الاحتياط، فالاحتياط واجب، فإذا خربت إحداهما ركبت من فورى الأخرى ، وهذا هو حال طاقية الرأس أيضاً فإذا ما تغير لون إحداهما أو سقطت نتيجة حادث لا قدر الله ، فالطاقية الثانية تكون جاهزة على الفور لتوضع على الرأس ، ولهذا أضع على رأسى طاقية من تحت طاقية !!

حاولت بعد أن سمعت كلامه هذا أن أكبت صوت ضحكاتى ، لكنى بدأت أفكر.. ربما كان بعد تفكيره هذا مفيداً جداً للإنسان ..

تأثرت بشخصيته كثيراً بعد هذه الواقعة ، وهكذا وضعت فى معصمى دائماً ساعتين فإذا توقفت واحدة كانت الأخرى مستمرة فى العمل ، إن سلوكه هذا يجعل عجلة الحياة تمضى فى يسر وسهولة ، يجب علينا جميعًا أن نفكر بالأمر ، فنحن فقط نحتفظ داخل سياراتنا بإطار احتياطى لا غير !

ذات يوم جاءتنى مكالمة هاتفية تفيد بأن حادثة ما وقعت في بيته ، أقصد أن زوجته انتقلت إلى الرفيق الأعلى ، لم أكن أعرف أيضًا أن له زوجة ، كما لم أكن أعرف أيضًا أين يسكن ؟ وعلى كل حال كان علىّ أن أذهب إليه لأداء واجب العزاء .

بعد يومين أو ثلاثة أيام من حادثة الوفاة خرجت أبحث عن بيته ، وبعد أن فتشت نصف المدينة تقريبًا انكشف لى هذا السر ، وهو أنه يقيم بالقرب من بيتى ، وهكذا ظللت أدور حول نفسى أكثر من مرة ، حتى وجدت بيته ، بعد قليل من المشقة .. فدخلت البيت .. كان الأقارب يجلسون فى صمت يفرضه موقف العزاء ، فجلست بينهم يلفنى الحزن ، وبعد فترة انتهيت إلى ضرورة أن ألتقى بمن جئت أقدم له واجب العزاء ، فسألت الجميع أين هو ؟ وفى النهاية التقيت به .. لكن فى أى حالة كان الرجل ..؟!

كان الحزن يطغى على جميع الحاضرين ، لكن الرجل الذى جئت لأقدم له العزاء لا تبدو عليه إمارات الحزن .. كان سعيداً ، هادئًا ، مطمئنًا ، وسيطر علىّ سوء الظن لحظات ، لعله هو الذى قتل زوجته ؟!

لكنى شعرت بالندم على هذا التفكير الإجرامى الذى تبادر إلى ذهنى .. وفى النهاية تشجعت وبدأت أنطق بكلمات العزاء ، أقدمها له فى صوت متلجلج حزين :

– إننى أشعر بالأسى والحزن ، أدعو الله أن يلهمك الصبر والسلوان ، إن البيت يتحطم بموت الزوجة ..

فابتسم وقال بطريقة المنتصر :

إن الله على كل شيء قدير ، إن الله حكيم خبير ، لا تقلقى فقد دبرت الأمر من قبل ، حتى لا يتحطم البيت ، فقد تزوجت اثنتين فى نفس الوقت حتى إذا ما قدر الله وانتقلت إحداهما فى حادثة ما وجدت بديلتها أمامى فلا يتحطم البيت ..

عندئذ اتضحت لى أهمية طاقيتيه اللتين يضعهما دائمًا فوق رأسه ، ودراجتيه اللتين يمضى بهما فى آن واحد وساعتيه اللتين يضعهما فى معصمه دائمًا .. وفكرت : إننا دائمًا نتكلم عن ضرورة التحلى ببعد النظر لكننا فى نفس الوقت نحكم على الظاهر فقط

تمت

خلـــقـــة الله

محمد سعيد شيخ

كان عطا محمد من أعماق قلبه لا يريد أن يبقى على قيد الحياة ، كم ظل يتقلب قلقاً ، وهو يعيش كل يوم مذبذباً بين الحياة والموت ، فحين يحل الليل ، ويخيم الظلام ، ويخلد إلى النوم ، كان يظن أنه قد فارق الحياة ، فتردد الأنفاس بداخله لا يعني بالنسبة له أنه على قيد الحياة .

لقد مات أصلاً حين ماتت ليلى ، وهذا أمر آخر أنه هو الذى قام بدفنها بنفسه ، كانت ليلى هى علامة الحياة عنده ، فبدونها كان كل شيء موجوداً ، لكن وجود الأشياء كان خالياً من الحياة .

كان محاطاً طوال الليل بأنتن روائح الحلويات والجاتوهات والكعك واللحوم المتعفنة ، وكانت الروائح النتنة لمثل هذه الأشياء تدخل خياشيمه منبعثة من داخل الثلاجات و"الديب فريزر" ومن هنا صارت هذه الرائحة الكريهة جزءاً لا يتجزأ من شعوره وإحساسه ، حتى أنه كان يخيل إليه أحياناً أن هذه الرائحة الكريهة تنبعث من جسمه !

ورغم أن المخزون القديم للحلويات والجاتوهات والكعك والجبن وما إلى ذلك قد انتهى وحل محله مخزون جديد ، لكن كل هذه الروائح

النتنة تجمعت بداخله ودفنت فى أعماقه ، كانت الأشياء تحفظ حتى تظل طازجة ، بينما كانت الأشياء التى تتبقى من مكونات الطعام البشرى ، يستفاد منها فى اليوم التالى ، فكانت تخرج أنفاسها طوال الليل ، بينما كان نفس عطا محمد يحتبس ، ويختنق بداخله ..

لا يشعر عطا محمد اليوم أيضًا برغبة فى الاستيقاظ ، ظل راقدًا أو منبطحًا على الأرض مثل إنسان أصابه شلل ، تدق رأسه شواكيش الصداع ، أو مثل ضحية ملقاة تنتظر الذبح ! وكان وهو فى مثل وضعه هـذا لا يرغب في أن يفعل شيئًا ما ، ومن ناحيـة أخرى لم يكن هناك ما يدفعه للإسراع بالذهاب إلى أى مكان .. فقد كان يتخيل نفسه وهو يدخل صالة المقهى فيرمقه صاحب المقهى بنظراته الشرسة ..

كان مضطرًا إلى الخروج من هذا المكان ، فقد يستطيع أن يتحرر من قيد هذه الجدران ، لكن خارج هذه الجدران هناك عبودية أيضًا .. فى النهاية ارتدى الزى الأزرق اللامع ، ووضع على رأسه الغطاء الذهبى ثم انطلق من هذا المدخل ناحية المطبخ ، ومن المطبخ إلى الصالة ، كان الوقت مبكرًا فى الصباح ومع هذا فقد وصل بعض الزبائن وجلسوا على الطاولات .

كان صاحب المقهى يقف عند " الكاونتر " ، رمق عطا محمد بنظرة كلها غضب ، وأخذ يتمتم :

" ألا تستيقظ مبكرًا يا باشا؟ "

بماذا يرد عليه عطا محمد ؟! .. مضى دون أن ينبس بحرف .. ثم وقف فى انتظار البدء فى أداء مهمته ، استعد لفتح الباب ممسكًا مقبض الباب بيده اليمنى بينما اليد اليسرى ترتفع إلى مستوى جبهته وهو يردد :

" مرحبًا يا سيدى .. أهـلاً وسهلاً يا حضـرة .. وعليـكم السـلام يا سعادة الباشا !! "

كـان يغير ويبدل كلمات التحـية بما يتناسب مع كل زبون يدخل المقهى ، كان يفتح الباب بيد ، بينما اليد الأخرى تتحرك تلقائيًا تُلقى بالسلام ، وتعلو حتى تصل إلى مستوى جبهته ، لكنه لم يكن يلتفت إلى أحد ، فهو يفتح الباب لأى قادم كان .. حتى لو كان إنسانًا آليًا !

" مع السلامة يا سيدى ! شرفنا مرة ثانية يا سعادة البيه "

كانت الألفاظ تتردد بعفوية ويأتى الرد لكن أحداً لم يكن يهتم من أين يأتى الصوت ، ومن ذا الذى ينطق بهذه العبارات ؟ وكيف ؟

فى هذه المدينة كان هذا المقهى منطقة جذب شديد للمثقفين وغيرهم ممن لا يحملون للدنيا همًا ، ولا يعرفون مطلقًا معنى الغم ، ممن يأتون إلى هنا لفترات طوال ، يثيرون صوت الطوفان بين أكواب الشاى ، فيجلسون اليوم بطوله ينفثون الدخان من النارجيلة ، وحين يمتلئ المقهى بمثل هؤلاء الناس ، تتعالى فيه أصوات الأطباق والفناجين ، ويعبق الجو بدوائر الدخان المتصاعد من مصادر مختلفة ، بينما عطا محمد تائه حائر يتطلع هنا وهناك ، يحرك ناظريه فى الوجوه .. ويفكر : هؤلاء أناس مكتملون تمامًا ، هكذا يبدون أيضًا من بعيد، قاماتهم، قسماتهم ، كل شىء فيهم مكتمل ، بينما عطا محمد نفسه يبدو بين كل هؤلاء إنسانًا قزمًا ، ومخلوقًا حقيراً جداً ...يبدو إنسانًا غير مكتمل ..

كان يعرف أن فى هذه المدينة ، فى مكان ما ، يوجد ولداه : الابن الأكبر بشير ، والأصغر نذير ، فيشعر بحنين إلى الخروج من حيث هو ،

لكنه إذا ما خرج إلى الشوارع ، رأى المبانى العالية الضخمة ، فيدق قلبه بسرعة مضطربًا ، إذ كان يشعر بأنه أصغر كثيرًا من حجمه الصغير فعلاً ، فيفكر :

"من أنا هذا العطا محمد؟! ربما جئت إلى هذه الدنيا نتيجة خطأ ما .. خطأ لم يصدر عنى !! "

وداخل المقهى حين كان يريد شخص ما أن يخرج أو يريد شخص آخر أن يدخل ، يجد عطا محمد فرصته ليستعد لتغيير درجة حرارته وهو قابع داخل هذا المكان الضيق بين بابين : باب يؤدى إلى داخل المقهى ، وآخر يقود إلى خارج المقهى .. هنا فى هذا المكان الضيق كان يعمل ، حيث يمثل هذا المكان الذى يؤدى فيه عمله عالمه الخاص، وبجوه المتميز ، فجوه ليس بالحار ولا بالبارد .. ففى فصل الصيف يدخل الناس للتمتع ببرودة التكييف فى الداخل هربًا من لفح الحرارة فى الخارج وأشعة الشمس المحرقة ، وفى الشتاء يهربون من البرد القارص والصقيع إلى الدفء المتوفر داخل المقهى ، وفى الحالتين يمرون من هذا المكان الضيق الذى يقف فيه عطا محمد يؤدى واجبه مستقبلاً القادمين ومودعًا الذاهبين، فى هذا المكان الضيق يتوقف الناس لحظات استعداداً لمواجهة تغير الجو ! فى هذا المكان الضيق لا توجد برودة بالمعنى الصحيح ، كما لا توجد حرارة بمعناها المتعارف عليه ، فهنا حالة وسط بين الوجود واللاوجود ، كأن هناك شيئًا ، كأنه لم يكن أيضًا ، وبالنسبة لعطا محمد كان هذا هو الإحساس الذى يلازمه ، ملازمة المصلوب للصليب! إنه يشعر بأنه لا يمكن أن يكون إنسانًا كبقية الإنس، إنه مجرد ظل منكمش متقلص ، له وجود من نوع ما ، لكنه أيضًا ليس بموجود ،

وهو طوال يومه يفتح الباب الخارجي تارة ، ويفتح الباب الداخلى تارة أخرى ، بينما يده ترتفع بالتحية للخارج تارة ، وللداخل تارة أخرى ، ومع انفتاح الباب وانغلاقه تنفتح بداخله أيضًا الأبواب وتنغلق بشدة ، فيتردد صداها داخله..

حين جاء إلى المدينة لأول مرة سكن فى منزل ابنه بشير أحمد خان لعدة أيام ، هناك أيضًا ظلت أصوات الأبواب تتبعه تتردد بداخله ، فى تلك الأيام ربما كان البيت يستقبل بعض الضيوف ، فقاموا بإغلاق باب غرفة عطا محمد ، الذى كان كلما وجد فرصة قام بفتح باب الغرفة على مصراعيه ، كان يود أن يجدد هواء الغرفة وأن يشعر بالهواء المنعش ، كان يفكر فى الناس خارج الجدران ، لكن " آمنة " زوج ابنه كانت كلما مرت ، ورأت باب الغرفة مفتوحًا تغلقه وهى تصيح :

" ياه .. أفتحت الباب مرة أخرى ؟! لماذا تقلق الضيوف ؟! سوف يشاهد الناس...!! "

كانت تنطق الجملة الأخيرة بصوت منخفض ..

كان الخادم يحمل إلى عطا محمد الطعام والعصائر والفاكهة بكميات كبيرة ، بينما كان بشير و زوجته يضطربان إذا ما قدما ناحية غرفة عطا محمد ، أو سمحا له بالخروج منها وكأن عطا محمد إنسان عجيب الخلقة ، كان دخوله إلى بيتهم خطأً كبيراً ..

شعر عطا محمد بالضيق ، وأصيب بالاختناق فى هذه الغرفة المغلقة ، رغم أن البيت خلا من أى مخلوق غيره ، وبدأ يشعر وهو حبيس هذه الغرفة أنه لو بقى مدة أطول هكذا ، فسوف يستعمل يديه أيضًا

مثلما يستعمل رجليه ، ويستعمل هذه الأربع فى صعود الحائط ، أو الوصول إلى السقف ، وهذا الشعور طرأ عليه حين غافل الخدم ذات مساء وخرج من البيت ..

وحين دخل الليل ، وأغلق المقهى أبوابه ، تمالك عطا محمد جسده الصغير جداً ، وارتقى إلى صفيحة كبيرة ثم نزل ورقد بداخلها ! ومر يوم وهو راقد هكذا .. مر عليه يوم لا يمكن أن يمر عليه مثله أبداً ! وحين أدرك عطا محمد حقيقة وضعه ، أصيب بالحيرة الشديدة ، وصدم صدمة عنيفة .. ظل يفكر بعد أن أدرك قصر قامته : لقد خلقنى الله هكذا ، لكن أبى لم يصرخ ، ولم يصيح ، ولم تشكو أمى إلى الله ما تعانيه ، لكنها كانت تدعو لى كثيراً وتتوسل بنبى الله الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، كما أن الله وهب عطا محمد قلباً كبيراً ..

كانت أمه تحيطه دائمًا بالحب وتلفه بالحنان ، وهو نفسه لم يكن يرى نفسه قزمًا صغيراً .. حينما ذكرت أمه موضوع زواجه ، ضحك الناس وسخروا ثم صمتوا ، فقال لأمه :

" خلاص يا أمى خلاص "

وحين سكتت أمه ونسيت هذا الأمر، التقى بها فجأة ، التقى بليلى ، كان اسمها الحقيقى غير هذا ، لكن الناس بدءوا يطلقون عليها اسم ليلى من باب السخرية والتهكم ، أو من باب الدعابة ، كانت امرأة قصيرة القامة ، أو غير مكتملة ، ينتظرها رجلها ، وليلى كانت فى انتظار مجنونها ، كانت على يقين من أ نها ستجد نصفها الآخر ..

نظر كل منهما إلى الآخر ، كانا كأنهما خلقا ليكمل الواحد منهما الآخر ، كان كل منهما ينزع دائمًا أشواك الآخر ، كأنه يقطف الورد ..

لا يزال عطا محمد يتذكر حين مرض ذات مرة ! فالتصقت ليلى بمفرش السرير وكأن كل ما لها فى الدنيا قابع هنا فوق هذا السرير ، وكأنها لو تطلعت حولها إلى مكان آخر فسوف تضيع ..

أغمضت ليلى عينيها وهى ممسكة بزجاجة الدواء ، لا تدرى شيئًا مما حولها ..

حين دخل عطا محمد دور النقاهة قال لها :

" أنا بخير ! استريحى ، سوف ترهقين نفسك ، وسوف تتعبين وتمرضين .. "

فترد عليه :

" لا تقل هكذا ! أطال الله عمرك .. لا يمكن لأنفاسى أن تتردد بداخلى إن لم أشاهدك ، إنك لا تدرى يا عطا محمد .. إنك هبة من الله ! فمن حسن حظى أن يكون تطبيبك وتكون رعايتك أثناء مرضك من نصيبى .. فلا تمنعنى من هذا ، لا تحاول أن تمنعنى أبدًا ، فأنا أنال رضى الله بسبب رعايتى لك ، وهكذا فرعايتك عبادة لله "

كان عطا محمد ينصت إليها ويشعر بالفخر ، ويمسك بأناملها يمررها فوق عينيه المترغرغتين بالدموع ..

جعل حب ليلى منه رجلاً طويلاً كبيرًا .. أفسح عطا محمد لها مكانًا بجواره على السرير قائلاً بحب وحنان :

" اجلسى ! تعالى هنا بجوارى "

" دعنى .. اتركنى .. فمكانى هنا عند قدميك .. يا سيدى ! إننى أجد لذة كبيرة فى هذا ، أشعر بالسعادة ، لم أكن أدرى أنا نفسى شيئًا

عن مثل هذه السعادة .. يا عطيتى من الله ! إننى أهب نفسى فى سبيل شفائك ، فأنا فداؤك .. لم أكن أعرف قبلاً أننى لا شىء من دونك .. وتبقى ليلى تفترش الأرض .. ملتصقة بالسرير .. كانت من كل قلبها تود أن تفعل كل ما تستطيع من أجل عطا محمد حتى ينسى آلامه وأحزانه وينسى شعوره بالنقص ، ذلك الشعور الذى يقلق مضجعه ليل نهار ، فكانت تحاول أن تملأ قلبه بالمشاعر التى تجعله يرتفع ويعلو ، ويشعر بأنه رجل كبير وطويل وليس قزمًا ، وهكذا جنت من أجل عطا محمد ، جنت بحبه بينما كان عطا محمد يراقبها ، ويشاهد حالها تلك ، وكان الناس كلما شاهدوا حركاتها يتندرون عليها ويسخرون منها ، ويضحكون لكنها لم تكن تعيرهم أدنى اهتمام ، فدنياها ذابت فى وجود إنسان آخر، لا وجود لسواه فى ذهنها ..

كان عطا محمد يشعر بأن هذا المرض حلم لا يود – من صميم قلبه – أن يستيقظ منه ، فالبعد عن ليلى بالنسبة له يعنى نهايته ، فهو بدونها لا يساوى شيئًا .. ونسى عطا محمد أنه ليس بإنسان عادى ، فقامته فى نظر ليلى أطول من قامة أى إنسان ، وليس أمامه سوى ليلى ، وذاب الاثنان معًا .. يضمان جسدهما معًا ، وتتشابك ذراعاهما فى عناق طويل ..

لم يولد فى أسرة عطا محمد أى طفل قصير القامة .. قزم .. فجميع أبناء الأسرة مثلهم مثل بقية الناس العاديين .. لكن عطا محمد ولد هكذا .. قزم .. كان طول قامته ثلاثة أقدام ، لم تطل قامته أكثر من هذا ، وحين تم زواجه من ليلى بدأت قامته تطول ، جعلها حب ليلى تقفز وتثب إلى أعلى ، ثم أيقظ هذا الحب وهذه الرعاية جسده من ثباته العميق ، جذبه حبها إلى مناطق أخرى فى الحياة لم يكن يدرى عنها

شيئًا حيث الرفعة والعلو ، حيث تقل سلطة المشاعر والأحاسيس ، وهذه الرفعة جعلته يشعر بأن الدنيا تبدو تحت قدميه ، كأنه ينظر إليها من مقام عال .. وباختصار شعر بأنه ليس قزمًا ، وليس معوقًا وليس ناقصًا بل هو إنسان كامل مكتمل ، وأمكن لجسده الصغير أن يحلم أيضًا ، وأمكنه أن يرفع التراب الذى تراكم على جسده لسنوات .

ذات ليلة قالت له ليلى إنها منذ عدة أيام تشاهد حلمًا يتكرر ، حلمًا يظل مستمراً أمامها حتى بعد أن تستيقظ وتفتح عينيها .. كانت ترى أن نجومًا تتساقط من القمر ومن السماء ، وتنزل فى حجرها ، وحين تتطلع إلى حجرها المملوء بالنور تتحرك شفتاها وتبتسم عيناها ويتحول النور إلى هيئة وجه لا تكاد تتبين ملامحه ..

كان عطا محمد سعيداً بحلم ليلى، وكان هو نفسه يفهم ما تقصده، فكانت عيناهما تلمعان سروراً ورضًا .

وذات يوم دقت الأجراس بداخل ليلى ، هناك من حلّ بها ، وتحرك فى أحشائها ، فهناك من وضع بداخلها بذرة النمو ، وجعل الوردة بداخلها تتفتح ، لقد وصلت إلى مرحلة اكتملت فيها ذاتها ، فشعرت كأنها أصبحت طاقة كبرى ، استمدت وجودها من وجود شخص آخر يشارك الكائنات نشاطها وكفاحها ، لقد أوصلها عطا محمد إلى عروج المرأة الكاملة وسموها ، جعل منها امرأة مكتملة بمعنى الكلمة ..

كانت ليلى ترغب من صميم قلبها أن تُسمع جميع أهل البلدة هذا الخبر ، كانت تريد أن تصرخ ، وأن تصيح فى الجميع قائلة : انظروا ! أنا أيضًا .. جعلنى الله أهب الحياة لمخلوق يتحرك بداخلى ، أنا امرأة مكتملة تنجب من داخلها ما شاء الله لها أن تنجب !

كم مرة تحسرت وشعرت بالأسى ، ثم فكرت : ربما خلقها الله هكذا .. أراد لها ألا تنجب .. كانت مثل لعبة أو دمية تتحرك هنا وهناك ، وتبدو للناس كأنها ربما تتحطم فى مكان ما ، فى وقت ما ، وتتناثر هنا وهناك ، عندئذ لا يفيد المفتاح الذى يتسبب فى حركتها.. لكن الاثنان الآن صارا فى عداد الناس المكتملين لا ينقصهما شيء .. كانا ينظران إلى بعضهما نظرات تختلف عن نظرات البشر فيما بينهم ، فقد كان الواحد منهما يغسل آلام الآخر فيظلان معًا يبكيان سرورًا وغبطة ...

كان عطا محمد يعاود البكاء كلما خامره هذا الإحساس، وتذكر ما كان بينهما من مشاعر .. بينما يقف داخل هذه الغرفة الضيقة الملحقة بالمقهى حيث تتناثر من حوله على الأرفف برطمانات وعلب المواد التموينية ، ويصك أذنيه أزيز الثلاجات ، ويتراءى له بصيص من الضوء المنعكس على مرآة صغيرة مثبتة على الباب .. ووسط هذا الجو المعتم تنبعث روائح الأطعمة والمشروبات المتداخلة .. كانت ثلاجة المقهى مملوءة عن آخرها ، لم تكن هناك رغبة تذكر لدى عطا محمد فى الطعام أو الشراب رغم وجود هذه المأكولات المطهوة وغير المطهوة .. فقد ماتت ليلى !

ماتت بين ذراعى عطا محمد ..

ليلى التى عاش عطا محمد مستمدًا قوته من وجودها ، ولهذا فهو يدين لها بحياته ، وربما كان كلاهما يدين للآخر بحياته ، لقد وهبته ليلى فضل الإحساس بالأنثى .. تذكر أنه حين جاءتها العادة الشهرية للمرة الأولى ، أصابها الاضطراب فأخذت تبكى ، فضربتها أمها على صدرها وبطنها بلعبة كانت تمسك بها وهى تداعبها قائلة :

" يا الله ! ستـرى عـقلة الإصبع هذه هذا اليـوم الموعود .. ابنتى ستری هذا اليوم أيضاً ! "

وكأن الآم لم تكن تتوقع ذلك الأمـر ، وظلت لعدة أيام تظن أن ليلى مصابة بمرض ما ، وحين بدأت بعض التـغيرات تظهر على جسـمها ، عندئذ تحير جميع الناس ، حتى أمها نفسـها أصابها نوع من القلق والخوف من جراء ما أصاب جسم ليلى ، الذى انتفخ وتغيرت ملامحه ، بينما كانت ليلى تمر بأيام عـصيبة ، نتيجة الكشف عن مكنون ذاتها الأنثوى وتفتح ما بداخلها من براعم .

وحين تم زواج ليـلى مع عطا محـمد ، أقيمت الأفراح والزينات ، وكل ما يتعلق بالفرح ، بالطريقة التى تقام بها فى بيوت بقية خلق الله ، لكن بدا الأمـر وكأن الناس يسـلون أنفسـهم بمشـاهدة زواج دمية بدمية أخرى !

حتى فى بيت ليلى نفسه ، من حيث كانت الزغاريد ترتفع وتختلط مع رنين الأساور المصنوعة من الزجاج فى أيدى النسوة والفتيات ، كان صوت الأوانى والأطباق يسمع بينما تحركها الأيدى تعيد ترتيبها ، لم يكن لكل هذا معنى لدى الناس سوى أنه مصدر سعادة لأهل الحى جميعًا ، وللجارات بصفة خاصة ، اللاتى كن يتدفقن على بيت ليلى ، يأخذنها ويدرن بها حيناً، ويرقصن من حولها حيناً آخر، بينما ترتفع ضحكاتهن .. لكن ليلى حين زفت إلى عطا محمد شعرت بأنها تتساوى مع أطولهن قامة ، وشعرت كأن البيوت من حولها صغرت ، وكأنها فى واد أسفل منها ، وكأنها تشاهدها من علو شاهق ..

لقد برزت وبرز قدها ، وتخلص من جميع الحدود ، واخترقت ليلى أبواب الحياة ونوافذها ، ومضت إلى حيث الراحة والطمأنينة والأمان ، لقد شعرت أنها خرجت من حدود جسمها الصغير القزم ..

بدأ الاثنان معًا يعدّون الأيام والليالى فى انتظار اليوم الموعود ، وحين ولد بشير ، أحست ليلى كأنها ولدت من جديد ، فقد خرج من رحمها طفل صحيح ، له وجه مدور كالقمر ، وصار لحياتها معنى .. وخلال سنتين ولد نذير ، فبدا لهما كأن الكائنات كلها تتحرك على وقع خطوات هذين الطفلين ، وكأن طيور الكون تشقشق وتغرد من أجلهما .. كان بشير ونذير ينطلقانَ بسرعة أحدهما خلف الآخر ، وشب عودهما ، وحطما قيود قصر قامة والديهما ، فطالت قاماتاهما أكثر فأكثر .. كان عطا محمد وليلى يتعلقان بأكتاف ولديهما ، وكأنهما يشاهدان الحياة من أعلى ، ومن مكان بعيد ، إلى حيث لم تكن أعينهما تصل من قبل !

لم يكن هناك الآن فى القرية من يستطيع أن يتجاهل وجود ليلى وعطا محمد ، اللذين بدأت رأساهما ترتفعان إلى أعلى فخراً ، وتعلما كيف يضعان أعينهما فى عيون الناس ، كما ظهر فى طريقة مشيهما نوع من الوقار الممزوج بالثقة ، وباختصار شعرا كأنهما يضعان أقدامهما فوق الأرض ، لقد رفعا رأسيهما المطأطأتين إلى الأرض ، وبدا إشراق الحياة ونورها واضحًا فى العيون المتسخة ، ووجد الاثنان النجاة من عذاب قصر قامتيهما.

قاما بإنفاق جميع مدخراتهما على تربية بشير ونذير وتعليمهما ، كان الولدان على درجة كبيرة من الذكاء ، فحصلا على درجات ممتازة فى المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، ثم ذهبا إلى المدينة لاستكمال الدراسة فى الكلية .

" لماذا تظل حياتكما هكذا رهن المعاناة إن أبناء الفلاحين عادة ما يعملون بالزراعة ؟ " هكذا كان بعض الأقارب يقولون لعطا محمد وليلى ، فينفجر الاثنان ضاحكين ، وقد عمهما السرور ، فلم يصل أى طفل فى القرية إلى مرحلة التعليم تلك .

ظل عطا محمد يبيع أرضه قيراطًا بعد قيراط ، بينما كان بيته يمتلئ على الدوام بالضيوف ، وزاد تردد الأقارب عليه يخبرونه بالإشارة تارة وبالكناية تارة أخرى ، برغبتهم فى طلب ابنيهما للزواج بينما يغرق عطا محمد وزوجته فى بحر من السرور والفرح ، ويتوجهان بالدعاء إلى الله ، ويشكرانه على إحسانه وفضله ، لأنه وهبهما هذين الولدين.

انشغل بشير ونذير بالكفاح ، وانغمسا فى حياة المدينة ، كان بداخلهما هاتف يردد دائمًا :

" إذا لم تحصلا على مكانة فى المجتمع ، فلن تنالا أى قدر بين الناس ، وسيعتبركما الناس أقزامًا من أصحاب القامات القصيرة ، لن يلتفت إليها أحد .. وكان هذا الإحساس بالنقص يدفعهما ويحثهما على الاجتهاد ليل نهار ، وهكذا حصل بشير على درجة الماجستير فى الاقتصاد بتقدير ممتاز وصار نائب مدير فى إحدى الشركات أما نذير فقد نجح فى مسابقة للحصول على وظيفة محترمة وعين بالمدينة .

كان الاثنان كلما تذكرا القرية ، تذكرا حدودهما الضيقة ، وتذكرا تلك الأوقات التى بذلا فيها كل الجهد من أجل الخروج من دائرتهما الضيقة ، وهكذا تغيرت علاقتهما بكل ما فى القرية ، وتحول شعورهما تجاه القرية إلى شعور بالغثيان ، لم يعد لسماء القرية الصافية ولا لأرضها التى تثير النقع أى مكانة فى قلبيهما ..

نادرًا ما ذهبا إلى القرية .. كان عطا محمد وليلى يشعران كأن مخلوقًا من السماء حطّ فى بيتهما ، ويعرف أهل القرية خبر وصولهما ، ولم يكد يصل هؤلاء إلى بيت عطا محمد لتحية ولديهما والاطمئنان على سلامتهما ، وتهنئتهما بسلامة وصولهما ، حتى يغادر بشير ونذير البيت عائدين إلى المدينة !!

أما حال عطا محمد وليلى فكانت أشبه بحال الأرض "الشراقى" المتعطشة للماء ، نزل عليها المطر .. كان ما حدث بالنسبة لهما مجرد رؤيا أيقظهما منها بعض الناس بقسوة شديدة ، فوجدا أنهما متعطشان إلى نوم مصطنع حتى يذكر الواحد منهما الآخر بما شاهده فى رؤياه ! كانا يشعران كأن شخصاً ما جعل قامتهم أقصر وأقصر ، بعد أن طالت وارتفعت ، وهكذا واجها مرة أخرى كرب قصر القامة ومعاناته .

لقد انخدعت ليلى بوجودها ، كانت صدمتها أشد ، فأحياناً ما يتعرض الإنسان لكثير من المشكلات لدرجة أنه يمكن أن يكذب الحقائق السماوية ، ويكذب الواقع الذى يراه أمامه ، لكنه مضطر فى كل الأحوال إلى التسليم بوجوده ، فوجود ليلى هو الشىء الذى تصدقه ، ووجودها هو حقيقتها ، التى لا يمكنها أن تهرب منها .

لم يكن الأمر مجرد بشير ونذير لأنهما كانا جزءاً من وجودهما ..

آه صارت ليلى جسماً محطمًا يتعرض لمن ينكر معرفته ، لقد أصيبت ليلى فجأة بالخواء ، والزيف وكأن أحداً سلبها جوهرها ، صارت مثل حائط مبنى بالطوب اللبن تفتت وانهار ، لفها الصمت .. فأخذ عطا محمد يشد من أزرها :

" لماذا ينهزم قلبك ! أنا الذى هو أنا موجود معك ، بجوارك ، أليس هذا بكاف ؟! "

مـاذا عسـاها تقول .. تتطلع إليه واهمة .. بينما عطا محمد يحاول أن يخفف عنها ، وكأنه يحاول أن يحمل عنها عبء ما تعانيه ، يحاول أن يجعلهـا تستند علـيه ، تعتمد عليـه ، ومهما اقترب منها عطا محمد ، لم يكن هو نفسه عطا محمد ، ولم يجدها هى نفسها ليلى التى كانت ، كان إنسانًا " آخر " وهذا " الآخر " اخترق ذاته ووجوده ولهذا بدأ يشعر بكراهية وجوده !!

كـان عطا مـحـمـد يحاول بكل ما يملك من طاقة أن يجعل الحائط متماسكًا ، كان كلما شاهد الحائط على وشك السقوط ، أو لاحظ موضع وهن وضعف فيه قام بترميمه بطيبته وحسن أخلاقه ، لكن ليلى نفسها كانت قد وهنت ، وفشل علاج الحكيم ، وفشل علاج عيادة القرية ، فى أن يعيد إليها ما فقدته من صحة وعافية، فكان الاتجاه بعد ذلك إلى المدينة !

حين وصـلا إلى المدينة جعلت ليلى تحـدق فى الناس جميعًا ، فربما وجدت من بينهم بشيرًا أو نذيرًا ، وظلت عيناها تدوران هنا وهناك دون وعى منها . .

كـانت تعرف طبيعة المدينة ، فجواهر وجودها تحولت هنا إلى أحجار .. تذكرت حين جاء عطا محمد إلى هذه المدينة عند ابنيه بشير ونذير ، وبعد أن قضى عدة أيام رجع إليها ، شعرت حين رأته كأن أحدًا من أهل المدينة قد سلبه كل ما يملك ، وكل ما لم يكن يملك ، ولهذا ظلت تقول لعطا محمد :

" لا .. لا تأخذنى إلى المدينـة ، لا تفصـلنى عـن ترابى هنـا ، لا تضعنى أمام ذنوبى ! "

لكنــه عاند ، ولم يكن يدرى لماذا لا تريد أن يصـل خبـر مرضـها إلى ولديهما ..

عرف عطا محمد عنوان هذا المستشفى عن طريق موظف مصحة القرية ، ولما كان عطا محمد قد أنفق كل ما كان معه من أموال لهذا باع آخر قطعة أرض يمتلكها ، وأخذ المبلغ لينفقه على علاج ليلى ، وهكذا حجز لها غرفة خاصة فى المستشفى .. كان الأطباء مع الممرضات يقومون بعلاج ليلى ، لكن فى البداية بدا الأمر بالنسبة لهم كأنه مزاح ، لم يصدق هـؤلاء أمر عطا محمد ، وهل يريد منهـم فعلاً علاج ليلى ، إلا حين أخل يده تحت قميصه ، وأخرج من جيبه الداخلى " رزمة" من الأوراق المالية ...

وبينما كان حال ليلى فى تدهور مستمر كان عطا محمد يتابع إخراج النقود من جيبه ، فلم تعد لديه حاجة للنقود ، كان المستشفى عبارة عن "فيلا خاصة" ، يعمل فيه أطباء ينتمون إلى مستشفيات كبرى ، بعض أوقاتهم .

حين دخل الشقيقان بشير ونذير الغرفة حاول عطا محمد أن يجعل ليلى تتماسك ، وأجلسها على الفراش ، وهو يمسك بيده ملعقة صغيرة بها عصير برتقال ، ويحاول أن يدخلها فى فمها المغلق...

" يا أماه ! ماذا حدث ؟ "

سأل الشقيقان فى صوت واحد ، وسمعا تردد صدى سؤالهما فى الوقت نفسه ، لم يكن لديهما كلام غير هذا السؤال ، ربما لم يكن بمقدورهما أن يسألا أى سؤال آخر.

كانت ليلى صامتة ، جعلها المرض الشديد غير قادرة على فتح عينيها ، فكانت جفون عينيها تنغلق رغماً عنها ..

" انظرى .. من جاء هنا ؟! "

حاول عطا محمد أن يذكرها بشىء ..

بعد لحظات فتحت ليلى عينيها ، واستجمعت ما تبقى لها من قوة الإحساس ، وحاولت أن تفكر وأن تدرك ما يدور حولها .. شاهدت من بعيد .. من بعيد جداً وجهين لصغيرين ، حاطتهما هالة ضبابية ، تحولت إلى قطرات ماء ، ومن خلف هذه القطرات حاولت ليلى أن ترى الوجهين الماثلين أمامها ، وأن تتعرف عليهما .. بدا لها كأن الوجهين يسيلان .. قطرات تتلاشى .. ثم يذوب الوجهان .. مسحت عينيها ، وأخذت تحدق فيما أمامها .. كانت فى حيرة فهذان الوجهان يشبهان وجهها ، فبدا لها كأنها تقف أمام مرآة ، تشاهد فيها صورتها ، تشاهد فيها وجهها الساكن ، ووجهها الذى يسيل أيضاً ويذوب .. شاهدت هذا المنظر فانفجرت ضاحكة .. ثم ظهرت على وجهها ابتسامة باهتة استمرت ثوان حتى لاحظها عطا محمد وأولاده أيضاً.. .

كان هناك أمر ما ، كانت شفتاها تود أن تعبر عن شىء ما ، كانت هناك كلمات ظلت حائرة بين شفتيها .. جعل عطا محمد وولداه يقربون وجوههم وآذانهم عند شفتى ليلى ، كانت شفتا ليلى تتحركان لكن صوتاً ما لم ينبعث ، لم تنطق الكلمات ، لكن صدر صوت مثل صوت طيران الفراشات .. فلا يمكن لأحد أن يسمع صوت الإنسان الواقف عند دهليز الموت ، لا يمكن لأحد أن ينال نصيباً من سماع صدق كلمات الإنسان

الميت ، فقول الصدق وعبور مرحلة الحياة إلى مرحلة الممات من أصعب المراحل..

وقف عطا محمد بقده الطويل فى ظل ولديه يحاول أن يفهم .. لقد ذهبت ليلى دون أن تنطق بكلماتها الصادقة الأخيرة ، ذهبت ليلى إلى هذا الطين الذى منه كانت خميرة عجينتها .. حملها عطا محمد إلى القرية ووسط المقابر الضخمة أضاف قبراً صغيراً ..

بقى عطا محمد مقيماً فى بيته بالقرية عدة أشهر ، ففى هذا البيت ربطته ذكرياته القديمة مع ليلى .. عاد ولداه إلى المدينة ، لم يكن عطا محمد بقادر على أن يذهب إليهما فلم يكن يستطيع أن يخرج مرة أخرى من الأسوار التى تحيط به ..

جاء إلى المدينة .. ورضى بأن يعمل فى هذا المقهى لأن أحداً لا يمكنه أن يتعرف عليه ، لدرجة أنه هو نفسه نسى نفسه تماماً .. وغرق فى حال من النسيان بدأت تذكره مرات عديدة بكل شىء مضى ، وهو الآن يأمل فى أن يصبح الناس أمثاله مثل بقية خلق الله .

تمت

الدمامل

ذكية بلكرامى

تأخرت اليوم أيضًا فى الذهاب إلى المكتب ، فتناولت طعام فطورى بسرعة حسب ما تيسر ، ثم ارتديت قميصًا وبنطلونًا كانت أمى قد وضعتهما فى الدولاب بعد أن سوتهما بالمكواة ، ووضعت بضع روبيات فى جيبى ، وخرجت مسرعًا من البيت ، فحين أصل إلى محطة الحافلة ، علىّ أن أنتظر مجيئها .

لو حالفنى الحظ ، ووصلت الحافلة بسرعة ، فسوف أنجو من مغبة الوصول إلى المكتب متأخرًا ، وقد دفعنى هذا التفكير منذ البداية ، لأسرع الخطو منذ خرجت من باب البيت إلى أن وصلت عند المحطة ، وكالعادة كانت المحطة مزدحمة بالركاب، بينما الحافلة لم يظهر لها أثر .. لا من قريب ولا من بعيد ، شاهدت بعض الوجوه المألوفة ، فنحن نشاهد بعضنا كل يوم ، ثم نبتسم ، ونلوذ بعدها بالصمت ، ربما لأنه لا يوجد بيننا ما يمكن أن نتحدث فيه ، فهؤلاء هم ركاب كل يوم ، يخرجون صباحًا من بيوتهم، متوجهين إلى مكاتبهم ، وبينما كنت أقف فى صمت ، أتطلع إلى الشارع ، إذا بصوت يأتى من ورائى :

– يا سيدى .. كبريت .. ألا تريد كبريتاً ؟

فالتفت .. فشاهدت طفلاً فى العاشرة ، أو ربما كان صبيًا فى الثانية عشرة من عمره ، يحمل حقيبة مفتوحة بها علب كبريت ، وبخور، وأشياء صغيرة أخرى يعرضها للبيع ، كان يرتدى ملابس نظيفة رغم أنها كانت قديمة ، وينتعل حذاء دارت عليه الأيام، لم أدر ما تلك الجاذبية فى هذا الصبى التى جعلتنى مجبراً على التحدث معه ..

– هل تبيع الكبريت فقط ؟! ضع بجوار الكبريت بعض علب السجائر أيضًا ، ماذا يفعل الناس بالكبريت فقط ؟

– يا عمى أنا لا أبيع السجائر ، ولن أبيع السجائر ..

– لماذا .. ؟

– أمى تمنعنى من بيع السجائر ، فالسجائر مضرة بالصحة ، وهى تسلب الإنسان حياته ، كان أبى يدخن السجائر بشراهة !

– ماذا حدث لأبيك ؟

– مات .. خلاص .. هل تدخن يا عمى ؟

– نعم أدخن ..

– يا عمى .. بالله عليك توقف عن التدخين .

سكت .. لم أنطق بكلمة ، فلعل كلامه صحيح ، كانت لهجته واضحة جداً ، لم يسبق لى من قبل أن شاهدت هذا الصبى عند المحطة .. فسألته :

– ما اسمك ؟

– رشيد ..

– حسنًا .. خذ أعطنى علبة كبريت .. فقد وصلت الحافلة .. سوف أكمل الحديث معك غدًا ..

اشتريت منه علبة كبيرى ، دون أن تكون لى بها حاجة ، وركبت الحافلة ، كانت فى غاية الازدحام ، ففقدت هندامى ، لم يكن بالمكتب عمل مهم اليوم ، والسبب هو أن الأحوال فى المدينة ليست على ما يرام ، فهناك حظر تجول فى معظم أحياء المدينة ، مما جعل الناس يحجمون عن المجيء إلى المكتب ، تراءت لى أكثر من مرة صورة رشيد ، فقد كنت من قرارة قلبى أريد أن أستمر فى الحديث معه ، وكنت أرغب فى أن أوجه له المزيد من الأسئلة ، فهو يبدو من الحديث صبيًا مهذبًا .

فى اليوم التالى ، وصلت إلى المحطة ، كان رشيد فى انتظارى ، رفع يده بالسلام ، فسألته بدورى عن حاله ثم قلت له :

– حسنًا .. أخبرنى من أنت ؟ وأين تسكن ، وماذا تربح من بيع هذه الأشياء التى تحملها كل يوم ؟

استمع إلى جميع أسئلتى ، ولاذ بالصمت لم يتكلم للحظات ، ثم قال :

– بيتى قريب من هنا .. يا عمى ! ماذا أفعل ؟ لو لم أعمل ببيع هذه الأشياء ، يجب علىّ أن أكسب شيئًا طول اليوم ، على الأقل يجب أن أكسب قوتى وقوت أمى كل يوم ..

– ألا يوجد غيرك فى البيت؟

شعرت بتعاطف غريب مع رشيد ولهذا سألته مثل هذا السؤال بسرعة وبلهجة كلها حنان فرد قائلاً :

– لا ...

– لم لا تعمل أمك إذن؟

– إنها لا تستطيع أن تعمل ... لهذا فهى لا تعمل!!

– لماذا يا بنى ؟ العمل شىء طيب ، ثم عليك أن تذهب إلى المدرسة .. هل تذهب إلى المدرسة؟!

– نعم .. أنا فى الصف السادس ، هذه الأيام المدارس مغلقة بسبب الاضطرابات والإضرابات ، لهذا بدأت "أسرح" بهذه البضاعة..

كان يتكلم جملة ثم يتوقف ، ويتكلم بأخرى ثم يسكت .. فقلت له أستحثه على متابعة الحديث :

– وبعدين .. هيه .. ماذا كنت تقول ؟

– منذ أسبوعين تعرض أخى الأكبر لإطلاق الرصاص .. كان أخى يبيع الجرائد.

– أف ! هذا أمر فظيع .. شنيع .. ثم ما هو الوضع الآن ؟

– سوف أعمل ، وأكفل أمى ..

– لو أرادت أمك ، فيمكنها أيضًا أن تعمل ، وتكمل أنت تعليمك ، وهكذا يمكن أن تصبح الحياة طيبة .

– يا عمى .. أمى لا يمكنها أن تعمل !

– لكن .. لماذا ؟

– أمى مصابة فى يديها بالدمامل .. وهى تقوم بأعمال البيت بصعوبة كبيرة .. وتعانى كثيراً ..

تأسفت كثيرًا لسماعى هذا الكلام ، جاءت الحافلة ، فحشرت نفسى بين ركابها ..

بعدها تبادلت أكثر من مرة الأحاديث مع رشيد ، كان صبيًا طيبًا ، كنت معجبًا به كثيرًا ، كان كلامـه موزونًا ومعقولاً ، كان يقول لى : يا عمى أمى دائمًا تقول لى : لا يجب أن تمد يدك لأحد ، اعمل دائمًا لتكسب بالحلال ، ولهذا فأنا أعمل ، أحيانًا يعطينى الناس النقود دون أن يأخذوا الكبريت ، فأعيد إليهم نقودهم .. يا عمى أنا لا أتسول ، أنا أبيع هذه البضاعة .

– نعم هذا كلام طيب .. أنت ولد عظيم !

كنت أتبادل معه الحديث فى معظم الأحيان ، كما كنت أشترى منه الكبريت أيضًا ، وحين تأتى الحافلة ، أتركه وأركب متجهًا إلى مكتبى ، كنت أشعر بالأسف الشديد بعد أن سمعت قصته ، وعرفت حاله ، فالمسكين فقد أخاه الأكبر ، قام بعض " البلطجية " بقتله ، وهكذا وقعت عليه مسئولية رعاية أمه المريضة ... يا لهم من ظلمة هؤلاء الناس !! يا لهم من سفاكين!! لا رحمة فى قلوبهم.. يسفكوا دماء الأبرياء بسهولة ، كأنهم يلهون بالألعاب النارية .. الصحف مملوءة بالبيانات ، وكل حزب من الأحزاب يحاول أن يلطخ سمعة أعضاء الحزب الآخر بكل طريقة .. وأنا أرى أن القاتل قاتل مهما تذرع بالأسباب ، دفاعًا عن جرمه ، والقاتل هذا لا علاقة له بحزب ، ولا علاقة له بوطن ، ولا علاقة له بدين ، إنما هو إنسان يبيع ضميره ، إنسان فقد شعوره ، وذات يوم سيصبح حطب جهنم..

ذكرت لأمى حكاية رشيد ، فسمعت منها عبارات التعاطف الشديد مع هذا الصبى الصغير .. ماذا لدينا سوى كلمات فارغة ، ماذا لدينا سوى عدة عبارات عطف نرددها ليس إلا ، فجيوبنا خاوية ، انتقل أبى إلى الرفيق الأعلى ، وأمى عليلة مصابة بالمرض ، ولى ستة أخوات صغيرات ، وأنا كفيل هذه الأسرة الكبيرة الوحيد ...

مرت عدة أيام .. لم أر فيها رشيداً ، فأصابنى القلق تُرى ماذا يكون قد أصابه ؟! أنا أعرف أن المدارس ، وجميع الإدارات التعليمية مغلقة هذه الأيام ، لهذا أصابنى القلق الشديد على عدم ظهور رشيد على المحطة كالعادة ..

ذات يوم جاء رشيد إلى المحطة ، فأشرت إليه من بعيد حتى يقترب منى ، وقلت له :

- ماذا حدث ؟! رشيد ! أين اختفيت كل هذه الأيام ؟

- مرضت أمى مرضًا شديداً ، كيف يمكن أن أتركها وحدها .. هذا كل ما فى الأمر ..

- والآن كيف حال أمك ؟

- بخير يا عمى .

نطق تلك العبارة بصوت ضعيف .. لا أدرى ماذا طرأ على قلبى ، فأخرجت ورقة بعشر روبيات ومددتها خفية له وقلت :

- ضع هذه معك يا رشيد ، ربما تحتاج لها.

وكأن تيار كهرباء صعقه فانتفض قائلاً :

- يا عمى ! أنت أيضًا تفعل هذا ... ربما لا تعرف.. أنا "شريف".. أنا من نسل الأشراف ، وأمي تقول : الزكاة والصدقات تحرم على الأشراف .

حين سمعت هذا الكلام الكبير من فم هذا الصبى وقعت فى حيرة شديدة .. وسرت مشاعر الخجل والحياء فى عروقى ، فقلت له :

- سامحنى يا رشيد ! لم أقصد ما فهمت ، لقد اعتبرتك أخًا لى ولهذا أردت أن أعطيك هذه النقود .

لم يرد على كلامى ، وحمل بضاعته على كتفه ومضى ، بدأ الآن يبيع "الشيكولاته" والعلك ... بالتدريج عادت الحياة فى المدينة إلى طبيعتها ، وفتحت المدارس أبوابها ، وهكذا لم أعد أشاهد رشيداً ، كنت مسروراً فقد تخيلت رشيداً وهو يذهب إلى المدرسة فى الصباح، وفى المساء يعمل بائعًا متجولاً ، وبالفعل كان ما تخيلته صحيحًا ، فذات يوم وفى تمام الساعة الخامسة مساءً بينما كنت عائداً من المكتب شاهدته ، يبيع أشياء متنوعة .

كان سعيداً جداً لأن المدارس فتحت ، ولأنه عاد إلى الدراسة ، سألته عن حال أمه فقال :

- يا عمى.. الدمامل فى يديها لا تزال كما هى ، لا يمكن علاجها ، ولو تحسنت قليلاً ، عاودت العمل بالبيت ، إنها تشعر بآلام شديدة إذا طالت الماء هذه الدمامل .

- إن شاء الله سوف تتحسن صحة أمك ، لا تقلق ، فقط توجه بالدعاء لله ..

- وأنت أيضًا .. دعواتك لها يا عمى !

– قال هذه العبارة وانطلق حاملاً بضاعته .

ربطتنى برشيد علاقة خاصة ، شعرت تجاهه بأنس شديد ، وألفة عجيبة أعجز عن بيانها ، شعرت كأنه مثل أخى الصغير ، ربما لأنه لم يكن لى أخ صغير ! كنت أريد أن أساعده بقدر ما أستطيع ، لكنى كنت أعرف أنه صبى غيور حساس ، لن يقبل منى أى مساعدة !

كان ذلك مساء الجمعة، حين ذهبت ناحية المحطة، لأنجز عملاً ما، فالتقيت برشيد ، سألته عن أحواله فقال :

– يا عمى ! أنا اليوم في غاية الفرح والسرور ، فاليوم بيعت كل بضاعتى .. وكسبت مبلغًا طيبًا ، سوف تفرح أمى كثيراً .. الآن أرجع إلى البيت .

سررت أنا أيضًا بسماع كلامه هذا ، تطلعت ناحيته فوجدت وجهه البرىء مضيئًا، كله سعادة وفرح ، عيناه تلمعان ، كان يعلق على جيب قميصه صورة المرحوم ضياء الحق ، وفى يده ورقة .. فسألته :

– ما هذه الورقة فى يدك ؟

– فى هذه الورقة آيات من القرآن الكريم ، كانت ملقاة على الأرض ، فأخذتها ، ليس من الأدب تركها .. أليس كذلك يا عمى .. سوف أحرقها .. معى كبريت .

ثم تركنى ومضى إلى بيته ، وهو يدندن فرحًا مسروراً ، بينما اتجهت أنا أيضًا إلى بيتى ..

لم أكد أخطو عدة خطوات حتى سمعت صوت جلبة ، فتوقفت ، ونظرت خلفى لأجد الشرطة تمسك بشخص .. كان ذلك الشخص هو رشيد !

طبقًا لكلام الشرطة كان رشيد يثير الشغب ويشعل النار ، وقد قبضوا عليه متلبسًا بجريمته ! ، كان رشيد يحاول الدفاع عن نفسه بعبارات متتالية ، لكن من ذا يستمع أو ينصت إليه ..

قبض عليه رجال الشرطة واقتادوه بعيدًا ، بينما كان يصرخ بين أيديهم ، يحاول الإفلات منهم ، فسقطت على الأرض صورة المرحوم ضياء الحق التى كان يعلقها على جيبه .. تطلعت إليها فى حسرة ..

كنت جبانًا ، لم أستطع أن أنطق بكلمة فى حق رشيد ، فقد تراءت أمامى صورة أمى الأرملة وأخواتى الست اليتامى .. لم أكن أرغب فى أن أوقع نفسى فى دوامة مساءلات الشرطة وتحقيقاتها .. فأخذت أجرجر قدمى الثقيلتين ، وأنا أحمل قلبًا منفطرًا ..

مضت عدة أيام ، لم تقع فيها عيناى على رشيد ،وكنت قلقًا جدًا عليه ..

وذات يوم بينما كنت أسرع الخطو متجهًا ناحية محطة لأستقل الحافلة ، فقد كنت متأخرًا تأخرت كالعادة ، شاهدت امرأة تجلس فى ناحية قريبة من المحطة ، لم تجلس فى هذا المكان أى امرأة من قبل .

كانت المرأة تغطى جسمها تمامًا بعباءة ، لم تُظهر منها شيئًا سوى يديها الممتدتين ، اللتين تناثرت عليهما بعض قطع النقود المعدنية ، وفى جزء من الألف من الثانية تبادرت إلى ذهنى فكرة ، فتطلعت بإمعان إلى هاتين اليدين الممتدتين .. كانتا مصابتين بدمامل حمراء ..

توقفت للحظة وأنا أرتعش .. ثم أخرجت ورقة الخمس روبيات الوحيدة من جيبى ، وببطء شديد.. وضعتها فى يديها ، وأسرعت ناحية المحطة !

تمت

الأيدى الممتدة

محمد سعيد شيخ

كان هذا هو المشهد الثانى الذى اصطدم بعينيه ، وهو يمضى فى طريقه إلى مكتبه فى الصباح الباكر ، كان الطريق يمر بميدان " ملجأ اليتامى " حيث العربات القادمة من شارع " السدّ " تجعل المرور فى شارع " ملتان " مرتبكًا للغاية .. لا يجوز أن نطلق على هذا الميدان هذا الاسم لأنه ليس بميدان حقيقى ، فالشوارع هنا تمضى إلى ثلاثة اتجاهات فقط وليس أربعة كما هو الحال فى الميادين الأخرى ، فهناك على الجانب الأيمن من الشارع المغلق يوجد " ملجأ اليتامى " الذى صار اسمًا أطلقه الناس على هذا الميدان ، ورغم أنهم غيروا اسم الملجأ إلى "دار الشفقة" بدلاً من دار اليتامى ، لكن الناس لا يزالون يطلقون عليه اسم " ملجأ اليتامى " ذلك لانعدام عاطفة الشفقة ، والجميع هنا يعرف حال اليتامى .

ثم تتابعت المشاهد أمام عينيه .. فى المشهد الأول نظر ناحية الجانب الآخر من شارع " الدورية " أمام محطة " أتوبيس " حى "أعوان" حيث زحام العمال والأجراء الرهيب الذى اتخذ شكل أكوام حجارة بيت

قد تهدم للتو .. شاهد هؤلاء الناس وقد وضعوا معداتهم وآلاتهم اليدوية التي يفهم منها طبيعة عمل كل منهم على طول الرصيف ، ملتصقة بأرجلهم .. وهكذا كان يمكنه أن يعرف أن هذا حدّاد ، وذاك نجار ، والثالث حمّال ، بجاوره عامل محارة ، والآخر سباك وهكذا .. كان العشرات من هؤلاء الناس بملابسهم الرثة ، ووجوههم البائسة ، قد اصطفوا يبيعون جهدهم وعرقهم ، ولهذا كانوا يعرضون أجسامهم للمارة ، ورغم هذا لم يقترب منهم زبون واحد .. كأن الزبائن جميعهم قد اختفوا فى مكان ما .. فقد توقف الناس عن بناء المصانع ، والقصور ، والشقق السكنية ، وبدؤوا يتاجرون فى الدولارات ، فهى تجارة آمنة ، وتتم فى سرية تامة ، لا توجد مشاكل المحاسبة وضرائب الدخل وما إلى ذلك ..

والآن يتطلع إلى مشهد آخر ، ففى ركن من أركان ميدان "ملجأ اليتامى" ومن زاوية إلى أخرى على طول مسافة معينة ، كان الناس يصطفون فى طوابير طويلة ، وكانوا رغم فارق السن يبدون على هيئة واحدة ، وشكل واحد ، وصبغة واحدة ! بل يبدون كأنهم من عائلة واحدة أو قبيلة واحدة! كان بعضهم منفوش شعر الرأس ، تغطى لحيته معظم وجهه ، مع شارب كثيف ، ووجنتين منتفختين ، وعيون لم تر طعم النوم منذ أيام .. هؤلاء أيضاً جاءوا ليبيعوا جهدهم وعرقهم ..

كان لسان حالهم يقول: "نحن هنا للبيع .. استأجرونا ليوم واحد .. أجرة يوم واحد لإطعام الأولاد .. لدفع فاتورة الكهرباء ! "

كان كل أجير يقف بجوار رفيقه فى هذا السوق، يتلفت هنا وهناك ، لعل هناك من ينظر إليه ، لكن أحداً من الناس لم يعره انتباهاً !!

كان هذا الجدار البشرى الذى يمضى ناحية اليمين مشكلاً منحنى على الطريق يبدو كأنه كومة من الحجارة المتراصة فوق بعضها .

كان الشارع يعج بالمارة والسيارات معًا ، وكلما قل تدفق السيارات كان هؤلاء الناس يحطمون هذا الجدار وينزلون إلى الشارع ، بل كانوا يصلون أحيانًا إلى وسط الشارع ، وكأنهم يريدون وقف مسيرة الحياة ، لكنهم يتراجعون على الفور بقلوب آسفة إذا ما شاهدوا السيارات تتجه ناحيتهم .

كان هذا أقصر طريق يصل من بيته إلى المكتب ، لهذا كان دائمًا يستخدم هذا الشارع محاولاً الاقتصاد فى نفقات البنزين ، كان يشاهد هؤلاء الناس كل صباح منذ عدة أيام ، لكنه لاحظ أن عددهم فى تزايد مستمر ، ولاحظ أيضًا أن هذا الحائط البشرى آخذ فى التمدد يومًا بعد يوم ، وأنهم يقفون وقد تلاصقت بل تلاحمت أكتافهم ، فإذا ما شاهدوا زبونًا أو مقاولاً انفرط هذا الحائط البشرى ،فتحول هؤلاء الناس إلى أكوام متناثرة هنا وهناك .

أمام كل أجير متاعه وعدته ، فالبنّاء وضع أمامه المسطرين ، ووضع عامل المحارة أمامه " قصعة " وعامل الطلاء وضع أمامه " الجردل والفرشاة " بينما وضع الآخر علبة الطلاء مع فرشاة كبيرة وأخرى صغيرة .. كانت هذه الأشياء تتراءى للناظرين كأنها إعلان ضخم عن صاحب كل مهنة ، كان بعضهم يمسك بلوح خشبى طويل يستخدمهم أثناء عملية البناء ، فيحاول هؤلاء الوقوف على اللوح ، كأنهم يعبرون نهر ما ، بينما الآخرون فى انتظار قارب أو عبّارة تحملهم إلى مكان آخر .. هكذا تراءى له المشهد ...

كان سائقه يحاول أن يتحاشى زحام السيارات عند هذا المنحنى ، فيمضى بمحاذاة هذا الحائط البشرى الذى ظهرت منه عيون كأنها سهام تتساقط على وجهه .. كان يشعر كأن الوجوه كلها تقترب منه ، حتى بدت له كأنها داخل سيارته ، عندئذ يسيطر عليه شعور عجيب من الاضطراب والخجل ... فيظل يفكر مخاطباً نفسه :

" من قرارة نفسى أتمنى ألا يكون هنا أى عاطل ، وألا يوجد أى معدم أو جائع .. لكن ما العمل ، إن عدد السكان فى تزايد مستمر ، وبنسبة أكبر من زيادة دخل هذا البلد "

– " أسرع ... بسرعة ... "

هكذا أمر سائقه بعد أن شعر بالاضطراب ..

– ماذا أفعل يا سيدى ؟! لقد غرقنا فى زحمة السيارات .

وإذا ما وقع فى زحمة هذا الشارع وجد نفسه مضطراً إلى أن يتوقف فى ظل هذا الحائط البشرى وهو قابع داخل سيارته .. وكثيراً ما كان يفكر :

– ماذا لو سقط هذا الحائط فوق سيارتى ؟

عندئذ كان يضطرب فينظر عمداً إلى الجانب الأيمن خارج السيارة ، عندها كان يشاهد من أمامه ومن خلفه وعلى يمينه "الميكروباصات" والدراجات ، وسيارات الأجرة ، والحافلات ، والسيارات " الملاكى " وقد تداخلت مع بعضها ، كان هنا رصيف بارتفاع قدمين قاموا بإصلاحه ذات مرة وكانت السيارات تعبر من هناك فكانت قوالب الطوب وقطع الحجارة تأتى خلف الإطارات فتجعل المركبات تقفز ، وتهتز أحياناً

بشدة وتصطدم ببعضها ، فإذا ما خفت حدة الزحام ، تطايرت الحجارة فأصابت المارة ، لكن الناس هنا يعتادون مثل هذه الأشياء خلال أيام قليلة ، ويمضى كل شىء على ما كان عليه ..

في ذلك اليوم أيضًا مضى كل شىء على ما كان عليه .. نظرًا لشدة الزحام كانت سيارته تتحرك ببطء شديد ، مضت بجوار العمال المصطفين على طول الرصيف ، وفجأة قام أحدهم بالهرولة بمحاذاة السيارة ، وأخذ يخبط على زجاجها بشدة ، وربما لو قبض كفه وضرب بشدة لكسر الزجاج .. ثم أشار بيده إلى قدمه ، وكأنه يقول إن عجلة سيارته داست قدمه ، كان يريد أن يوقف السائق السيارة ، وأن يعتذر عما بدر منه ، ولو كانت إصابته خطيرة طالب بتعويض مالى ، لكن فى تلك اللحظات تحركت السيارات فانطلق " بوتا " السائق مسرعًا خارج هذا الزحام ..

- كان من الواجب أن توقف السيارة يا بوتا .

- لا .. لا يا سيدى .. هؤلاء الناس سيمسكون بتلابيبك ، هؤلاء على استعداد لأن يصابوا تحت عجلات السيارات ، متخذين من ذلك ذريعة للحصول على المال .. إنهم ينزلون من فوق الرصيف إلى نهر الشارع ، ويشاهدون السيارات قادمة فلا يتراجعون .. الذنب ذنبهم ..

سكت ، لم يعلق على كلام السائق ، لعله فهم بالضرورة أن توقف السيارة وسط هذا الزحام ليس من العقل فى شىء ..

- من أين ظهر هؤلاء الناس الباحثين عن العمل ؟ لم نكن نشاهد هنا مثل هؤلاء الناس العاطلين من قبل ؟

– يا سيدى البطالة منتشرة هذه الأيام ، زادت أعداد العاطلين ..

قال السائق هذه العبارة وهو يتطلع إلى رئيسه من خلال المرآة الأمامية للسيارة ثم أضاف قائلاً :

– كما أن الغلاء – يا سيدى – صار فاحشًا ، أُغلقت المصانع والآن حركة البناء لم تعد كما كانت من قبل ، فأصحاب رؤوس الأموال هرّبوا أموالهم إلى خارج البلاد .

شعر على الفور أنه ليس من الضرورى أن يتمادى السائق فى الحديث ، فلم يكن يدرى أى موضوع آخر سيثيره السائق فيما بعد .. لذا أخرج من حقيبته الملف الخاص باجتماع اليوم ، وأخذ يتصفح أوراق الملف .

اليوم هو موعد انعقاد الاجتماع الثالث لدراسة التوصيات الخاصة بتحسين نظم الإدارة ، وهو الاجتماع الذى شارك فيه ممثلاً للإدارة التابع لها .

وصل فى الموعد المحدد ، افتتح الرئيس الاجتماع مرحبًا بالمشاركين ، ومن بينهم بالإضافة إلى رؤساء الإدارات المختلفة بعض الخبراء أيضًا الذين تمت دعوتهم لحضور هذا الاجتماع ، ثم بدأ الرئيس خطابه هكذا :

" علينا أن نغير نظامنا المتهالك ، مع دخولنا القرن الواحد والعشرين ، يجب أن نجعل من إداراتنا إدارات فعالة ، يجب أن يكون نظام المراقبة أكثر شفافية وأن يقوم على أسس متينة ، علينا أن نؤسس إدارات هذا الوطن من جديد مستعينين بالكمبيوتر ، والإنترنيت ، والبريد

الألكترونى وجميع تقنية المعلومات الحديثة ، ولدينا بالإضافة إلى البلاد المتقدمة أمثلة عديدة منها: ماليزيا وكوريا وتايوان ، وقد عرضنا هذه النماذج فى اجتماعاتنا السابقة.. فى الشهر القادم سنعقد ندوة عن هذا الموضوع، ونحيل إلى الحكومة ما تتوصل إليه اللجنة المشتركة من توصيات .

بعد ذلك عبّر بعض أعضاء اللجنة عن أفكارهم، وقدّموا مقترحاتهم، وقام الجميع تقريباً بعرض أفكارهم ومقترحاتهم فى هذه الجلسة كل فى حدود إمكانياته .

كان مشهد الصباح فى طريق " ملتان " لا يزال حيًّا فى مخيلة الأستاذ قريشى، حاول أكثر من مرة أن يقول شيئًا من واقع ما شاهده ، لكن ما علاقة ما شاهده بموضوع هذا الاجتماع ؟ لم يتفهم الأمر جيداً لكنه بدأ حديثه قائلاً :

" سيدى .. إن ما أراه .. من وجهة نظرى .. هو أننا إذا كنا نتحدث عن إجراء تغيير فى الإدارات والأنظمة ، وإذا كنا نحاول إعادة تشكيلها من جديد فأعتقد أننا أهملنا عنصراً مهما جداً ، ألا وهو العنصر البشرى .. نحن لا يمكننا أن نحقق أى هدف نصبوا إليه دون أن نغيّر من نظرتنا للإنسان وتقييمنا له ..

لم يكد يكمل كلامه حتى شعر بأنه تخطى الحدود المقررة من قبل رئيس الاجتماع .. فى البداية ساد الصمت غرفة الاجتماع، ثم بدأ المشاركون يتهامسون فيما بينهم ، وينظرون إليه نظرات غريبة .

أومأ الرئيس إلى السكرتير الجالس على يمينه، ثم ثبّت نظره عليه للحظة وسأل عن اسمه ، ومباشرة قال بلهجة فيها قدر من الامتعاض :

– سيد قريشي ! لو كنت قرأت محضر جلسات اجتماعنا السابق ، لوفرت على نفسك عناء تقديم هذا الرأى ، البعيد جداً عن سياق موضوعنا ..

ثم رفع صوته وهو يكمل حديثه :

– لا يجب عليكم الحضور هنا قبل قراءة الملفات الموجودة لديكم ، إذا كنا نتحدث عن الإدارات والأنظمة ، فالأفراد لا يمثلون من ناحية أهمية ، ولسوف يأتى زمن يصبح فيه الفرد شيئًا خياليًا مثلما وصلنا نحن إلى نهاية التاريخ !! نحن الآن فى عصر العولمة ، نحن الآن نعيش فى عالم أشبه بالقرية ، يطلقون عليه **global Village** يجب علينا أن نخرج من أوهام القرون الماضية ، وإلا أغلقت فى وجوهنا أبواب القرن الواحد والعشرين .

بعد سماع هذا التأنيب الشديد الممزوج بالتعالى المعرفى من جانب الرئيس ، شعر المشاركون فى الاجتماع بجهلهم وضآلة علمهم ، فقد كان الرئيس العظيم صاحب تجربة وخبرة فى النظم المعمول بها فى البلدان الأخرى وفى اقتصادياتها ، فقد سبق له العمل فى الهيئات الدولية والإدارات العالمية والآن يستفاد من خدماته الجليلة فى وضع حجر الأساس لنظام جديد فى باكستان .

طلب الرئيس من سكرتيره أن يُطلع المجتمعين على تفصيلات الندوة التى ستعقد الشهر القادم ثم قال مخاطباً المجتمعين:

– نحن نأمل أن يقوم فريق العمل المشكل من أجل هذا الاجتماع ، والذى سيرأسه خبراء أجانب بإعداد المقترحات التى نقوم من خلالها بتطبيق نظام فى هذا البلد يضعه فى مصاف البلدان المتقدمة ..

وانفض الاجتماع بتصفيق حاد بعد سماع العبارة الأخيرة التى نطق بها الرئيس .

حين كان السيد قريشى يخرج من باب الصالة استوقفه أحد الموظفين الأقدم منه فى السلم الوظيفى وقال له :

– لقد تحدثت بكلام عجيب ! لكل اجتماع ما يناسبه من كلام ، ولكل مقام مقال .. كان يجب عليك أن تفكر قبل أن تتكلم ، كان رأيك فى منتهى الإسفاف .

اعتذر السيد قريشى وانسحب من المكان بسرعة !

ظل السيد قريشى يشعر بأن دماغه يئن تحت وطأة حمل ثقيل ، فلم يتمكن من التفكير أو العمل لعدة أيام .. كل ما فعله ببساطة شديدة أنه غيّر طريق ذهابه إلى المكتب ، وطريق عودته إلى البيت ، فبدلاً من أن يسلك طريق ملتان ، بدأ يأخذ طريق " فيروز بور " ، ولم تمض أيام قليلة حتى وقعت سيارته ثانية وسط الزحام الشديد عند وصلة طريق الوحدة ، فعمد السائق إلى الخروج ناحية الشمال ليتفادى شدة الزحام الذى تشكله سيارات الأجرة والحافلات وعربات النقل الثقيل والميكروباصات ، فمضت السيارة بالقرب من الرصيف ، وهنا أيضًا وعند كل منحنى وآخر ، كان العمال المساكين يقفون على طول مسافات ليست بالقصيرة ، وقد وضعوا عدتهم وعتادهم عند أقدامهم ، وبدت ملامح الجوع على وجوههم ، وفى عيونهم خوف شديد ، وألسنتهم تكاد تنطق بكلمات الرجاء : نحن محصول جيد لا يجد من يشتريه !

ظن السيد قريشى فى البداية أن من شاهدهم فى شارع ملتان انتقلوا إلى هذا المكان ، لعلهم عرفوا أنه غير طريقه إلى مكتبه فسأل السائق :

– هنا أيضًا يوجد مثل هؤلاء المساكين ؟!

لم يستطع أن يكتم الكلمات بداخله ، لهذا وجهه سؤاله السابق إلى السائق الذى رد عليه :

– هنا أيضًا سوق للعمال يا سيدى ! لا يجدون عملاً ، ماذا عساهم يفعلون هؤلاء المساكين ؟!

* * *

القضاء على الفقر ، تحسين أنظمة البلاد ، استمرت اجتماعات البحث فى تحسين نظم الإدارة ، وتطوير الأنظمة الحكومية ، والآن تعقد ندوة كل أسبوع ، بينما خبراء الدول المتقدمة يعدون مقترحاتهم !.

* * *

كان الزحام يتزايد فى شارع فيروز بور يومًا بعد يوم ، حين كان الغبار يتصاعد من جراء زحام المركبات الشديد على الطريق ، كان يغطى وجوه العمال المساكين الجالسين على قارعة الطريق .. بينما عيونهم تتطلع بيأس إلى المجهول ، لم يكن السيد قريشى يتحمل رؤية هذه النظرات ، وهكذا قرر أن يغير ثانية طريق ذهابه إلى المكتب وعودته إلى البيت ، فجعل يمضى بالسيارة على الشارع المحاذى للنهر ، ثم ينعطف بعد ذلك ليمضى فى شارع " المال " كانت إشارات المرور كثيرة فى هذا الطريق الجديد ، لكن حظه كان طيبًا لمدة أربعة أيام ، فكان كلما وصل إلى إشارة عند تقاطع الطرق وجدها خضراء ، وهكذا كان يمر سريعًا لا ينظر يمينًا أو يسارًا ، لكن فى يوم من الأيام حين وصل إلى ميدان " مسلم تاون " توقفت السيارة فقد احمرت الإشارة ،

وإذا بالشحاذين والمتسولين يندفعون ، ينقضّون على السيارات التى توقفت فى الميدان .. رأى أحدهم يقترب من سيارته ، شاهد على ذراعه الأيسر علامات جروح حمراء لم تندمل بعد .. أخذ الشحاذ يقترب من السيارة ممسكًا ذراعه بيده اليمنى .. لم ينطق بشىء ، فقط وضع جراحه تلك أمام عينى السيد قريشى ، الذى أدار وجهه على الفور إلى الناحية الأخرى ، فرمقه الشحاذ بنظرات مملوءة بالغضب ، ومضى إلى سيارة أخرى ، فى الناحية الأخرى كان هناك عجوز أعمى ، وضع على عينيه نظارة سوداء ، تدلت من فوقها قطعة قماش أخضر غطت إحدى عينيه ، كان ممسكًا فى يده بطفلة صغيرة ، تقدم ناحيته ووضع يده متحسسًا زجاج نافذة السيارة وهو يقول :

- أعانك الله ، وزاد من ثروتك .. أعط المسكين نصيبه

أطال السيد قريشى النظر إلى العجوز ، كان يريد أن يعرف هل هو أعمى حقًا، قال العجوز :

- علاج الأطباء أصابنى بالعمى ، لا يوجد معى ثمن الكشف .. أعطنى حسنة لله يعطيك الله ..

أراد السيد قريشى أن يضع يده فى جيب سترته ليخرج شيئًا يعطيه للعجوز ، لكن الإشارة اخضرت ، فبدأت السيارات من خلفه تطلق أصوات أبواقها المزعجة تستحثه على الإسراع ، وهكذا ضغط السائق على "المارشيدير " فانطلقت السيارة مسرعة .. نظر أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله فرأى الشحاذين قد تقاطروا على نوافذ السيارات ، لم يستطع أن يعرف كم منهم وجد حسنة ، وكم من الأيدى ظلت ممتدة تطلب الحسنة !

توقع مثلما توقع العجوز أنه لو قدم حسنة فسينال بالضرورة حسنة مثلها ، فتساءل مع نفسه :

– من يدرى ؟ ! من هو المستحق فعلاً ؟ ومن ذا الذى اتخذ التسول حرفة ؟ فقد صار التسول الآن مهنة لكثير من الناس !!

عندئذ أخذ يفكر ويفكر .. التسول بالفعل الآن صار على جميع المستويات ، فكبار الناس أيضًا يتسولون .. نعم .. يتسولون من البنوك ، ومن الهيئات المالية ، ثم يطلبون بعد ذلك إسقاط الديون !! ووصل الحال إلى أن جميع الدول الصغيرة الآن تتسول من الدول الكبيرة ، فالمسألة تتعلق بقضية الاكتفاء الذاتى ، لكن كيف يتحقق الاكتفاء الذاتى مع وجود الفقر ؟!

فى اليوم التالى اضطرت سيارته إلى التوقف فى الميدان أمام إشارة المرور الحمراء ، وهنا أيضًا هرع الشحانون الذين كانوا يقفون على طول الشارع وفوق الرصيف، والتفوا حول السيارات التى توقفت .. كانت هناك امرأة شابة تقف بثبات وسط هذه العاصفة البشرية ، نقرت بإصبعها على زجاج نافذة سيارته وهى تقول :

– يا عمى ! لله .. صدقة عن مالك، وعن أولادك ، بعض الروبيات .. أطفالى يتضورون جوعًا منذ ثلاثة أيام ..

لم يدر السيد قريشى سببًا جعله يفتح نافذة السيارة ويقول لها :

– وماذا يفعل والد الأطفال ؟

– كان يعمل أجيرًا حين كان يجد عملاً ، لكنه الآن عاطل لا يجد عملاً ، وكل همه أن يشرب ويسكر ..

تقطّع قلبه من الأسى والحزن ، فأخرج من حافظة نقوده ورقة بمائة روبية ، قدمها لها ناصحاً إياها :

- إن كنت لا تستطيعين تربية الأطفال فلا ضرورة لإنجابهن ..

كان يقرأ كثيراً عن قضية السكان وزيادة السكان ، لأنه اضطر للعمل فترة في "مصلحة التعداد السكانى" وكان يلاحظ أن الفقراء يلدون أطفالاً أكثر من الأغنياء ، فكان هذا فى رأيه سبباً من أسباب فقرهم .

أمسكت المرأة بالورقة فئة المائة روبية ، لكن نوعًا عجيبًا من شدة الكراهية الذى كان يغطى وجهها تلاشى على الفور ، وبدأت الكلمات تخرج مختلطة متتابعة من شفتيها ، كانت تنطق بأى شىء يأتى على خاطرها ..

فتحت الإشارة فانطلقت السيارة ..

فى الميدان التالى اضطر السائق إلى التوقف أمام الإشارة الحمراء، وحدث نفس الشىء ، فقد هجم الشحانون من كل صوب على السيارات، قام أحدهم وكان يتمتع بصحة جسدية طيبة ، فضرب زجاج سيارته من الخلف .. ظن السيد قريشى أنه لو ضربها بشدة أكثر لحطم الزجاج ، ففتح النافذة وقال غاضباً :

- ماذا ..؟!

- يجب علىّ أن أدفع مصروفات الأولاد ، خمسمائة روبية ، أعطنى خمسمائة روبية ، ليست بالمبلغ الكبير بالنسبة لك .

- هيا .. ابتعد .. امش .. لماذا لا تعمل ؟

هكذا خاطبه السيد قريشى وهو يتطلع إلى جسمه الضخم وعضلاته المفتولة

- لا أجد عملاً .. أنت مدير يا سيدى ، أوجد لى أى عمل ..

لم يكن السيد قريشى على استعداد للرد عليه ، بدأ ينظر إلى شحاذ آخر ظهر أمامه يمد إليه يده .

كان يعرف أنه ليس بكفء لأن يقدم عملاً لأى إنسان ، ثم إن القضية ليست قضية إنسان واحد عاطل ، وإذا ما أوجد عملاً لأحد العاطلين ، ما مصير الآخرين .

- معذرة يا أخى .. الله يحنن عليك خلقه .. الله يعطيك .

نطق السيد قريشى بهذه الكلمات وهو يرفع زجاج نافذة السيارة ..

فى اليوم التالى وعندما توقفت السيارة فى أحد الميادين ، قال لأحد الشحاذين الذى اقترب من السيارة مستنداً على عكازين :

- معذرة يا أخى .. الله يحنن عليك خلقه .. الله يعطيك .

وهكذا مضى الشحاذ بعد أن سمع هذه الجملة .

حين مضت السيارة من هذا الميدان تساءل مع نفسه :

- هل يجب أن أعتذر لكل شحاذ ، حتى يتركنى ويمضى ، وإذا لم أعتذر !! وما هو القصد من قولنا لهم : معذرة .. الله يحنن عليك ..

أصابته هذه التساؤلات بالارتباك ، فى الحقيقة إن من لا يعطى الشحاذ شيئًا يقوم بالاعتذار إليه بهذه العبارة المعهودة ، حتى يخلص نفسه من إلحاح الشحاذين ، أو لعل السبب فى هذا أننا مسلمون ،

ولا يجب أن نعامل المساكين معاملة سيئة حتى بالقول ، لكن لو كنا مسلمين حقًا لوجب علينا مساعدتهم ، فمساعدة الفقراء والمساكين واجب أخلاقى ، يجب أن نؤدى حقه ..

كان الأمر بالنسبة له محيراً وعجيبًا ، وظل يتساءل هل يجب أن نعتذر لهم أم لا نعتذر قبل أن نتركهم ونمضى ، وكم مرة نعتذر لهم كل يوم ؟!!

وفى النهاية صم أذنه عن سماع توسلات الشحاذين ، ودعائهم الذى يرفعونه للسماء مقابل ما قد ينالون من عطاء ، كما عمد إلى إخفاء عينيه فى الصحيفة، لم يكن ينظر أو يتلفت خارج السيارة ، وكأنه لا علاقة له تمامًا بما يدور خارج السيارة ، وحين يصل إلى مكتبه كان الخجل يغطيه تماماً ..

– لكن ماذا يمكن أن أفعل ؟ !

هكذا ظل يفكر .. ويفكر ..

وظل هذا التفكير يقلقه كل يوم ، إلى أن قال لنفسه ذات يوم :

– أنا .. يمكننى أن ...لا .. لا يمكن أن أفعل أكثر من أن أغير طريقى مرة أخرى !

تمت

كـــرب

عرفانه تزئيين شبنم

من أكبر المعارك معركة الحياة والموت .. لا تزال هـذه المعركة تدور منذ عشرة أيام ، فقد أصيب جسمى بالشلل التام ، وها أنا راقدة على الفـراش دون حـراك .. سـمـعت أن الموت شىء مـخـيف ، لكن الناس مخطئون .. فالشىء المخيف فعلاً هو الحيـاة ، التى نحتـاج فيـها إلى الآخـرين ، فـى كل شـأن من شـئـوننا ، وفـى كل لحظة من لحظات هذه الحياة ، كانت الطمأنينة بادية على وجوههم وهم يتفحصوننى بأعينهم ، لكن أحيانًا ما تظهر فى قلوبهم رغبة التخلص منى ، مهما كانت صلة القـرابة بيننا ومـهـمـا كـانوا من أهلى ومن لحمى، ظـهر هـذا الإحسـاس بداخلى لعـدة لحظات من قـبل .. لا أسـتطيع أن أحـرك قـدمى حـتى لو استعنت بيدى ، ونتيجة لفترة النقاهة التى أعيشها ، خارت قواى تماماً ، إلا أن حـاسـة السـمع لدى تمكننى من سـمـاع جـمـيع الأصـوات ، ليت إحساسى يتلاشى تماماً .

أحيانًا تنفتح عيناى المغمضتان للحظة ، فتطالع خلال هذه اللحظة وجود الناس الملتفين من حولى ، لعلهم يعرفون أن الشمعة قبل أن تنطفئ

تتوهج للحظة .. محاولة للتطلع إلى الوجوه المختلفة لأناس أعرفهم وآخرين لا أعرفهم .. ظلال متداخلة .. من خلفها نظرات تتفحص بدقة حالتى أى موتى ..

نعم ! فموتى أمر مؤكد ، فلم الانتظار إذن ؟! لماذا أستغرق هذا الوقت لأطوى المسافة الفاصلة بين الحياة والموت ؟ .. التساؤل عن هذا الانتظار واضح على تلك الوجوه .. أضطرب فأغلق عينى .

الإحساس بالألم يشتد ، وهذا الكرب لا يتعلق بالجسم ، لأنه ألم روحانى ، كرب يتعلق بالنفس ، ولا أدرى لماذا يتجمع فى اللحظات الأخيرة داخل فؤادى وفى أعماق روحى ؟!

يستمر انعقاد هذا المجلس الذى يعج بالناس طول اليوم ، بينما ولدى " عمير " يجلس بينهم يطأطئ رأسه لكل من قدم لعيادتى ، ويأتى بجوارى أحيانًا ، فيقف للحظات كأنه يريد أن يخبرنى بشىء ما ، بينما النساء من أقاربى ومعارفى يجلسن ، يتبادلن أسئلة مختلفة ، وقد أصابهن حزن شديد ، لا أدرى له تفسيراً .. هل هو حزن ينتابهن عند ذكر مرضى أم أسى على جسدى المسجى أمامهن ؟ جسد حى ميت .. يتساءل القادمون :

– منذ متى وهى على هذه الحال؟

– منذ خمسة أو ستة أيام.. تعرضت للشلل فجأة ، ومنذ ذلك الوقت وهى راقدة فى الفراش ، تعيش على الماء أو على ملء ملعقة من الحليب .

– هل عرضوها على الطبيب؟

– نعم .. جاءها الطبيب .. فحصها ..

- ماذا قال ؟

- قال : إنها بحاجة إلى دعواتكم ... ووصف لها الدواء

ثم يتوجهون إلى زائرين جدد قدموا أيضاً لعيادتي :

- لا توجد عليها آثار الحياة .. المسكينة لا تدرى متى تجد الخلاص من هذا الألم؟!

وترتفع الهمسات التى تنزل على قلبى كالسهام .. أى نوع من التعاطف هذا ؟! إن طلب الرحمة بهذا الشكل يُدمي روحى ، ويزيد من قلقي واضطرابى ، أريد أن أفتح عينى ، لكن همتى لا تطاوعنى ، طالما يظن هؤلاء الناس أن وجودى لا ضرورة له فلماذا أخيب ظنهم ؟!

لعل الليل أسدل ستائر ظلمته على الدنيا ، فقد عم البيت سكون وهدوء ، بعد أن أصيب من ينتظرون موتى باليأس فعادوا إلى بيوتهم .

- أف ! كم أتعبنى الناس طول اليوم ، أجيب على الأسئلة ، وفى النهاية ، يوجهون كلمات مجاملة بسيطة .

هكذا قال "عمير" وهو يتجه للجلوس على الكرسى القريب منى .. جاءت "ماهيناز" فوراً بالشاى ، وكأنها كانت فى انتظار هذه اللحظة .

- لم أستطع أن أشرب الشاى أمام الناس.. ماذا عساهم يقولون؟

قال هذا وهو يأخذ رشفة من كوب الشاى

- نعم .. فالناس ينتهزون الفرصة فى مثل هذه الظروف ، رأسى تكاد تنفجر ، فقد مللت طريقة أولئك النسوة .. فشرب الشاى أيضاً عادة سيئة !

قالت " ماهيناز " :

– إلى متى تمضى الأمور هكذا !؟

اخفض صوتك ، ربما يأتى أحد فجأة !

هكذا أنبهته " ماهيناز " ثم قالت :

– لينقذنا الله ! فنحن بحاجة إلى وجودها بيننا .. أى ذنب جنته أمى ؟!

– اتركى الأمر لله ، فهو وحده الذى يقرر لكل شأن وقته .

قالت " ماهيناز" :

– خذ الأطفال من جوار الأم .

– لننتظر قليلاً ، فالصغير يشعر بالقلق والاضطراب بعد أن جاء هنا ولا يمكن أن يبقى وحده دون " نائلة "

– نحن ننتظر منذ ثمانية أيام ..

كانت لهجة " ماهيناز" الممزوجة باليأس فيها حرقة ولوعة

– ماذا تظنين ، هل أبقيتهم هناك بنفسى وجلست هنا هكذا دون طائل .. ألا تفهمين مدى الحرج الذى أعانيه ؟!

نهضت " ماهيناز " غاضبة وهى تقول :

– أنت أدرى !

– ارحمنا يا إلهى ! نجيها يا رب من هذا العذاب ..!

هكذا قال ولدى .. كيف يخفى بسهولة غضبه فى ستارة ألمى ..

يا إلهى ! كم تبقى على طلوع روحى .. حررنى يا إلهى من قيد هذه الحياة ، فقلبى يموج بالاضطراب .. أرقد على الفراش بينما عيناى خرجتا إلى دروب الماضى ، إن ما يؤذينى فى تلك اللحظات هو الشيء الذى يمنحنى السكون ..

كان "عمير" باكورة أولادى ، جاء بعد انتظار طويل ، ودعاء لله ، خضت تجارب لا حصر لها حتى كبر ، مرض عشرات المرات ، وفى كل مرة كانت روحى تخرج منى ، ويدمى كبدى ، وكانت الهواجس تجعل حياتى شيئًا مستحيلاً ، كنت أحمله فى كل مرة وأهرول إلى الطبيب ، لا رغبة لى فى طعام أو شراب ، لا أفكر فى شيء طوال الليل والنهار إلا فى حالته ، فقد ولد ضعيفًا .. وحين تحسنت حالته رويداً رويداً تدهورت حالتي ، لكنى لم أقلق أبدًا على نفسى ، وكان هذا الأمر يثير "أبا عمير" كثيراً فيقول لى :

– يا سيدتى ... اهتمى بنفسك قليلاً .

– أنا بخير ، لا تقلق أبدًا .. فأنا صلبة ومتينة .

كان يبتسم عند سماع عبارتى هذه .. أنا فعلاً صلبة ومتينة ، لم أطلب أبدًا عونًا من أحد فإذا حلت بى مصيبة لم أتعلم طلب العون من أحد ، كما أننى أكره أن يبدى الناس تعاطفهم تجاهى واليوم .. أجد نفسى عاجزة ، لا حول لى ولا قوة ، مجبرة على الاعتماد على الآخرين أيضاً حتى فى قضاء حاجاتى، وهذا العوز مثل الظفر يخربش صدرى.. آه لماذا لا يقضى علىّ هذا الشعور بالاختناق ، أليس التعلق بين الحياة والموت أمراً مؤذياً ومؤلمًا ؟!

كانت " فاخرة " المولود الثانى بعد " عمير " ومن بعدها جاء " عمر" ثم " جاءت "سارة " . . وكان الأبناء الأربعة هم نور عينى ، كنت أبتسم وأضحك دائمًا من أجل إسعادهم ، لم تكد سارة تبلغ الرابعة من عمرها حتى فارقنا والد " أبو عمير " ، ففى ليلة سوداء ، تعرض لسكتة قلبية ، لم يستغرق ذهابه إلى حضن الموت سوى لحظات قليلة .. وهكذا بقيت وحيدة .. لم يعطنى " أبو عمير " الفرصة للقيام على خدمته ، لو رقد مثلى على الفراش ، لاستطعت خدمته أيامًا ، بل شهوراً ، بل سنوات !! بكل سرور وسعادة ، ليل نهار ، دون أدنى تفكير فى الخلاص منه ، ولن أشعر أبداً بعبء الحمل والمسئولية ، لكن ما فائدة كل هذا الكلام الآن ؟ كنت موجودة لخدمته ، لهذا ضاع منى فى صمت إلى الأبد .. فى لحظات معدودة فقدته وبقيت أنا وحيدة أبحث عنه !!

فى ذلك الوقت عُين "عمير" فى وظيفة متواضعة الراتب ، فكان الحمل كله يقع على عاتقى ، وحتى أُبعد اللغط عن نفسى ، تمكنت بصعوبة من شراء ماكينة خياطة ، فبدأ الناس يهلّون علىّ ، فكنت أعمل ليل نهار ، وأقوم برعاية عمر وسارة حتى يناما ، فأظل مستيقظة حتى منتصف الليل منحنية على ماكينة الخياطة ، وأذكر أن فاخرة كانت تساعدنى كثيراً ، فتقوم أحيانًا برفى القماش بيدها ، وأحيانًا تقوم بتركيب الأزرار ..

فى جوف الليل حين أذهب للفراش وأخلد للنوم أشعر بجسمى يتفكك ، ويتحول الإحساس بالعوز والجبر إلى ألم يتخذ شكل دموع تتساقط من عينى .. عندئذ تتداخل الصور بمخيلتى ولا أدرى من أين يخرج " أبو عمير " متسحبًا ببطء ، فيأتى ويجلس بجوار وسادتى ،

فى ذلك الوقت فقط تستيقظ بداخلى قوة مواجهة ما بداخلى من آلام .. وحين كنت أشعر بالإرهاق والتعب كان وجه " أبى عمير " يظهر أمامى ، على وجهه طمأنينة تشد من أزرى وتمنحنى حماساً جديداً .

رغم بعض الصعوبات تم زواج " فاخرة " فى ظروف طيبة ، وبشكل لم نكن نتوقعه ، ولم أكشف لأحد عن الصعوبات التى مرت بنا حتى إتمام الزواج .. وتوظف " عمر " وجاءت مرحلة الهناء والسعادة ، أشرق نور الصباح ، فانقشعت ظلمة الليل .. كنت إذا شعرت بألم بسيط ، قلق الجميع على صحتى ، فأتذكر كيف كان الخوف يتملكنى حين يصاب أحد أبنائى بسوء ..

سيطرت على ذهن " عمر " فكرة السفر إلى بريطانيا ، فقد كان يود رؤية هذا البيت الصغير وقد تحوّل إلى " قصر " كبير ، بينما كنت أنصحه دائمًا أن يرضى بما قسم الله له ، فالثروة تأتى وتذهب ، ثم لماذا نقارن أنفسنا بالباشوات والأثرياء ؟! فلكل إنسان نصيبه الذى كتبه الله له ، سيناله بالضرورة ، لكن لا أدرى لماذا كان الإحساس بالنقص يلازمه على الدوام ، وكان يتوق دائمًا إلى الخروج من حدود "الفراش" الذى قدره لنا الله ، ليحلق عاليًا كلما أمكنه ذلك ، فكثيراً ما كان يردد على مسامعى :

– هل هذه حياة ؟! أتسمينها عيشة ؟! لقد ضقت ذرعًا بهذا " الروتين " فنحن نعيش مثل الضفادع فى البئر ..

– عليك أن تفكر فى أمور أخرى ، أو عمل آخر .

هكذا نصحه أخوه " عمير "

– أى أعمال ، وأى أمور ؟! إذا انطفأت جنوة القلب صرت رماداً ! نحن نعيش وسط ظلال الحرمان ، لدرجة أن الشعور بالأمان تلاشى ، صار مثل نقطة سوداء ، لم يعد هناك غير طريق واحد ، لا بد أن أسافر إلى بريطانيا ، فأنا لم أحصل على درجة الماجستير عبثًا ، إننى أعرف أن أمي عانت كثيراً ، وتحملت كثيراً حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن ، وقد حملت على عاتقها ما يعجز عن حمله الآخرين ..

فأقاطعه قائلاً :

– لا داعي لأن تقول هذا الكلام يا ابنى ! هل يمثل الأولاد عبئًا على أمهاتهم ؟!

– يا أماه ! لكنى أريد أن أراك وأرى الجميع هنا فى أحسن حال وأسعد بال .

ثم يأخذنى بعيداً .. يصور لى جمال الحياة ، ويجلسنى على فراش من الورود ، لكنى لم أر حتى اليوم هذه الحياة الجميلة ، فقد حقق أحلامه هناك ، وتخلص من شقاء حياته ، وطوقته السعادة بطوقها .. ومع هذا لم أشعر بأى قلق ، كنت أشعر بالطمأنينة لأنه كان سعيداً ، كانت عيناى اللتان ملأهما الشوق تتحرقان لرؤيته ولو للمحة واحدة ... أغلق عينى فتنتقل هذه النيران إلى قلبى ، لقد ظل لفترة يرسل الخطابات والنقود ، كان يريد أن يجلسنى على فراش من الورود ، لكن هل يمكن لأى أم أن تكون سعيدة إذا ما افترقت عن أولادها ؟!

بالتدريج بدأت الخطابات تصل إلينا فى فترات متباعدة ، كما أنه لم يأت أيضاً لحضور حفل زواج " عمير " و زواج " سارة " ماذا دهاه هناك ؟ كان يخشى أن يأتى عندنا ؟! ربما .. لأننى كنت سأقسم –

حبًا فيه - ألا يفارقنا .. كم كان جاهلاً !! كم كان أحمق !! لقد كنت دائمًا أود أن أرى الجميع في سعادة وهناء ، فلماذا أقف في طريق سعادته ؟! لقد آلمني كثيراً فراقه ، ثم إنه تزوج هناك أيضًا فزادت مسئولياته .. عندئذ .. انقطعت علاقته بنا !!

حين كان يصلنا خطابه أحيانًا ، كنت أحمله ، أتفحصه ، أحاول أن أرى وجه ابني بين السطور ، وحين تهتز أوراق الخطاب أظن أن الصوت المنبعث من حركتها هو صوته لكنني لم أشكو من " عمر " أبداً ، ولم أشكو أيضًا من " عمير " أو " فاخرة " أو "سارة " ، فواجبي كان منحهم السعادة في الحياة ، أنا لم أبذر بنوراً لأنتظر الآن موسم الحصاد ، لم أنتظر أبداً فصول الربيع التي مضت ، فأنا أعرف أن كل شيء في الدنيا ماله التغير ، ثم إن الإنسان مسافر ، ماض عن هذه الدنيا ، ولا أحد يدري بعد ذلك أي طريق سيسلك وعلى أي درب سيمر ، وفي أي منعطف سيمضي ؟!!

كانت فاخرة تشكو من أن نصيب سارة من المحبة أكبر ، لأن زواج فاخرة تم بطريقة بسيطة ، أما زواج سارة فتم على مستوى أعلى لأن عمر سافر إلى الخارج آنذاك فكان لما يرسله من نقود أثر في ذلك ، وهكذا كانت فاخرة كلما جاءت إلى البيت مطت شفتيها قائلة :

- أمي لا توجه اهتمامها إلا لسارة فقط .. كل اهتمامها .. أمي لا تعدل بيننا .. يا ويلها يوم الحشر ..

لكن أي حشر تتحدث عنه ؟! ألا تدري في أي ظروف تم زواجها ؟ ثم إنها لم تكن فتاة صغيرة ، فقطار الزواج كان قد فاتها ، كيف تنكر جميلي عليها ؟ كيف تتنكر لشقائي الذي حطم روحي ؟! كيف لها أن تنسى محبتي وعطفي ؟!

وعميرّ أيضًا غرق بين زوجته وأولاده، فأخذ يبتعد عني رويدًا رويدًا، وكنت طول الليل أعاني من السعال بينما هو غارق في نوم الهناء ، وكان مرضي العادي لا يقلقه أبدًا ، نعم كان يقول :

– يا أمي ! اجلسي ، استريحي ، " ماهيناز " ستقوم بكل شيء ، هناك خطورة في أن يرتفع ضغط الدم ، ونخشى أن تصابي بالشلل ، ففي هذا العمر يصعب علاجك

– لماذا تقلق هكذا ؟ أنا أيضًا – مثل أبيك – سوف أذهب عنكم في صمت

– لماذا تقولين هذا الكلام يا أمي ، كل ما أعنيه هو مصلحتك ..

إنه الآن يريد مصلحتي أيضًا .. ابتسامة باهتة ترسمها شفتاي .. فأبو عمير جاء في صمت ، وجلس بجواري ، يخاطبني :

– سيدتي ! لقد قمت بواجبك على خير وجه ، فعلام الانتظار ؟!

نعم كل شيء تم ، فقد أكملت كل ما تركه من أمور غير مكتملة ، والآن وفي هذا المنعطف أحمل عبء حياتي وحدي حتى أصابني التعب ، وصار وجودي في هذا البيت مثل وجود شيء لا فائدة منه ، وقلبي يرغب في أن أمضي هنا – مثله – في لحظات ، وأن ألتقي به ، لكن لكل شيء ميعاد ، إن ما كنا نخشاه وقع ، وكل ما كان يخافه عمير حدث ، فقد أصابني الشلل فجأة ، وتوقف جسمي عن الحركة ، وأنا الآن جثة هامدة .. صرت عبئًا ، وسأظل حتى آخر لحظة في عمري أحتاج إلى عطف الآخرين الذين يتحملون هذا العبء ... متى رغبت أنا في أن أكون سببًا في تعب أحد من الناس ؟ متى رغبت في أن يسبب وجودي الإحساس بالعبء لدى الآخرين ؟!

ما كنت قد تصورته شيء وما يحدث الآن شيء آخر ، وما أعاني من آلام يتضاعف داخل روحي ..

فتحتُ عيني ببطء ، طلع الفجر ، أعدت " ماهيناز " طعام الإفطار ، ثم نادت على عمير ، فأغلقتُ عينيي واكتفيت بسماع الصوت دون مشاهدة الصورة ..

– هيا .. تناول طعام الإفطار بسرعة ، فسوف يبدأ قدوم الناس إلينا ..

– أليس لدى هؤلاء عمل يشغلهم ..

قال عمير هذا وتركني متجهًا إلى المطبخ ..

– هل أرسلت برقية إلى عمر؟

– نعم ...

– لقد ذهب أخوك هذا إلى بريطانيا ، واستراح هناك ، لو أنه ظل هنا لما تحملنا هذا العبء .

– لا عليك .. اتركيه وشأنه، لقد أخبرناه وسوف يأتي ونتدبر الأمر.

– نعم .. في هذه الأيام الأخيرة سيفعل شيئًا .. سيقول الناس إن الأم كانت دائمة التفكير في عمر ، وهو يقضي أيامه هناك بعيداً عنا ، الآن عليه يقضي هنا عدة أيام ..

– يفعل ما يريد .. سوف تأتي فاخرة اليوم أخبرها أن تبقى معنا يومين ، إن عليها واجبًا أيضاً .

– إنها لن تبقى هنا ، لقد جاءت قبل يومين فقالت إن أمي نالت جزاء ظلمها !! ما شأني ؟ إن من يقع عليها واجب خدمة أمي أكثر ، هي سارة المحببة لديها

– مع هذا .. حاول أن تبقيها معنا ..

– إنها خبيثة، إنها لا تفكر إلا فى مصلحتها.. وقد تبرأت من خدمة أمها وهى تقول : عمير ليس طفلاً صغيراً ، وما تقوله مجرد ذريعة فقط .

– حسنًا .. لنترك هذا الحديث ، سنفعل كل ما نقدر عليه .

– كان الطبيب قد قال إنها يمكن أن تبقى على هذه الحال سنة .. وهكذا سأموت أنا إن شاء الله وأنا أتولى خدمتها .

– لا تهذى بمثل هذا الكلام .. أنت لا تدرين ربما تكون أمى فى انتظار عمر ، ربما بعد مجيئه ..

حقًا ما قاله ، لعلنى فى انتظار عمر ، وهو انتظار من نوع عجيب أيضًا ، وهو إن كان يؤذى قلبى إلا أنه يضىء شعلة الأمل أيضًا ، فيضىء نورها إحساسنًا ، ويحرك القلق فى داخلنا أحيانًا والاطمئنان أحيانًا .. واليوم منذ الصباح شعرت بالإعياء الشديد ، فمنذ عشرة أيام وأنا راقدة هكذا دون حراك ، أطوف دروب الماضى التى لا حصر لها ، ولا يزال صدى صوت الذكريات يتردد حتى الآن .. وعلى درب هذا السفر ، لازمنى الإحساس بالألم أحيانًا ، وأحيانًا أخرى كنت أشعر بالسعادة والهناء .. لم أكن وحيدة ، فعند كل منعطف داخل هذه الدروب صادفت وجوهًا لا حصر لها ، تنادينى ، ألتفت إليها ، وأنعطف ناحية كل صوت ينادى وأتوقف فترة ..

والآن ...

أشعر بتعب شديد لا أدرى كأنه يلم بروحى ، أريد أن أغرق فى النوم لكن شعورى مستيقظ ، لأكثر من مرة يثقل النوم المتقطع قلبى

وعقلى ، لكن فجأة يأتينى صوت عمير فيزيد من الثقل الموجود بداخلى ، كان يقول :

– هل سمعت يا ماهيناز ! على عاتق عمر واجب ضرورى يجب عليه أن يؤديه بأى ثمن ، وسوف يأتى خلال عشرة أيام .

فتحتُ عينى ببطء ، رأيته يمزق رسالة عمر إلى قطع صغيرة ويلقى بها بعيداً ثم يخرج من جيبه سيجاره ويمضى خارج الغرفة ..

– لقد جعل الناس الحياة أمراً صعبًا بعد أن أصابهم الخوف .. فخافوا أن يلمسوا حتى السيجارة ماذا يدريهم هل يمكن أن تصيبنا عادة التدخين هذه بالضعف أو المرض ...

ومن بعيد صارت عباراته غير مفهومة تدريجيًا .. لقد أرسل عمر مبلغًا كبيراً حتى يمكن استكمال علاجى لكنى تحطمت .. ودُق آخر مسمار فى نعشى .. بدأ شعورى يتلاشى وبدأت أفقد الإحساس .. بدأت الستائر تسدل على ذهنى واحدة تلو الأخرى ، حتى صار المنظر أمامى مدهمًا ، وتلاشت الصور ، بعد أن تداخلت الوجوه مع تناقص إحساسى بالوجود ، وشعرت بأن الأركان تخرج تتوالى من جحر عميق بينما البرودة البيضاء والسرعة الفضية تتخذ من وجودى ملاذاً لها ..

غبار أبيض اللون يتراءى على مرمى النظر ..

ثم ...

بدأت سلسلة لا متناهية من السكون تلف كل ما حولى ..

تمت

المريضة

سعادت حسن منتو

من العجيب أنه كلما أرسلت لى فتاة أو امرأة خطابًا دعتنى فيه بالأخ ، مثلما هو الحال فى الخطاب الذى وصلنى مؤخرًا ، متضمنًا أفكارًا مشتتة تخلو من الترابط ، كانت صاحبته تؤكد بإلحاح على أنها مريضة جدًا ، وتثنى كثيرًا على مؤلفاتى ، وتخوض فى أمور متضاربة .

لم أكن أستطيع أن أفهم لماذا هؤلاء الفتيات والنسوة اللاتى يكتبن لى يعانين من مرض ما ؟! ربما لأننى أنا نفسى مريض فى معظم الأحيان ، أو ربما كان هناك سبب آخر لا يوجد غيره ، وهو أنهن يردن إبداء تعاطفهن معى .

لم أكن أسمح لنفسى عمومًا بالرد على خطابات مثل هؤلاء البنات والسيدات ، لكنى سمحت لنفسى أحيانًا بالرد ، فأنا فى النهاية إنسان ، فإذا تضمن الخطاب حزنًا وألمًا صار الرد عليه واجبًا إنسانيًا ، ففى الأيام السابقة وصلنى خطاب طويل إلى حد ما كتبت فيه السيدة التى لم ترغب فى الكشف عن اسمها أنها عاشقة لكتاباتى ، وأنها مريضة منذ فترة ، كما أن زوجها دائم الشكوى من المرض أيضًا ،

وكانت قد أشارت من قبل إلى أنها تعتقد أن ما أصابها من مرض إنما كان بسبب زوجها .

لم أكتب الرد على هذا الخطاب .. لكن خطابًا آخر وصلنى منها كانت تشكو فيه من أننى لم أشعرها بوصول خطابها ، وهكذا وجدت نفسى مجبرًا على أن أكتب لها خطابًا ، لكنى توخيت فى ذلك الحرص الشديد . . أظهرت فى الخطاب تعاطفى معها ، كانت قد كتبت بأنها أشرفت على الموت ، فتأثرت كثيرًا من عباراتها ، وهكذا كتبت لها خطابًا بطريقة عاطفية جدًا ، محاولاً أن أفهمها أن الحياة وهبت لنا حتى نحياها ، واليأس من الحياة يعنى الموت ، فإذا أوجدت فى نفسك قوة الإرادة فسوف تزول آثار المرض عنك ، فأنا نفسى ، منذ أيام مضت كنت فى حالة قريبة من الموت ، ولم يخف جميع الأطباء الذين فحصونى هذا الأمر ، لكنى لم أفكر أبدًا فى الموت، ولم يصبنى اليأس من الحياة فكانت النتيجة هى وقوع الأطباء فى حيرة شديدة ، ولا يزالون هكذا بينما خرجت أنا من المستشفى ، وكتبت لها أيضًا أن قوة الإرادة أمر يجعل من المستحيل ممكنًا ، فإذا كنت مريضة فحاولى أن تؤمنى بأنك لست كذلك ، وأنك بصحة طيبة ، ولا مرض أو علة بك أبدًا !

استنتجت من الرد الذى جاءنى على خطابى هذا أنه لا أثر لنصائحى عليها ، كان ردها طويلاً جدًا ، جاء فى خمس صفحات ...

كان منطقها عجيبًا ، وفلسفتها غريبة ، كانت تصر على أن الله لم يكتب لها أن تعيش طويلاً فى هذه الدنيا ، وقد كتبت أيضًا تطلب منى مؤلفاتى التى ظهرت حديثًا ، فأرسلت لها كتابين ظهرا حديثًا ، وأخبرتنى بوصولهما مع مزيد من الشكر والامتنان والثناء ، الممزوج بمزيد من المدح والإطراء .

شعرتُ بضيق شديد فالكتب التى أرسلتها إليها هى من وجهة نظرى لا قيمة لها ، فقد كتبتها فقط من أجل كسب الرزق ، ومن هنا وجدت نفسي مضطراً لأن أكتب لها أن ثناءها على الكتابين اللذين أرسلتهما لها ، ثناء في غير محله ، فالكتابان محض هذيان ، وعليها أن تطالع كتبى القديمة ، فإن فعلت ذلك اطلعت على حقيقة أفكارى ..

وكتبت فى الخطاب أيضًا أموراً كثيرة عن فن كتابة القصة القصيرة .. بعدها تأسفت على ما فعلت ، فلماذا ارتكبت هذه الحماقة ؟ لو شئت الكتابة عن هذا الموضوع لكتبته فى مجلة أدبية أو صحيفة ، لماذا أكتب مثل هذا الخطاب الطويل المملوء بالأفكار لامرأة لا أعرف حتى شكلها .. على كل حال كتبت الخطاب ، ولما كنت قد كتبته وانتهيت كان علىّ أن أرسله بالبريد ، وهكذا أرسلته..

وجاء الرد عليه فى اليوم الثالث ...

طلبت مؤلفاتى القديمة ، وظلت منشغلة بقراءتها ، لكن مرضها ظل يزيد يوماً بعد يوم ، سألتنى لماذا لا تعالج نفسها عند أحد حكماء الطب القديم، فأجبتها وكتبت لها أن العلاج سواء سعت إليه عند حكيم يمارس الطب القديم أو طبيب يداوى بالطريقة الجديدة ، عليها أن تتذكر أن أفضل معالج هو الإنسان نفسه ، فالإنسان طبيب نفسه .. فإذا تخلصت من الاضطراب الذهنى الذى يعتريها فسوف تعود لها صحتها فى ظرف أيام قليلة . كتبت عن هذا الموضوع محاضرة طويلة أرسلتها إليها ، وبعد شهر وصلنى ردها الذى كتبت فيه أنها عملت طبقًا لنصيحتى ، لكن بلا نتيجة تذكر ، ولهذا فهى قادمة للقائى .. وخلال يومين ستصل إلى بمباى قادمة من حيدر آباد ، وسوف تقيم عندى هنا لعدة أيام !

سيطر عليّ القلق ، واضطربت كثيراً فقد كنت هنا وحيداً ، شبه معدم ، أقيم فى شقة صغيرة تتكون من غرفتين ، ففكرت لو جاءت هذه السيدة ، فسأعطيها غرفة تقيم فيها .. يمكنها أن تقيم فيها عدة أيام إن شاءت ذلك .. وسوف نتدبر أمر علاجها ، لأن أحد الحكماء المعالجين تفضل على بعرض خدماته كرمًا منه !

بقيت على هذا الحال ستة أيام وكأننى معلق فوق مقصلة ، أعانى الأمرّين ، إذا ما طرق موزع الصحف الباب ظننت أن السيدة المحترمة قد شرّفت ، وإذا ما بدأ الخادم عمله فى المطبخ وبدأ يغذى الكانون بالخشب ، بدأ القدر يكرر بما فيه من شدة اللهب ، فتزداد دقات قلبى ظنًا بأن هذا الصوت طقطقة صندل تلك المرأة القادمة من حيدر آباد ..

فى اليوم السابع جلست أقرأ جريدة " تايمز أف إنديا " باطمئنان وسكينة ، أطالع الأخبار ، زاد اطمئنانى لأننى صرت على يقين من أنها لن تأتى ، وبينما كنت أقرأ أخبار الاضطرابات التى نشبت بين الهندوس والمسلمين، إذا بالباب يدق ، ظننت أنه بائع اللبن ، فناديت على الخادم :

– انظر يا عبد الرحيم من بالباب ..

كان عبد الرحيم يعد لنا الشاى ، فترك برّاد الشاى يغلى على النار وخرج ، وفتح الباب ... وبعد قليل جاء إلى غرفتى وخاطبنى قائلاً :

– جاءت امرأة !!

فقلت وقد أصابنى الذهول :

– امرأة !!

– نعم .. امرأة تقف بالباب ، تريد مقابلتك .

فهمت أنها تلك المرأة .. المريضة التي كانت تكتب لي الخطابات فقلت للخادم :

- أدخلها .. أجلسها في الغرفة الكبيرة ، وأخبرها بأنني قادم .

- حسنًا ..

هكذا رد عبد الرحيم وذهب .

وضعت الصحيفة جانبًا ، وبدأت أفكر ، كيف تكون هذه المرأة ، وما نوعية مرضها ، هل هي مصابة بالسل ؟ هل هي مصابة بالفالج ؟ لماذا جاءتني ؟ .. هل جاءت للقائي أم جاءت في الغالب لعلاج ما بها من مرض عند أحد الأطباء هنا... نهضت وذهبت إلى الحمام .. وهناك بقيت فترة طويلة أستحم ، وأفكر في هذه المرأة التي ظلت تكتب لي مثل هذه الخطابات الطويلة ، والتي هي ضحية مرض خطير.. كيف يكون شكلها ؟ كيف تكون صورتها ؟.. مضت في مخيلتي صور وأشكال لا حصر لها ، فكرت في البداية ، ربما تكون "كسيحة" ويجب أن أتصدق عليها بشيء ، وبالصدفة كان اليوم الذي وصلت فيه هو اليوم الثالث من الشهر وقد تبقى معي من راتبي ثلاثمائة روبية بعد دفع قيمة فواتير هنا وهناك ، لهذا لم أشعر بالمزيد من القلق أو الاضطراب ، وقررت وأنا أستحم أنه لو كانت هناك ضرورة لمساعدتها فسوف أعطيها مائة روبية ، لكن طرأت على ذهني فجأة فكرة ، ربما تكون مصابة بالسل ، ولا بد أن أدخلها المستشفي .. لم يكن هذا أيضًا بالأمر الصعب لأن لي بعض الأصدقاء ، يعملون في مستشفى " جيجيه " ولو طلبت من أحدهم مساعدتي في إدخال هذه المرأة المستشفى فلن يتأخر عن تلبية طلبي ...

أخـذت وقـتًـا طـويلاً وأنا أسـتـحـم ، وأفكر فى هذه المرأة ... كنت أشـعـر بالاضطراب الشـديد حين ألتـقى بـالنسـاء ، وهذا هو السـبب فى أننى من نـاحـيـة عقـدت قـرانى وتزوجت، لكننـى من ناحـيـة أخـرى ، ومنذ سنة ونصف ، أفكر فيما قد يحدث لو أحضرت زوجتى هنا ؟! ما حدث قد يحدث ، لكن أكبر مشكلة كانت تؤرقنى وتقلقلنى هى أن من ظلّ طوال حياته لم يقترب من امرأة كيف له أن يقف أمام زوجته ؟!

والآن هناك امرأة بانتظارى ، تجلس فـى الحجـرة المجاورة ، بينما أصب على جسدى إبريق مـاء تلو إبريق .. فقد كنت أهيئ نفسى وأعدها للقاء هذه المرأة .

خـرجت من الحمـام بعد أن أخـذت وقتًـا طويلاً فى الاسـتـحـمـام ، فـاتجـهت إلى الغرفة ، وغـيـرت مـلابسـى ، ووضـعت الزيت على شـعـرى ، وصففت شعرى ، ثم جلست على الأريكة أفكر وأفكر ..

بعد لحظات جاء عبد الرحيم وقال لى :

– تلك المرأة تسأل متى تفرغ مما أنت فيه ؟

قلت لعبد الرحيم :

– أخبرها بأنى قادم بعد دقائق فأنا أغير ملابسى .

فقال عبد الرحيم :

– حسنًا .. حسنًا

أدركت أن المزيد من التـفكيـر مـجـرد فـضـول لا أكثـر ، فـخـاطبت نفسى :

- هيا .. لأقابلها ، لقد تبادلنا الخطابات ، ثم إنها جاءت للقائى من مكان بعيد .. مريضة ، من دواعى الإنسانية أن أرحب بها ، وأكرمها ، وأسرى عنها .

نهضت من فوق الأريكة ، فانتعلت حذائى ، ودخلت الغرفة الثانية حيث تجلس المرأة ، كانت محجبة تماماً ، ألقيت عليها بالسلام ، وجلست فى ناحية من الغرفة.. من وراء برقعها الأسود تراءى لى أنفها العقابى.. كنت أشعر بالاضطراب الشديد ، ماذا أقول لها ، على أى حال بدأت الحديث :

- آسف .. فقد جعلتك تنتظرين طوال هذه المدة .. فى الحقيقة .. هذا بسبب عادة متأصلة ...

فقاطعتنى المرأة قائلة :

- لا داعى للاعتذار .. خذ الأمور ببساطة ولا تتكلف .. فقد اعتدت الانتظار .

لم أستطع أن أفهم شيئًا ، ولم أدرك ما يمكن أن أقول .. فقط رددت ما ورد على لسانى من كلمات .

- من ذا الذى تعودت على انتظاره ؟

رفعت النقاب قليلاً عن وجهها لتمسح دموعها بمنديل رقيق .. وبعد أن جففت دموعها سألتنى :

- ماذا قلت لى ؟

شعرت أن المنطقة أسفل شفتيها ، وهى كل ما شاهدته الآن ، جميلة ، بل حلوة مثل حلاوة المانجو البنارسية ، فحين كشفت النقاب

تمكنت من مشاهدة وجهها للحظة ، لم أستطع الإجابة على سؤالها ، لأنني غرقت تماماً فى هذا الجزء الذى شاهدته حين رفعت نقابها ...

اضطرت هى إلى متابعة الحديث قائلة :

– كنت قد سألتنى عمن أنتظر .. هل تريد أن تسمع الجواب ؟ !

– نعم .. أخبرينى .. لكن لا تقولى شيئًا يعبر عن اليأس والقنوط .

رفعت المرأة نقابها كلية ، فشعرت كأن قمراً بدا من بين سحب سوداء ..

قالت لى وهى تخفض ناظريها :

– ألا تعرف من أنا ؟

قلت لها :

– نعم .. لا أعرف

فقالت :

– أنا زوجتك الذى عقدت عليها ، بقيت أكتب لك ، أخبرك بأننى مريضة ، أنا لست بمريضة لكن إذا جعلتنى أنتظر هكذا فإننى سألقى حتفى بكل تأكيد .

وفى اليوم التالى أخذتها إلى البيت .. فى حفل مهيب .. وأشعر الآن بقمة السعادة والفرح ..

تمت

خرج ولم يعد !

خديجة مستور

ماذا عساها تفعل ، إنها وحيدة ، هل تلقى على رأسها بالحجارة حتى تنجو مما يحيط بها من مصائب ؟! ظلت تخير نفسها بين الحياة التعسة التي تحياها وبين وجودها .. لكن كان هناك ثلاثة أحياء آخرين معلقين في رقبتها .. وكان رفيق يقول إنها سواء ذهبت هنا أو هناك فإن حبة أخرى لم تتفتق بعد ستنضم إلى العقد المعلق في رقبتها !

كان رفيق في عز شبابه يكبت مشاعره مع زوجته ويظل يدعو الله أن ينور بيتها المظلم ببهجة البنين ، لكن الله لم يتقبل دعاءه ، وحين بدأ الشباب ينتهي مثل نهاية جلبة أو ضوضاء ، بدأ يقنط ! ينكر أثر الدعاء والدواء !!

كان أهل الحي يحاولون إفهام رفيق بعد أن يشاهدوا يأسه وبؤسه أن الدعاء له أثره ، فالدعاء يذيب حتى الحجر ، لكن غضبه وصل إلى درجة أنه بدلاً من الدعاء صار يلقي بالأحجار على رأسه

كان حين يرى أهل الحي يلعبون مع أطفالهم وصغارهم يندفع إليهم، يداعبهم ويحتضنهم ويقبلهم ، ثم فجأة ينزلهم من على صدره وكأنه يُسقط شيئًا على الأرض .

إن محبته الشديدة للأطفال جعلته يغضب من الدنيا وما فيها ، وفى يوم من الأيام ، وبينما كان يمضى فى الحوارى غاضباً ، وكان الأطفال الذين يلعبون يثيرون فيه مكامن الغضب ، إذا بزوجته تقبل عليه ، وهى تضع طرف "طرحتها" فى فمها ، وتخبره على استحياء بأن الله استجاب لدعائه .

غمره السرور بعد أن اقتنع بأثر الدعاء .. لكن حين ظهر أثر دعائه الثانى فى العام التالى ظل يقفز ويقفز فرحاً كأنه طفل ، وخر ساجداً شاكراً لله على استجابته لدعائه ، ووصل به الفرح إلى درجة أنه لم يكن يعط بالاً لأحواله المتدهورة .. لم يدرك أيضاً بأنه مع تقدم العمر تتعب أرجل الإنسان وتنهك قواه ، كما أن تربية هؤلاء الصغار تحتاج إلى فترة من الزمن ، وهى الفترة من الزمن كفيلة بإفناء " زكائب " الروبيات .

حين كان فى زمن شبابه كان يعمل ويكد ، فجمع هو وزوجته ثروة طيبة ، تعينهم اليوم على الإنفاق ، نظراً لأنهم يفتقدون الحصول على دخل ثابت هذه الأيام ، ورغم أن مبلغ مدخراتهم كان يكفيهم إذا ما عاشوا حياة معقولة ، لمدة سنة ، لكن تدبير الزوجة واقتصادها فى الطعام والنفقات الأخرى مد فى عمر هذا المبلغ المدخر ، فكانت تتحمل فى صمت كل أنواع المصائب ، دون أن تخبر زوجها بشىء البته ، وفى النهاية لم يخف عليها كيف كان زوجها يحاول السعى فى طلب الرزق ، لكن مما يوزع على الناس من الصدقات ومن أهل الخير ، فقد كانت تعرف أيضاً أن زوجها يعانى من وجع المفاصل ، لهذا لم تكن تتحدث إليه أبداً ، لكن ماذا عساها تفعل الآن .. لقد بلغ السيل مداه ! .

لقد ظلت تعجن الدقيق وتخبز الخبز لإطعام الأفواه الجائعة ، وتملأ البطون الفارغة ، وحين أخبرت زوجها بأن شيئاً ما لم يعد موجوداً

فى البيت ، اضطرب رفيق .. وغرق فى التفكير ، وتراءت له سحب سوداء تحولت إلى ظلمة داكنة ، ظهر له من خلالها صور وأشكال لنساء قبيحات مشاكسات يتراقصن أمامه ..

حين خرج من باب كوخه المصنوع من القش ، وجد نفسه وسط الدخان المنبعث من حرق قرص روث البهائم الجافة فى الأكواخ المحيطة ..

بدأت الآلام المكبوتة تنبعث من صدره .. ماذا عساه يفعل الآن ؟ لو لم يستطع أن يطعم أولاده فإنه سوف يربط على الدوام حجراً على بطنه .. ظل يحرك فى يأس ناظريه هنا وهناك ، فى هذه المنطقة المملوءة بالأكواخ المصنوعة من القش كان كثير من الناس يعرفونه جيداً لكن أحداً منهم لم تكن تربطه به علاقة صداقة ، ثم إنه حتى اليوم لم يمد يده لأحد ، لهذا لم تطاوعه نفسه فى أن يطلب من أى متجر أو بقالة دقيقًا أو أرزًا على الحساب !

كان هناك أحد البقالين ربطته به معرفة خاصة ، بسبب قيامة صباح كل يوم بالجلوس أما دكانه فيقرأ له الصحيفة اليومية بلغة مكسرة ، كان البقال نفسه لا يعرف القراءة ، لكنه كان يشترى الصحيفة كل صباح ، فقد كان شغوفًا بالاطلاع على أخبار الحوادث مثل الخطف والقتل والشجار وأسعار المنتجات فى الأسواق ، وكان يقوم بشكل خاص بالترحيب بكل من يطالع له مثل هذه الأخبار ، وكثيراً ما كان يصيبه اليأس حين يشترى الصحيفة ولا يجد من يقرأها له ، وكان رفيق يحب أيضاً قراءة الأخبار لهذا انعقدت بينه وبين الشيخ صداقة من نوع خاص .. لكن فى هذا الوقت بالذات ، وبالصدفة ، كان دكان البقال مغلقًا ، وإلا فرفيق كان على يقين من أنه سيقترض بعض ما يريد من دكان البقال ،

فالبقال لن يرفض أن يقرضه القليل جداً من دكانه العامر بالبضائع ، فقد كان يساعد البقال أيضًا فى أعمال البساطة البسيطة بالإضافة إلى قراءة الصحيفة اليومية .. وهكذا وقف رفيق وبدأ الانتظار على أمل أن يفتح البقال دكانه . . وفى العاشرة صباحًا جاء البقال ليفتح الدكان متأبطًا الصحيفة المطوية كالعادة ، ثم أمسك بالصحيفة وجلس على كرسيه الخاص بأرجله الأربعة غير المستوية ، وكان إذا ما جلس واستوى عليه وتحرك قليلاً ، ظن كأن زلزالا يحركه !

بدأ رفيق قراءة الصحيفة ، دون أن يشعر برغبة فى ذلك ، ظل أكثر من مرة يخطئ نطق الكلمات فيعيد هجاءها من جديد .. وفى النهاية وبعد الفراغ من القراءة طأطأ رأسه وجلس صامتًا ، بينما بدأ البقال يعيد ترتيب دكانه ، ويراجع حساباته ، وبعد قليل وفى النهاية أفصح رفيق عن طلبه .. فى البداية تلعثم البقال دون أن يجيبه لكن حين أكد له رفيق أنه سيعيد القرض فى المساء ، وزن البقال رطلين من الدقيق وربع رطل من العدس .. وبينما كان البقال يربط كيس الدقيق خاطب رفيق بلهجة ممزوجة بالتحذير قائلاً إن دكانه هذا دكان صغير وهو لا يستطيع أن يعطى أحدًا على الحساب لعدة أيام ..

تركت هذه الكلمات أثرها فى نفس رفيق وأثارت غيرته ، وهزت من كبريائه لكن ماذا كان يمكنه أن يفعل ؟! كيف يمكن أن يرى أولاده يعانون ألم الجوع ؟ وكيف يمكنه أن يسمح بأن تفلت اللآلئ الحقيقية من يده وتسقط فى الماء ؟!!

دخل إلى البيت، وألقى على زوجته السلام ودفع كيس الدقيق إليها ، وخرج دون أن يسمع منها كلمة واحدة ..

ظل يتجول لعدة ساعات، يعاني ألم الجوع ، وبعد البحث عن عمل ، عرف جيداً أن إطعام أولاده صار أمراً عسيراً عليه ، والحصول على الحلوى والفاكهة صار أمراً صعب المنال .. لقد وجد عملاً في سوق الخضار بعد بحث طويل ، تناول أجراً زهيداً لا يزيد عن اثنتى عشرة " آنة " ، يتطلب منه العمل أن يقطع مسافة نصف ميل حاملاً صندوقًا مملوءًا بالخضروات ، يجلبه من سوق الخضار إلى أحد الدكاكين .. حين وصل حاملاً آخر صندوق شعر بأن رأسه مثل قرن الثور الذى يحمل الكرة الأرضية ، وحين يتعب يضعها على القرن الثانى ، عندها يحدث الزلزال فى ركن من أركان الدنيا .. أدرك رفيق أنه لو تقاعس وأنزل الصندوق من على كتفه فلن يناله سوى الجوع والدموع ، أما الثور فله قرنان ، حين يتعب أحدهما يستبدله بالآخر ، ورفيق له رأس واحدة ، وفى جميع الأحوال عليه أن يستمر فى رفع هذا الحمل ...

وصل إلى البيت بعد أن أعطى البقال الاثنتى عشرة " آنة" كان الألم يعتصره من داخله ، فبعد هذا العمل الشاق الطويل لم يستطع أن يحضر لأولاده قطعة حلوى يمضغونها أو "مصاصة " يمصون حلاوتها !

كان مضطراً إلى البقاء فى البيت ، قبع فى صحن البيت مكسور الخاطر ، متمدداً على أريكة بدت كأنها معلقة فوق الأرض ، أدرك ولداه أن هذا كان أول يوم غاب فيه والدهما عن البيت طوال اليوم ، لهذا شرعا فى الصياح فرحًا وسروراً بمقدمه وأخذا يصعدان وينزلان فوق بطنه وعلى ركبتيه ، ثم أخذا يصدران صوت طقطقة ، يطلبان من أبيهما أن يلعب معهما " لعبة الحصان " لكن الأب لم يكن مستعداً لأن يضعهما على ظهره ، ويدور بهما فى صحن البيت ، ومع هذا صار يقلد فقط

صهيل الفرس حتى يدخل السرور على قلب ولديه ، وحين بدأ الولدان يظهران عدم الرضا حاول أن يفهمها أن الحصان صار عجوزاً ، والحصان العجوز بحاجة إلى الراحة ، فغضبا وتركاه ، وانشغلا بالنظر إلى السماء في صمت حيث كانت أسراب لا تحصى من الطيور تفرد أجنحتها محلقة على ارتفاع شاهق .

ربما كانت زوجته قد فهمت كل شيء ..

نهضت دون أن تسأله عن شيء وبدأت توقد النار ، بينما كان رفيق مشغولاً بتدليك قدميه ببطء .. في صمت .. فعمل اليوم الشاق أعاد إلى مفاصله الآلام القديمة .

حين رقد في فراشه ليلاً ، أخذ يمرر يده على رأس طفليه النائمين بجواره ، وأخذ يتمتم بصوت غير مسموع :

– غداً سأحضر لهما قطع الحلوى ، سأحضر لهما مصاصة ، سأحضر لهما الحليب والقشدة و ... لا لن أحضر الحليب والقشدة ..

ثم فغر فاه في حركة مفاجئة ، وأغلق عينيه ..

لم يتمكن من الاستغراق في النوم بسبب الآلام الشديد في مفاصله ، لكن حين بدأت زوجته تدلك له قدميه ورجليه ببطء ، غرق على الفور في نوم عميق .

في الصباح أخذ من البقال الدقيق والعدس على الحساب ، وقد أعطاه البقال اليوم هذه المئونة بوجه بشوش .. لعله اطمأن ، فرفيق لن يماطل في سداد ما عليه من دين ، وهذا ما حدث ، فبعد أن أدى رفيق عمله ، ونقل صناديق الخضار من السوق إلى المحلات، نال أجره روبية ،

فأعطى البقال حسابه ثم اشترى لولديه قطع الحلوى التي يتلذذ الأطفال عادة بمضغها أو مصها ، وعاد إلى البيت .. لقد نقل اليوم كمية أكبر من الصناديق ، لهذا يشعر بألم شديد في مفاصله . ورغم هذا كان يشعر بسرور غريب وهو يناول ولديه الحلوى ، ويسلم زوجته ما تبقى من أجره .. لم يلق أي اعتبار لما أصابه من تعب أو ألم ، جعل من نفسه حصانًا ، ركب الطفلان ظهره ، ولم يسمحا له بالسير دون سماع صوت الطقطقة ، وبعد قليل أنزلهما من على ظهره مما أثار غضبهما معًا .

وهكذا مضت الأمور على نفس النسق .. يخرج رفيق في الصباح الباكر ، ليصل إلى البقال ، فيقرأ عليه أخبار الخطف والسرقة والشجار والاضطرابات ، ثم يحمل الدقيق والعدس إلى البيت ، ثم ينطلق بعدها إلى سوق الخضار ، وهو ينقل الآن ستة صناديق دون اعتبار لطاقته الجسدية ، وحرارة الظهيرة الحارقة ، فلم يكن يستطيع أن ينال أي قسط من الراحة في بيته .

لم يستمر هذا الحال أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ، فقد أصيب رفيق بالحمى الشديدة مما اضطره للبقاء في السرير لعدة أسابيع ، وفي أيام مرضه ظل البقال يأتيه في البيت بمئونة الدقيق والعدس ، والأعشاب الطبية أيضًا ، كل هذا على الحساب !! أما دواء الحكيم فكان يدفعه من المبلغ الذي كان يعطيه لزوجته لتدخره ، وإلا فالحكيم لا شأن له بأمور السلف، أو العلاج على الحساب ، فكيف يحصل على حقه، ثم إن الحكيم يعمل في العيادة حيث ينزل عليه المرضى كالمطر ، والحكيم عادة يقول :

– أحضر الحقنة ، فأنا أعالجك ، أتراني أفتح صندوقًا لجمع التبرعات لشراء كفنك !

كان عند رفيق الحقن اللازمة للعلاج ، وهكذا تحسنت صحته ، لكن الدين الواجب سداده للبقال كان دينًا ثقيلاً يصيب الإنسان بالفتاق .. كان رفيق يرتعد كلما تذكر هذا الدين ، وظل طوال الوقت بعد قيامه من السرير يفكر فيم سيفعل لسداد هذا الدين ، فلا تزال ركبتاه تعانيان من ورم خفيف ، ووصلت حالته من الضعف درجة لا يستطيع من خلالها أن يحمل شيئًا ، ومع هذا ظل يظن أن حالته ستتحسن خلال عشرة أيام ، فيذهب إلى سوق الخضار .

لو كان شابًا لعادت إليه طاقته ، ولما احتاج إلى وقت طويل حتى يسترجع قوته ، لكن تقدم العمر ، والطعام المتواضع الذى يتناوله ، بعد أن يقترضه من البقال جعله يدرك أنه سوف يعيش بالتأكيد عاطلاً طوال حياته .. حين كان يذهب إلى دكان البقال ليقرأ الصحيفة كان يشعر بدوار شديد بينما يعاوده ألم المفاصل الشديد ، فيعود إلى البيت ويرقد فى الفراش ، مخفيًا وجهه عن الأنظار ، ثم ينظر إلى ولديه ، وتسيطر عليه فكرة الخراب الذى سيحل ببيته ، فينخرط فى البكاء ..

كان من الضرورى جداً أن يؤدى واجب الذهاب يوميًا إلى دكان البقال حتى يطمئن البقال إلى أنه سيؤدى ما عليه من دين ، وكان إذا ما فكر فى أن يرسل ولده مكانه يخشى أن يغضب البقال ، فرفيق بالنسبة للبقال مثل بقدر السمن بالنسبة للبخيل ، فسواء أكل منه أم لم يأكل ، فهو مطمئن لوجود القدر على الرف ، وهكذا كان الشيخ مطمئنًا فيما يتعلق بالدين الواجب على رفيق ، بينما كان رفيق يرى فى هذا الاطمئنان دليلاً على صداقة البقال الحميمة وكرمه ، لكنه حين ذكر ذلك للبقال ، مشيراً إلى أن الدين زاد عن الحد ، أخبره البقال أنه لا يهتم

بأمـر الدين ، فـفى الوقت المناسب ، وإذا اضطرته الحـاجـة إلى طلبـه ، وجب على رفيق أن يسلم البقال أرض بيتـه ، هذا هو مفـهوم " الصـديق عند الشدة " ..

والآن ومنذ ذلك اليوم الذى كشف فيـه البقـال عن مفـهوم كـرمـه ، وظهـر على حقيقتـه ورفيق يشعر فى كل وقت أن لباسـه أيضًا يتـمزق ، وأن زوجتـه تجلس فى الشارع ينظر إليها النـاس باحتقار ، بينما أطفاله يهرعون إلى حضن أمهم يختبئون بعد سماعهم نباح الكلاب !

صبـاح اليـوم حين اضطر رفيـق إلى الذهاب إلى دكـان البـقـال ، لإحضـار الدقيق والعدس ، وبينمـا كـان يطالع الصـحـيفـة تسمرت عيناه على إعـلان " خـرج ولم يعـد ! " تضـمن الإعـلان وعـداً بتـقـديم مـبلغ خمسمـائة روبية مكافـأة لمن يدل على الطفل الغـائب الذى خرج من بيتـه ولم يعد .. بدأ يفكر لو أنه وجد طفلاً ضائعًا من أهله، فإن جميع متاعبه ستنتـهى ، وسوف يستعيد ذكرياته الطيبة ، وينقذ أيضًا بيته الذى يطمع فيه البقال ، ويستعيد قوته ، ويطعم أولاده ألذ الأطعمة ، كما أنه سيصير قادراً على العمل ، فالخبز الجاف لا يمنحـه الطاقة والقدرة على العمل .. ليته يجد طفل أسرة غنيـة جداً ، فصاحب الإعلان ذكر أن الطفل التائه من أسرة فقيرة ، ولهذا لا تستطيع أن تدفع مكافـأة أكثر من خمسمـائة روبية .. لو وجد طفل أسرة غنية ، فكم ستكون المكافأة ، ألا يمكن للرجل الغنى أن يقدم أى شىء من أجل ولده؟!

رجع رفـيق إلى البـيت وذكر لزوجتـه – كأنه يذيعـهـا سراً دفـينًا – حكاية المكافـأة ، وطلب منهـا أن تدعو الله كثيراً حتى يوفقه فى العثور على طفل تائه .. لكن هل الطفل التـائه يصل إليـه هكذا وهو جـالس فى

بيته ؟! هكذا فكر ثم نهض ومضى يدور فى الحوارى والشوارع الفسيحة ، وكان كلما شعر بالدوار أو بألم فى مفاصله جلس فى مكان ما يلتقط أنفاسه ، كان يحملق في كل طفل لعله يكون قد ضل طريقه إلى بيته ، ويحملق فى وجه كل طفل لعله يرى على وجهه إمارات الحيرة أو القلق !!

كان كلما شاهد طفلاً وحيداً يبكى يتجه إليه ، لكن قبل أن يبادره بالحديث يجده قد دخل فى أحد البيوت، أو جاء من يحمله على كتفه ، فيصيبه اليأس ، وهو ينظر ناحية الطفل متنهداً .. ومع هذا ظل الأمل يراوده ، فطبيعة الأطفال شريرة ، ولعل طفلاً يخرج من بيته وحيداً فيمضى بعيداً ويتوه فى الحوارى فيكون صيداً ثميناً .

واليوم بينما كان يمضى فى شارع واسع بحثًا عن طفل تائه ، جذب انتباهه جلبة وضوضاء ناحية إحدى "الفلل" ربما كان حفل زواج ، كانت الاستعدادات لإقامة سرادق للحفل تجرى أمام "الفيلا " وكانت موائد الطعام تجهز وتوضع حولها كراسى المدعوين ، بينما كانت الموسيقى تعزف ، والأطفال الذى ارتدوا ملابس ثمينة فضفاضة يجرون هنا وهناك .. توقف رفيق عند بوابة الفيلا وبدأ يفكر حين يتزوج أولاده ، هل ستعزف لهم الموسيقى فى حفل زواجهم ؟! وهل سيوزع " الشربات " والحلوى ، وهل سيصنع للعروس فستان زفاف غال وطرحة طويلة تجرجر من خلفها ؟! وبينما كانت هذه الأفكار تموج بداخله تذكر فجأة البقال الذى قفز على خاطره كأنه عفريت ، فارتعدت مفاصله ، وانهمرت الدموع من عينيه ..

لم يكد يجفف دموعه حتى شاهد طفلين صغيرين يجريان خارجين من بوابة الفيلا ، كان الطفل الأكبر يمسك بيد طفلة أصغر منه ،

بدأ الطفلان فى الشجار ، فاتجه رفيق ناحيتهما بسرعة وحاول أن يصلح بينهما ، أمسك بالطفل ، لكنه تمكن من الفرار ، بينما حمل رفيق الطفلة الصغيرة التى كانت تبكى ، ووضعها على صدره محاولاً تهدئتها وهو يربت على ظهرها :

- ما اسمك يا صغيرة ؟

هكذا سألها رفيق بعد أن رفع رأسها عن صدره .

- تـ.. ا .. تا .. هكذا تمتمت الطفلة بحروف لم يستطع رفيق أن يفهم منها شيئًا

وبينما كان يربت على صدرها بحنان ، راودته فكرة ! ماذا لو سرق هذه الطفلة؟ لكن السرقة حرام ! هكذا أنبه ضميره الخيّر ، لكن عفريت البقال تغلب على نزعة الخير بداخله ..

اضطرب رفيق وأخذ يتلفت حوله كاللصوص ، شعر كأن عيون أى قادم فى الشارع مصوبة ناحيته ، وأن أى قادم يعرف نيته ، لكن حين مضى الناس ، وخلا الطريق منهم اتجه رفيق بسرعة حاملاً الطفلة على صدره إلى حارة جانبية ، ومنها إلى حارة أخرى ، وظل يمضى فى الحوارى المتداخلة إلى أن وصل إلى بيته . . كانت الطفلة غارقة فى نوم عميق، عند وصوله إلى البيت اندفعت الزوجة ناحيته كأنها طفلة صغيرة..

- أهذه طفلة تائهة ؟! أين وجدتها ؟ يبدو أنها من أسرة ثرية !

- نعم تائهة ، ابنة رجل غنى جداً .

لم يشأ أن يخبر زوجته بحقيقة الأمر ، فقال :

– هيا .. أعدى لها فراشًا ، اجعليها تنام فى هدوء ، وجهى المروحة ناحيتها ..

نطق بهذه العبارات فى سعادة غامرة ..

اندفعت الزوجة تحضر وسادة ، ثم حملت الطفلة من حضن زوجها، وضمتها للحظات إلى صدرها ثم وضعتها بهدوء على الفراش ، ووجهت إليها المروحة .. ووقف الزوجان يتطلعان معًا إلى ملابس الطفلة الزاهية .

– سوف أشترى لكما ملابس جديدة وأحذية جديدة أيضًا .

نطق رفيق بهذه العبارة ، وهو يمسك بقدمى ابنيه ، يضغط عليهما، يدلكهما فى حنان ، ثم قال لزوجته :

– عليك البقاء بجوار الطفلة ، لا تتحركى ، حتى لا تخاف الطفلة إذا ما نهضت ووجدت نفسها وحيدة، سوف أدبر أمر طعامها وشرابها ، علينا أن نطعمها طعامًا طيبًا ..

ثم خرج مسرعًا . .

طلب من البقال خمس روبيات ، فنظر البقال ناحية بيت رفيق نظرة لها معنى ، ثم أعطاه المبلغ فورًا ، فالبقال منذ مدة يقيم مع زوجته وأولاده فى بيت بالإيجار ، لهذا لم يرفض أن يعطى رفيقًا ما طلب طمعًا فى الاستيلاء على أرض بيت رفيق .

اشترى رفيق الحليب والأرز وما إلى ذلك من لوازم " المهلبية " وفى الساعة الثانية عشرة أشعلت الزوجة النار وأسرعت تعد المهلبية ، وحين انتهت اندفع رفيق إلى السوق فاشترى قليلاً من الحلوى ،

وفى تلك الأثناء استيقظت الطفلة ، وبدأت تبكى ، عندئذ وضع الحلوى فى فمها فسكتت لفترة ثم بدأت تبكى ، وهى تنظر إلى الجميع نظرات شك وريبة ، حين أكلت الحلوى حملها رفيق على صدره وبدأ يصدر نغمات عجيبة حتى يسكتها ثم خاطب ولديه قائلاً :

- هيا .. صفقوا بكل قوة .

عندئذ سكتت الطفلة ، لكنها عادت للبكاء حين توقف التصفيق ، عندها وضع رفيق طبق المهلبية أمامها فسكتت ، ثم بدأت فى التهام الطبق بسرعة غريبة ، بينما كان رفيق يجلس بجوارها يتطلع إليها فى حب ، لكن رفيق انتبه حين وجد أولاده واقفين فى صمت فقال لزوجته :

- ألم تقدمى المهلبية للأولاد .. قدمى لهم المهلبية .

ثم صمت فجأة ، فنهضت زوجته مبتسمة ، وقدمت لولديها نصيبهما من المهلبية .. توقفت الطفلة عن البكاء بعد أن التهمت المهلبية لكن العجيب أن طابع المسكنة بدا واضحاً على وجهها .

- هل تشعرين بالجوع يا بنيتى ؟ انظرى كيف تجلس فى هدوء !

خاطب رفيق زوجته بسرور .

- نعم لكن ما أدرانا أن هذه الفتاة الثرية قد أعجبتها المهلبية ؟

- هيه يا صغيرتى .. هل أعجبتك المهلبية ؟

هزت الطفلة رأسها بالإيجاب .

- ما اسم أبيك ؟

سألتها زوجة رفيق .

- با .. با ..

هكذا تمتمت الطفلة بحروف متقطعة بـ .. بـ با ، فانفجر رفيق وزوجته في الضحك .

- ماذا يعمل أبوك ؟

حاول رفيق أن يربت على كتفيها .وكأنها يستنطقها الجواب

- با .. با .. اوه ! با.. با .. م..اء أولاً ثم نســمع "اللاديو" ثم "هلوى" با.. با ..

سمـع رفيـق الطفـلة تتمتم بمثل هـذه الكلمات فانفجر ضاحكًا وهو يقول :

- هذا شأن الأغنياء في هذه الدنيا ، ينهضون من الفراش فيأكلون ويجلسـون ثم يأكلون ، والخلاصة أنهم يأكلون وهم نيـام ويأكلون وهم مستيقظون .

نظر رفيق إلى زوجته وهو يوجه إليها كلامه ثم انفجر مقهقهاً .

اليوم يشعر بألم عادى في مفاصله ، لكنه كان مسروراً ، فإذا كان قد فقد الثروة من قبل فإنه حاصل عليها لا محالة .

- هل تلعبين لعبة " الحصان " ؟

سأل رفيق الطفلة ، فظهر السرور على وجهها فجأة ، وهكذا وبناء على رغبة الطفلة ، نهض رفيق ووضع نيل ردائه في فمه ، وحمل الطفلة على ظهره ، وبدأ يدور بها في صحن البيت ، بينما كانت تقهقه بصوت عال ، وحين أصابه التعب أنزل الطفلة بينّما ظهرت علامات الورم على ركبتيه .

– لا بأس .. لا بأس ، لا أشعر حتى بأدنى تعب ..

قال هذا وهو يشاهد علامات القلق على وجه زوجته ..

ظلت الطفلة فيما بعد تلعب مسرورة ، لكنها بدأت تبكى فجأة مع حلول الظلام، فقامت زوجة رفيق بإطعامها بالقوة قطعة من " البسبوسة " وحملتها إلى صدرها ، وظلت تهدهد عليها لفترة طويلة ، لكنها لم تكن لتسكت إلا حين أعياها البكاء ، ونال منها التعب مبلغه ، فغلبها النعاس .. ومع نوم الطفلة خيم السكون على البيت كله ، بينما ولدا رفيق يحاولان فهم ما حدث ، وقد جلسا يوجهان المروحة إلى الطفلة النائمة حتى لا تشعر بحرارة الجو فتستيقظ ، فمن يدرى كيف تعيش هذه الفتاة فى بيتها الفاخر .. أما رفيق فكان يدور حول الطفلة لا يقر له قرار بأى حال من الأحوال ..

لو نال مكافأة تصل إلى ألف روبية فإن جميع مشاكله ستنتهى ! هكذا بدأ رفيق يتحدث مع زوجته .. ثم سألها :

– كم يومًا تكفينا الألف روبية ؟!

– يمكننا أن نعيش لمدة خمس أو ست سنوات إذا ما أكلنا الخبز والمخلل !

هكذا أجابت الزوجة بعد أن فكرت قليلاً ، ثم بدأت تخاطبه بصوت منخفض :

– الأولاد الآن بلغوا عامهم الثامن أو التاسع ، وسوف يشتد عودهم ويريحونك ، فلن تكون لديك قدرة على العمل فيما بعد ..

– نعم .. نعم .. لم لا ؟!

ثم اقترب من زوجته وقال لها :

– موسم الشتاء على الأبواب، يجب علينا أن نصلح من حال بيتنا ، لو نلنا مكافأة أكبر ، أعدنا بناءه .

– نعم .. ضرورى ، يجب أن نحافظ على البيت فسوف يتزوج فيه ولدانا فى يوم من الأيام ...

– إذن أخبرى عامل البناء حتى يبدأ العمل فى إصلاح البيت من الصباح ، فالبقال واضع عينيه على بيتنا هذا .. آه هذا الخبيث ستحرقه نيران الغيرة .!

– سأخبر العامل صباحًا ..

– لا .. بل الآن سوف أطلب منه الآن أن يقوم بإصلاح البيت .. هذا البقال الخبيث ..!

نهض رفيق وهو يضغط على قدميه .. ثم خرج من البيت ..

ذهب وأخبر عامل البناء ، ثم عاد ورقد فى فراشه صامتًا ، يحاول أن يستجلب النوم ، لكن كيف يأتيه النوم ؟! قضى الليل ساهرًا ، وفى الصباح وجد نفسه واقفًا أمام دكان البقال .. كان الدكان مغلقًا ، لهذا اضطر إلى الانتظار حتى جاء البقال متأبطًا كالعادة الصحيفة .. أخذ رفيق يطالع بسرعة غير عادية العناوين الرئيسية ، كان الإعلان عن الأطفال التائهين فى الصفحة الأخيرة ، كانت أوصاف الطفلة مذكورة فى أحد الإعلانات ومعها العنوان كاملاً .. جاء فى الإعلان أيضًا أن من يجدها سيمنح مكافأة تسره . .. تسارعت دقات قلب رفيق من الفرح ..

أعاد الصحيفة إلى البقال ، وهو يطلب منه أن يقرضه خمس عشرة روبية ، فتسمر البقال في البداية لكنه لم ينطق بكلمة.. أخذ رفيق المبلغ ، وأسرع إلى البيت ، فأخبر زوجته هامساً بأن الإعلان عن الطفلة ظهر في الصحيفة ، فسألته زوجته متحرقة لمعرفة الجواب :

- كم مبلغ المكافأة ؟

- جاء في الإعلان أن من يجدها سيحصل على مكافأة تسره .

تطلع رفيق ناحية السماء ، ورفع كلتا يديه وهو يقول :

- يا الله ! ادخل السرور على قلبها ..

وبعد الدعاء أغلق عينيه بطريقة عجيبة، فسقطت دمعتان من عينيه ، سالتا على خديه .

أسرعت زوجة رفيق ، فأعدت للطفلة طعام الإفطار ثم أعطتها حماماً دافئاً ، ومشطت شعرها ، ثم قدمت لها ما أعدته من الطعام وهيأتها للخروج .. خرج رفيق من البيت ، وأجلس الطفلة على عربة " حنطور " ثم سلم الحوذي العنوان ، وطلب منه أن يمر أولاً على محل لعب الأطفال ، وحين توقفت العربة عند محل لعب الأطفال نزل رفيق واشترى مجموعة من اللعب ، كلفته عشر روبيات .. حين شاهدت الطفلة اللعب ، ظهرت علامات الفرح على وجهها وأمسكت بذيل ثوبها ، ووضعت مجموعة اللعب في حجرها ، وانحنت عليها كأنها تخشى من يسلبها إحداها . .

شد الحوذي لجام فرسه فتوقفت العربة أمام الفيلا .. فغر رفيق فاه .. بينما ظلت عيناه مثبتتين على "الفيلا " .. يا لها من " فيلا ".. بدت كأنها

سفينة تقف وسط الماء .. أخذت رجلاه ترتعشان من شدة الفرح ، حمل الطفلة بصعوبة ، وأنزلها من العربة ، بينما الطفلة تحاول أن تخلص نفسها منه ، بعد أن شاهدت المكان الذى اعتادت أن تعيش فيه .. لم يكد رفيق يقطع المسافة داخل حديقة الفيلا حتى استجمعت الطفلة كامل طاقتها وفلتت من حضنه ، وجرت بسرعة وهى تصدر أصواتًا عجيبة من شدة الفرح ، جرى رفيق خلفها ليمسك بها ، لكن سيارة كبيرة فخمة دلفت من بوابة الفيلا ، فتوقف رفيق ، أما الطفلة فكانت مثل " فص ملح ذاب " ، غابت عن الأنظار داخل الفيلا .. تأسف رفيق كثيراً لأنه لم يستطع أن يحمل الطفلة وهى محملة باللعب إلى والدها الباشا ، فانتظر عند السلالم المؤدية إلى مدخل الفيلا .

لم تكد تمضى لحظات على جلوسه حتى جاءه رجل يرتدى لباسًا أبيض من رأسه إلى أسفل قدميه ، سأله :

– هل أنت الذى أحضرت " تهمينه " ؟!

– نعم يا سعادة الباشا..

هكذا أجاب رفيق ، فضحك الرجل قائلاً :

– سعادة الباشا يطلبك ، تفضل .. أنا خادم الباشا ..

– حسنًا .. حسنًا يا أخى .

– هيا .. أسرع !

هكذا بادره الرجل غاضبًا وقد رآه يبطئ فى الوقوف ، فتمالك رفيق نفسه بصعوبة شديدة ..

الآن يقف رفيق أما سعادة الباشا ، وسط غرفة يعجز عن وصف ما بها من أثاث فاخر ، لم يسمع عنه فى حكايات أمراء ألف ليلة وليلة ، ولا في حكايات الحور ..

نظر الباشا إلى رفيق من أعلى إلى أسفل ، فشعر رفيق بالأسى لأنه لم يهتم بملابسه ، وتأسف لأنه لم يطلب من زوجته أن تغسلها ، ليته فعل ذلك ، ما كان ينبغى له أن يأتى إلى بيوت الناس " النوات " هكذا بملابس قذرة.

– أنت الذى أحضرت الطفلة ؟!

– نعم يا سيدى ، فقد وجدتها تبكى فى الشارع .

– نحن مسرورون منك ، لقد أديت لنا خدمة طيبة ، ذهبت الفتاة مع زوجتنا لحضور حفل زواج ، وهناك خرجت إلى الشارع ....

– سيدى .. أنا ...

قاطع رفيق الباشا بصوت متهدج من الفرح .. لكن الباشا قال :

– إن والد الطفلة فقد وعيه بالأمس حزنًا وخوفًا عليها ، وهو رئيس الطهاة عندنا ، لهذا واجهنا صعوبة فى ترتيب أمر الطعام .. لقد أديت لنا خدمة طيبة .. هذه مكافأة لك ..

وضع الباشا " خمس روبيات " في يد رفيق ، ثم اختفى خلف ستائر الغرفة ! !

تمت

درب الحياة

الدكتور عاشق حسين بتالوى

قضيت اليوم بطوله من الصباح في خدمة ضيوفي الذين قدموا إلى بيتى اليوم ، وعند العصر على وجه التقريب تمكنت بصعوبة من توفير وقت للقراءة ، وأخذت أمارس هذه الهواية حتى حلول الظلام ، ولهذا أضعت الوقت المخصص للنزهة في الهواء الطلق ، وهو عادة ما يكون بعد العصر .. حين أضأت المصباح شعرت بعدم الرغبة في مواصلة قراءة الكتب ، فاتجهت إلى تصفح جريدة " الفطرة " وهكذا خرجت من بين الجدران الأربعة أتمشى قليلاً ، ولم أكد أخطو خطوات قليلة حتى شعرت بأن هناك من يسير خلفي ، ثم يربت على كتفي بهدوء ..حين التفت وجدت رجلاً نحيفاً ممشوق القوام ، في ملابس رثة ، ونظراً لأن الظلام كان قد بدأ يغطى كل شىء ، فقد استغرقت وقتاً للتعرف عليه ، لكن حين سمعته يناديني باسمي ، شعرت بصوته المألوف عندى ، لا يمكن إلا أن يكون هذا هو صوت " أصغر " ..عندئذ شهقت وقد تملكتني الحيرة :

– أصغر !!

– ..

اندفعت أعانقه .. وبعد طول عناق ، بادرته بالسؤال عن حقيقة مظهره هذا الذى جعله يبدو أمامى مثل شخص آخر لا أعرفه .. وضربته على ظهره بالطريقة العفوية القديمة التى تعودنا عليها أيام الدراسة قائلاً :

– أ أنت بخير ؟ ماذا فعلت بنفسك .. أى حال هذه ؟ لولا أنك نطقت باسمى ما عرفتك .

قال متململاً :

– كنت قادمًا من ملتان ، وفى الطريق سرقت حقيبة ملابسى ..

وبدلاً من أبدى تعاطفًا معه لما أصابه ، صدرت رغمًا عنى ضحكة مدوية .. ثم حاولت أن أتمالك نفسى ، وقلت له :

– والله هذه من عجائب الدنيا ، أن تضيع ملابسك هكذا ، فالأمر بالنسبة لإنسان مثلك مأساة ما بعدها مأساة ، بل هى أكثر من ذلك ، لأن وضعك هذا مثل الرسام أو المصور أو النحات الذى فقد مقتنياته الفنية التى ظل يجمعها بالعرق والجهد طوال العمر ! ولا شك أن هذه الحادثة ستضر كثيراً دنيا الفنون الجميلة !! أخبرنى كيف وقعت هذه الحادثة ؟

فرد قائلاً :

– يا رجل !! أتهزأ ثانية ؟ ظننتك ستسألنى أو لماذا جئت ؟ وظننتك ستوفر لى أولاً أمر قيامى وطعامى ... سوف أنزل عندك ؟!

– على بركة الله .. تعال .. هيا بنا ..

أخذته مباشرة إلى بيتي ، وحين تمددنا على الكراسي المريحة في اطمئنان وهدوء ، نظرت إليه وضوء المصباح يقع على وجهه ، فلاحظت أنه صار أكثر نحافة ، نزع " طربوشه " التركي الذي يضعه على رأسه عادة بطريقة عفوية أقرب منها إلى اللامبالاة ، وألقى به على الطاولة ، ثم بدأ يدندن ، لكن بدا من شكله العام أنه يتصنع ، فهو ليس على طبيعته المعتادة .

في الحقيقة لاحظت أن أصغر الذي يجلس أمامي الآن ، لا يمت بصلة لأصغر الذي عرفته من قبل ، فهو الآن إنسان حزين ، تغطي الكآبة جميع ملامحه، يرتدي ملابس عادية بل أقل ، في عينيه ضياع .. أين هو من أصغر الذي عرفته من قبل، صاحب الدعابة والنكات اللطيفة، صاحب الوجه المشرق البسام ، أصغر الذي كان يقلد دائمًا وجهاء المجتمع الإنجليزي .. أصغر الذي كان يبهت الحاضرين بشخصيته الساحرة ، وكلامه البليغ ، ويحيل مجلس الأصدقاء إلى بهجة وفرح وسرور بنكاته وضحكاته العالية التي تشق عنان السماء !

كنا جميعًا نعترف ونسلم بحسن ذوقه ، وكان رأيه فيما يتعلق بالملابس والهندام مقبولاً دون نقاش الأصحاب ..

مرت لحظات صمت فقلت :

– هيه ! إنك لم تخبرني كيف ضاعت حقيبتك ؟

– أوه .. يا أخي ! إذا كان لديك كلام آخر فقله .. الخطأ كل الخطأ مني .. خرجت من ملتان ، وكنت مضطربًا مشوش الذهن .. كانت العباءة معلقة على الشماعة ، فأنزلتها بسرعة ووضعتها على جسمي ..

كنت مضطراً للإسراع ، فوضعت جميع ملابسى الأخرى مع بعض الكتب فى حقيبة ، ثم حملتها ووصلت إلى القطار .. وهناك طرأت علىّ حالة من التردد والقلق ، لم أكن أدرى ما حولى ، لم أستطع أن أتفحص جيداً المسافرين داخل عربة القطار ، بعدها شعرت بوجود رجلين يبدو من حركاتهما أنهما موضع شك وريبة .. وأثناء السفر غفلت عيناى بالصدفة ، وعندما استيقظت عند محطة " خانيوالي " اكتشفت أن حقيبتى اختفت ، لم يكن فى العربة غيرى ، فقمت فوراً بإطلاع حارس الأمن ورئيس المحطة ورئيس الشرطة بما حدث ، فأشاروا بأن أقطع الرحلة ، وأنتظر حتى يسهل عليهم البحث عن الحقيبة ، لكنى فكرت ، وقلت : ما حدث قد حدث ، وسوف يجدون الحقيبة إن كان حظى طيباً ، وإن لم يجدوها فالحمد لله الذى حفظ على سلامتى .. لو كانت هذه الحادثة وقعت فى ظروف أخرى فربما لا أشعر بالحزن أبداً ، لكن كان لدى برنامج غير واضح ، كما أننى كنت أعيش حياة غير مستقرة ، يلزمنى فيها أن تكون ملابسى ويكون هندامى على خير ما يرام ، لهذا كان ضياع الملابس صدمة آلمتنى كثيراً وأصابتنى بحزن شديد .

أخذت نفساً عميقاً وقلت له :

– أصغر .. نحن الهنود نشيخ ونكبر بسرعة .. أقصد الشيخوخة العاطفية ، إنك تخرج من بيتك مضطرب الذهن ، ثم تمضى طوال سفرك غائباً عن الوعى ناسياً كل ما حولك .. أقسم بالله لا يمكننى تصور هذا الأمر ، لكن ألاحظ هذه الشيخوخة تضغط علينا كل لحظة بعنف ، وهناك من لا يستطيعون أن يحصنوا أنفسهم ضد هذا الأمر .. على كل حال لا يبقى أمامنا سوى الحيرة .. اعتبر حياتك الماضية كلها مجرد هراء ..

– هراء !!

انتبه أصغر ونهض جالسًا واسترسل قائلاً :

– أتعلم أنني لم أنحرف قيد أنملة عن مبادئي وأصولي ، والمسألة هي أنني أمر بظروف خاصة، كما أنني ما ادعيت إطلاقًا أن أعصابي من فولاذ ، وقلبي من حديد ، ودماغي من حجر ، فكل حي يمر بمراحل تطور في الحياة سواء كان ذلك بطريقة شعورية أم غير شعورية ، وأنا أيضًا واحد من هؤلاء الأحياء الذين لا يدعون أنهم يفهمون سر الحياة ، سر الحياة الذي هو على حسب قولك يلقي الضوء على هدف الحياة ، وعليه فقد وضعت لنفسي عدة أصول تهديني على درب الحياة .. قد تضحك على هذا الكلام لكني سمعت هذه الضحكات عدة مرات من قبل ، إنك لن تستطيع أن تجبرني على أن أسمي النور ظلمة أو الظلمة نوراً ، لا شك أن بداخلي كثيراً من السلبيات ، ومن الضعف الافتقار للحنكة والخبرة ، وأنا أعمل بكل جد على التخلص من كل هذه الأمور السلبية فأنا في النهاية إنسان ، لست كوبًا أو كأسًا لا أتأثر بما في داخله ، فأنا أدرك أن هذا الاضطراب لا فائدة منه البتة ، وأنه من أكبر المعوقات للوصول بالحياة إلى درجة الكمال ، لكن هذا ليس بالضرورة بسبب قصور عملي فلا زلت أحتفظ بداخلي ببعض الحقائق التي قد تسميها أنت وهم ، ولكن بالله ! أخبرني هل هناك في حياتنا أمر ما ماديًا كان أو غير مادي ليس أساسه الوهم ؟!

يا صديقي العزيز ! إن جميع أعمال الإنسان وقياساته كلها اعتبارية ولو أن هذا صحيح فما معنى أن نسكب الدمع ونبكي على عدم التوفيق أو الفشل ؟ امنح الفرصة لتلك الأصول التي أقولها لك والتي

أعتبرها واقعًا وهدفًا وتعتبرها أنت وهمًا ، حاول أن تعط لها مرة واحدة الفرصة فى حياتك ثم انظر كيف ستنقشع الستارة الغشاوة أم لا ؟ فى هذه الدنيا حيث يعيش كل ذى روح فى تسلسل لا نهاية له ، كيف يمكنني أن أتخلص من السلسلة الطبيعية للأسباب والنتائج ؟ أنا مثلى مثل بقية البشر أتمنى أن تكون لى القدرة على الأسباب حتى آخذ بالنتائج حسب المنشأ ، لكنى فى معظم الأحيان أتعرض للفشل ، لماذا يؤثر الفشل على أذهاننا ؟ هناك فرق بين طريقى وطريقك .

يعلم الله وحده كيف انفجرت ضاحكًا بل مقهقهًا ، وهو يسرد علىّ سلسلة من العبارات الفلسفية وهكذا أسكتته ضحكاتى .. فقلت له :

– سبحان الله ! كم كان رائعًا ذلك البيان الرائع ! أحضر مرآة وطالع صورتك فيها حتى تتأكد من صدق أصولك . . انظر قليلاً إلى هذه الطلعة التى لا توجد فيها قطرة واحدة من قطرات الحياة .. انظر إلى جبهتك .. وانظر إلى زرقة خديك .. انظر إلى الهالة السوداء حول عينيك ! تحسس بيدك ضلوعك واحسب كم عددها .. انظر إلى ملابسك هذه .. هل هى ملابس الإنسان الذى كان يضرب به المثل منذ مدة قليلة بحسن المظهر والهندام والذوق ، ويعده الآخرون إمامًا من أئمة " الشياكة "... ؟! ثم أخبرنى هل تطلق على هذا اسم الشباب الخالد ؟...

لابد من أن أفصل الحديث عن أصغر ...

كان أصغر صديقًا لى ، وكانت صداقتنا منذ زمان .. أيام " التلمذة " كنت مع أصغر فى كلية واحدة لأربع سنوات ، وأقمنا فى مبنى واحد بالمدينة الجامعية، منها سنة أقمنا فيها معا فى غرفة واحدة ،

لم يكن له أشقاء أو شقيقات، كما أن علاقته بوالده لم تكن على ما يرام ، وكان والده يتحمل نفقات تعليمه طوعًا وكرهًا .. ولهذه الأسباب كلها وجه أصغر اهتمامه وتركيزه على حياته فقط .. وكان في الإجازات لا يذهب إلى البيت إلا نادراً ، وكان يأتي معي أحيانًا ، وأحيانًا أخرى يتجول في مدن الهند إذا ما وجد فسحة من الوقت وقليلاً من المال ، وكان السفر والتجول هوايته المحببة ، وقد أوجدت صعوبة الظروف هذه لدى أصغر نه عًا من قوة الإرادة والاعتماد على الذات .

في مجتمعنا هناك واجبات تعود على الفرد من حيث كونه إنسانًا ، ولا علاقة لها أبدًا باتجاهات الإنسان الفطرية أو ذوقه الحقيقي منها خدمة الوالدين ، المروءة مع الأصدقاء ، قضايا الزوجة والأبناء ، محبة الأخوة والأخوات ... سلاسل من العلاقات تعد بالمئات تقيدنا بمختلف شعب المجتمع بحيث لا يبقى هناك أي مفهوم على الإطلاق للحياة الانعزالية أو الفردية .

فالحياة الإنسانية أساسًا هي اسم لمجموعة من العلاقات العاطفية وروابط الدم ، ومن المستحيل أن يعيش الإنسان لنفسه فقط ، والإنسان الذي لا يأبه بما يوجه له من نقد ، ويكون على استعداد لأن يفعل أي شيء لتحقيق رغباته في الدنيا ، ظنًا منه أن كل ما في الكائنات ، إنما هو من أجله فقط، لا شك أنه قد يحقق في حياته نوعًا من اللذة الخاصة، وقد يعبر البعض عن هذه الحالة باسم " اللامبالاة " ، لكن الحقيقة أن من لا يستطيع أن يكبح جماح عواطفه ، ومن يفلت الزمام منه أمام مواقف بعينها ، هو الذي يتصف بصفة اللامبالاة أيضًا ..

حين التقيت بأصغر قبل عدة سنوات من يومنا هذا ، راعني ما لاحظته عليه من تحرر عجيب وصل إلى درجة اللامبالاة ، كيف يكون

مثل هذا الشخص طالبًا جديدًا ، ويكون بهذه الطبيعة الناقمة ، كان من حيث الذكاء يحتل موقعًا ممتازًا بين طلبة فصلنا ، ولأنه قسم أوقاته بطريقة عجيبة لهذا لم يمكن أحيانًا يفتح كتابًا لعدة أسابيع ، وكان حين يأتى وقت الامتحان مثل زاهد الليل ، يحرم على نفسه النوم ، وحين كنت ألومه على أسلوب اللامبالاة هذا كان يجيب قائلاً :

- أنا لا أرغب فى أن أكون طالبًا أو دارسًا مشهورًا حتى أنكب على الكتب ليل نهار ، وأجعل من الكتب هدف حياتى ، تلك الكتب التى تسلب الإنسان القدرة على المشاهدة وتصيبه بالأمراض الذهنية ، يكفينى أن أذاكر بما يضمن لى النجاح .

وبعد عامين حين شاء الله أن نقيم معًا فى غرفة واحدة ، بدأت أحواله وأطواره تتضح لى أكثر فأكثر ، كان من عادته أن يخرج بعد تناول طعام العشاء ثم يعود فى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، بينما لا يسمح طبقًا للقواعد المعمول بها ، لأى طالب بأن يكون خارج غرفته بعد التاسعة ليلاً ، ومن حسن حظه أن مشرف المدينة الجامعية كان رجلاً مهذبًا ومتفاهمًا ، فكان إذا عنّف أصغر ضحك الأخير قائلاً :

- يا سيدى ! إن تعميم قوانين بعينها على الجنس البشرى ليس من العقل فى شىء فالقدرة الإلهية قد استثنت منها بعض البشر، والعبد لله واحد منهم !!

كانت رفقته مدعاة للسرور ، لكن حين يعود فى منتصف الليل فيوقظ النائمين ويضرب الباب فيقلق راحتى، كنت أجد نفسى متضايقًا ، ثم لا يهم إذا اقتصر هذا الأمر على يوم أو يومين لكن كان سلوكه على هذا المنوال مدة ثلاثين يومًا فى الشهر .. ذات ليلة عاد متأخرًا جدًا ،

ربما كانت الساعة جاوزت الثانية صباحًا ، ومع طلوع الفجر ، بدأت حزم أمتعتى ، فأخذ يسألنى فى قلق شديد :

- إلى أين تنوى الذهاب ؟!

فصرخت فى وجهه :

- لا أريد أن أرى صحتى تتدهور وأنا أقيم معك فى هذه الغرفة .. خاف الله ! إنك تضيع نهارك فى الكلية فى الهذيان والتخريف ، ثم تفسد وقت الراحة والنوم فى الليل، إذا كان هذا الاستهتار قد سيطر على عقلك إلى هذا الحد ، فاترك الكلية واذهب فلن تضيق أرض الله بأمثالك ..

قفز من الفراش وأمسك بى :

- يا صديقى ! أغضبت ؟ إننى أتحمل ما أنا فيه مستمداً العون من وجودك معى ، وإلا فكيف تأتينى أنا الإنسان المفلوت عادة البقاء فى سجن مبنى المدينة الجامعية هذا.. يا صديقى ! كيف أجد إنسانًا مثلك ، لقد قلت أكثر من مرة إن التحول إلى دودة كتب ليس هو الغاية من الدراسة ، فالإنسان يبقى طول العمر تلميذاً ، وهناك فى الدنيا مئات السبل أمام الجميع للحصول على العلم ، لكنك لا تريد الخروج من مبنى الكلية ولا من قوقعة الكتب الدراسية .. بالله عليك لا تصبح مثل ضفدع البئر .. اخرج ! انطلق .. تجول فى هذه الدنيا .. شاهد جوانب الحياة المختلفة .. حرر حواسك ..

كان حول أصغر أصدقاء كثر ، لكن نظريته عن الصداقة كانت نظرية عجيبة ، كان يقول : إننى أضحك على أولئك الناس الذين يرون أن الصداقة من لوازم الحياة .. لقد انتهى هذا المفهوم منذ زمان ، ومع هذا

فنحن نحاول أن نجعل من هذا الشيء المعدوم غذاء للروح .. إن من ليس لديهم الكفاءة ليعيشوا دون صحبة الأصدقاء يبتلون بخداع نفس خطير .. ولعلك رأيت كثيراً من هؤلاء المخدوعين ، الذى يجلسون يذرفون الدموع فى ذكرى صحبة قديمة ، يتذكرون الأيام الخوالى ويتحسرون ويتأوهون ، وهؤلاء مثلهم مثل من يفهم أن الصداقة مثل الخبز ، يحتاجه الإنسان فى كل وقت ... يا أخى اعرف الحقيقة إننى أعتبر الصداقة مثل الشطرنج والتنس وسيلة لقضاء الوقت .. أقوم أحياناً بالبحث عن صديق إذا شعرت برغبة فى ذلك ، ومثلما يمكن أن أعيش دون أن ألعب الشطرنج يمكننى أن أعيش بلا أصدقاء دون شعور بالملل.

كان أصغر يهتم فقط بأمر ملابسه وهندامه ، ويحتاط فى ذلك كثيراً، وكان بالطبع يميل إلى المزاح والدعابة ، وكان يعتقد أنه يمكنه خداع الدنيا فقط عن طريق الملبس والهندام ، كثيراً ما كان يقول بأنه طبقًا للحضارة الجديدة فإن الملابس الثمينة والشكل الجميل والتحدث بفصاحة وبلاغة عن أحداث العالم ومجرياتها يجعلك تستغفل الدنيا كلها.. ولا عجب فى ذلك .

ذات مرة ارتكب حماقة عجيبة ، فحين أقامت الكلية حفل العشاء السنوى ، قام أصغر بتفصيل "بدلة " رائعة لحضور الحفل ، وفى يوم الحفل استعرض ملابسه فعرف أنه ليس لديه رباط عنق جديد ، يضعه حول عنقه مع "البدلة" الجديدة ، كنا فى آخر الشهر وكان جيبه خالياً ، فظل يفكر ويفكر ، وفى النهاية أخذ كتاب الفلسفة الذى اشتراه منذ عدة أيام ، وباعه لبائع الكتب على الرصيف بنصف قيمته ! ثم ذهب إلى السوق واشترى رباط عنق جديد !

كان أصغر شخصية عجيبة من حيث تنوع صفاته وطباعه ، كان دائمًا مديونًا ، وكان يقول :

- إذا شاء الله أن يمنحنى كرسى رئيس وزراء البنجاب ، فرغم راتبى الذى سيصل إلى حوالى خمسة آلاف روبية فإننى رغم ذلك لابد أستدين القليل من هذا وذاك .

من لم يعرفه جيداً ظن أنه صاحب نظرة سطحية ، لكنه لم يكن يهتم بشىء ، وكان ينظر إلى نقاط ضعف أهل الدنيا ويضحك .. لم يكن من طريق للعيب والصواب لم يسبق له أن مشى عليه، ولم يكن هناك درب للخير والشر إلا وسلكه ! وهو يعتبر الجهل وعدم الدراية ضمانًا للسعادة والسرور ، لكنه من القلائل الذى يفكرون ومع هذا فهم مسرورون !

كان أصغر يقينًا إنسانًا يملؤه الأمل ، لكن الأمل الذى بداخله لم يكن قائمًا على أساس من جهل ، لقد ذاق طعم الزمان بمرارته وحلاوته ، هام على وجهه فى دروب مفروشة بالشوك ، كما مضى أيضًا على فرش تغطيها الورود ، ثم وصل إلى نتيجة مفادها أن الإنسان عليه أن يرى تنوع داخله بمنظاره ، فيصاب بخداع البصر وتبدو له الكائنات كلها مثل قوس قزح .. وعليه أن يوجد فى طبيعته شعور الاستغناء ، عندها سيعيش حياة القصور وهو فى أكواخ القش .

ذات يوم كنا نجلس معًا ، كان معنا صديقنا وحيد أيضًا ، ووحيد كان حاد الذكاء ، لكن ذكاءه صار له وبالاً ، كان خياله دائمًا يجعله دائم الاضطراب ، مثل سفينة ضربها طوفان .. كان وحيد بعض شاعر ،

وبعض إنسان واهم ، وكان بعض مريض ، لكن ما غلب عليه كله هو أنه يرى نفسه جريح المحبة .. فمال إلى الوحدة والعزلة ، وظل مشغولاً بكله إما في البكاء على العهد الماضي وإما برؤية حلم المستقبل ، مما كان يجعل حاضره حاضراً بائساً !!

كان ينادى أصغر بلقب " الشيك " وكان أصغر ينتشى فيتصرف مثل الرجل " الشيك " ..

ذات يوم دار بينهما حوار لطيف ، أضاف إلى معلوماتنا الشيء الكثير الذى غمرنا بالغبطة والسرور ، قال أصغر :

– انظر يا أخ وحيد ! لو استمر حالك على هذا المنوال لعدة أيام فسوف تنسى الدنيا جنون قيس ، وجبل كنى الذى حفره " فرهاد " بحثا نهر اللبن، من أجل معشوقته ! وسوف تحل محلهما ، وتكون خليفة لهما، وهكذا إن أردت أن تخلد اسمك فى هذه الدنيا أو تكون على قائمة شهداء العشق ، فامض على هذا الدرب واستمسك بهذه الطريقة .. لكن إن أردت البقاء على قيد الحياة ، وأردت أن تمتص رحيقها الحلو فبالله عليك اترك هذه المنحوسة !! إن عشق أهل الأمم الحية يهب الحياة ، لكن عشقنا نحن الهنود ، هو وداء السل سواء بسواء .. ثم إن بقاءك فى هذا البلد وتحولك إلى عاشق هو معركة ضد الفطرة .. إننى سمعت أن محبوبتك ستكون من نصيب شخص آخر بما يتماشى والطريقة الهندية : تعشق إنساناً وتتزوج من إنسان آخر ، فإذا كان ما سمعت صحيحاً ، فلماذا لا تنطح جبال الهمالايا ، فتدمى رأسك ؟!

إن الحب اسم لقمة الضعف العاطفى ، ولاحظ العجب فى أن كل مدع يحاول أن يجعل من حبه شيئاً طاهراً ، والملاحظ أنه كلما ازداد

غليان الدم فى العروق كلما بدأت جراثيم المحبة فى الانتشار !!
أنا حيران ! ماذا ينقص هذا البلد المستعبد من مصائب حتى يُضاف إليه مصيبة العشق ، من أكبر المصائب إننا نفتقد صلاحية الحياة على وجه الأرض .. نتحدث ويطول الحديث ثم تغرورق العيون بالدموع ، وتصدر الآهات والتأوهات فى كل وقت .. تخدع الدنيا ، ونعتبر من يبتسم أو يضحك عدواً للتعاليم الربانية ، أما من يقهقه فهو مذنب ، ارتكب معصية ، لماذا نقحم الدين هنا أيضًا ونصدر الأوامر : عليك أن تحنى رقبتك ، وتغلق عينيك ، وتمشى فى صمت .. بينما أمامنا أمور كثيرة ، وأشياء بسيطة فيها ثروة من المسرات والفرح تناديك أن تنتبه لها ! لكن كثيراً ما نشاهد من يرقد على فراش المرض يتأوه ، وهناك من يحطم نفسه بالتفكير فى الماضى وأحزانه .. لماذا ؟ ذلك لأننا نعرض أنفسنا لضربات موج الحياة ، لا أحد يريد أن يغوص فى الماء فينجو مما هو على السطح ، ويرى الثروات المدفونة فى الأعماق ، وتلال الجواهر الغالية ، وأكوام اللؤلؤ ..

إن سر الحياة الناجحة هو ألا تعطى مثل هذه الأهمية للحياة .. تنفس هواء الحياة العليل المعطر، الذى يمر بك، عطر قلبك وعقلك بهذا العطر وامض على درب الحياة .. تطلع إلى رحابة الكون من حولك ، فهو مملوء بآلاف العوالم مثل عالمنا هذا ، وهى عوالم مملوءة بالأحياء . تخيل هذه الأحياء ، وفكر فى وجودك أيضًا فى هذه المساحة الفسيحة بين السماء والأرض وكأنك على حافة غار الفناء العميق ، ترتعش فى كل لحظة فى مواجهة الرياح المعاكسة ، فأنت لا شىء ! والأجل يمكن أن يختطفك بإشارة بسيطة من خالقك .. .. فكر فيما ينتابك من قلق ، فكر فى سلسلة الألم والعلل اللامتناهية التى أقلقت منامك بالليل ، وحولت

نهارك إلى جحيم .. حرك دماغك ، فكر .. لا تجعل الحياة وقفًا على ملء الجسم بالطعام وتغطية الجسد بالملابس .. أخبرني هل يموت أحد من الجوع ، وهل يوجد من يمشي في الشارع العام دون ملابس ؟ تأكد من أن كل إنسان يتناول طعامه على قدره ، كما أن المسئولين يكسون من يمشون في الشوارع عرايا.. ثم لماذا تميت نفسك نتيجة مخاوف خيالية ، وأحزان لا أساس لها من واقع ؟ إذا لم يكن عندك قميص من حرير فليكن .. البس قميصًا من خيش .. وإذا لم يكن لديك حذاء إيطاليا فالبس " خفا" محليًا متينًا ومريحًا !

يا صديقي العزيز ! تخيل الدنيا مسرحًا ، وكل رجل فيها وامرأة ممثل يلعب دوره ، فمظاهر الفرح والألم والحرمان وغيرها هي في الحقيقة تمثيلية : "تراجيديا" أو "كوميديا " .. لا يكون التأثر بها من العقل في شيء .. يجب أن نتفحص كل واقعة دون تحيز ، ولا يجب الخلط بين الأحاسيس الذاتية ونوعية الوقعة .

في هذا العالم المتغير لا يوجد ثبات ، فهناك رسالة للحياة الجديدة في كل لمحة تمر طبقًا لتأثير تغير الزمان وتقلبه ، فحين تشاهد أحداث العالم افصل بينك وبين أحاسيسك تمامًا مثل عالم الكيمياء والطبيعة ، وإلا فالبكاء والعويل من الأمور الزائدة عن الحد ..

كثيرًا ما كنت أتساءل لماذا نشيخ بسرعة في الهند ؟! أظن أن السبب هو أننا بالإضافة إلى أننا لا نولي الحياة أي أهمية ، فإننا لا نحاول أن نجدد فيها ، فنحن منذ ولادتنا وحتى الممات نعيش في بيئة واحدة لا تتغير ، نتربى فيها ، ونتعلم فيها ، وفيها نموت .. من الضروري أن نأخذ حظنا من أي شيء نريد الاستمتاع به ، فالطالب إذا وضع

رأسه فى الكتب من الصباح حتى المساء ، ورأى أن اللعب والرياضة حرام ، صار هدف الاستذكار هو الموت ، ولو قام المحامى بجعل حياته بين البيت والمحكمة ، وبين المحكمة والبيت ، أو قام الطبيب بإغماض عينيه عن الدنيا ، ووقف نفسه لمعاينة المرضى ، وتشخيص حالاتهم فإنه يكون قد رأى الحياة من جانب واحد فقط ، وكف نظره عن بقية جوانب الحياة ، إن طبيعة الإنسان تسأم الاستمرار فى تنوق نوع واحد من الطعام ، ولهذا نوّع مشاغلك ، يصبح كل ما فى الدنيا جميلاً جذاباً ! اجعل من نفسك أحياناً إنساناً فقيراً ، وتطفل على الكرماء ، واجعل من نفسك أحياناً كريماً فتصدق على الفقراء !!

.....

جمعتنا الدراسة معا حتى مرحلة البكالوريوس ، ثم جاءت مرحلة الماجستير ، فظل أصغر فى البيت بون متابعة الدراسة ، ربما كان يريد أن يجرب كيف تكون " البطالة " لكن عرفت فيما بعد أن والده لم يكن يرغب فى أن يستكمل ولده تعليمه ، ولهذا اضطر أصغر إلى البقاء فى فصول " جان بخش " بلاهور ..

مر عام قبل أن يلتحق أصغر بكلية الحقوق فأثار بذلك دهشة أصدقائه .. فأين هو من دراسة القانون ، لكن ربما فكر فى أن هذا هو السبيل الوحيد للإصلاح ففى مجال المحاماة يمكن أن يطفئ ظمأ فكره .. كان أصغر طول العام يحمل كتب القانون الضخمة ، قاطعاً مسافة ميلين كل يوم ليصل إلى الكلية فى الثامنة صباحاً .. أما بقية حياته فكانت من خصوصياته .. كان يبحث عن الجدة ، وربما كان هذا أيضاً سبب التحاقه بكلية الحقوق.. لكن ذكاءه لم يمكنه من مواجهة دراسة الحقوق ، فمن ينجح هو فقط من يوجه كل اهتمامه للدراسة بون غيرها ..

عرف أصغر خبر رسوبه فى الامتحان من صحيفة إنجليزية تصدر فى " ملتان " أما والده الذى كان يشعر بأن الإنفاق على أصغر واجب غير مستحق ، وغير ضرورى ، فحين سمع الخبر قال له على الفور وبكلمات واضحة :

– " اخرج من بيتى ، لا أريد أن أعيش طول عمرى أتحمل مصاريف دراستك ونفقات رحلاتك هنا وهناك ..

كان ذلك حين جاءنى أصغر ، وقد بدا إنسانًا ضعيفًا نحيفًا .. وأذكر أننى سألته بعد تناول الطعام :

– على أين العزم ؟

– أنا ذاهب إلى بمباى .

– بمباى .. ؟ ماذا ستفعل هناك ؟

– لماذا تقلق.. أنا لست مثلك أحلم بالحصول على أعلى الشهادات ، كما أننى لست مثلك أحلم بأن أكون إنسانًا وجيهًا ، أنا أريد فقط أن أحصل على قوت يومى ، لأبقى روحى داخل جسدى ، ثم أجد ما أستر به نفسى .. هذا ما يحتاجه الإنسان وأعتقد أنه من السهل الحصول عليه فى أى مكان .. ولهذا تتساوى عندى لاهور وكراتشى ، ولكهنو وبمباى ، وحتى لندن !

كان معه قليل من الروبيات ، واخذ منى بعض الروبيات ، وفى اليوم التالى سافر سيادته إلى بمباى .

مر على هذه الواقعة ما يقرب من سنتين ونصف ، وكان الواحد منا بالنسبة للآخر مثل الميت لأنه فى تلك الفترة لم يكتب لى رسالة ،

كمـا أننـى لم أكن أعـرف له عنوانًا .. وفى يوم من الأيام وصلتنى دعـوة لحضـور حفل زواج آدم إسماعيل أحد أصدقائنا، وهو من سكان بمباى ، يعمل بالتجارة ، وهكذا اضطررت إلى السفر لحضـور حفل الزواج بناء على إصرار آدم إسماعيل ..

حين انتهى الحفل دعـا آدم إسمـاعيل ، خـاصـة أصـدقـائه إلى حفل عشاء فى مطعم " تاج محل " فاجتمعنا فى إحدى الصـالات الفخمة ، وبينما كنا ننتظر قدوم الطعام إذا بعمال المطعم يدخلون الصالة حاملين الأطباق .. تسمرت عينى .. وقعت عيناى عليه .. اعتقدت أننى فى حلم ، لا علاقة لما أرى بالحقيقة .. لم تبدر من الشـخص القادم نحوى علامـات التـأثر أو الدهشـة .. فقط شـاهدت على وجهه ابتسـامـة خفيفة ، لم تبدر منه علامات الحيرة أو الاستغراب أو الاستعجاب .. كان هذا أصغر .. يرتدى زى المطعم المميـز ، وكـان ينتقى لنا الطعـام على المائدة .. وحين خرج ودخل مرة أخرى إلى الصالة أمسكت بذراعه رغما عنى وصحت :

- أصغر .. أين أنت ؟

أجاب وهو يحاول أن يتمالك نفسه :

- هذا وقت العمل .. تناول الطعام أولاً ، ثم نتحدث فيما بعد .

تحير رفاقى .. ما الأمر ؟ غيرت الحديث قائلاً :

- سأخبركم بكل شىء بعد تناول الطعام .

حين بدأنا الخروج من المطعم ، جاءنى أصغر لدقائق وقال :

- لم أفرغ من عملى بعد ، كما أننى لن أذهب معك ، فأخبرنى أين تقيم ؟ سآتيك صباحًا ؟!

– أعطيته عنوان المكان الذى أقيم فيه ، واستحلفته بالله أن يأتينا فى أول فرصة تسنح له ..

وفى اليوم التالى لم أكد أفرغ من تناول طعام الإفطار حتى جاءنى خبر وصوله ، كان يرتدى "بدلة" رمادية ، وقبعة إنجليزية غالية ، وينتعل حذاء رائعًا ..

دخل أصغر الغرفة ، وكان ضيوفى يجهلون أحوال أصغر وأطواره، فوقعوا فى حيرة حين شاهدوه هكذا .. حين وضع أصغر قدمه فى الغرفة أطلق ضحكة مدوية ، وقلب هدوء المجلس رأسًا على عقب ، وأخذ يعانقنى بطريقة همجية .. تفحصت ملابسه مرة بعد مرة وتعجبت من أى طينة صنع هذا الشخص ؟! .. فى الليل نادل فى أحد المطاعم ، بينما هو الآن فى حلة قشيبة لا يرتديها محام يترافع فى هيئة القضاء العالى .. سألته :

– منذ متى اخترت حرفة اللف والدوران هذه ؟ .. هل بدأت هذا العمل منذ وصولك إلى بمباى ؟ كم هو مخجل أن يقوم شاب مثلك تخرج من الجامعة ، كله ذكاء بإذلال نفسه هكذا ..

قال :

– أنت لم تترك عادة الشتم والسب القديمة هذه ، أما أنا فالحمد لله باق على عاداتى القديمة .. طالما قلت لك إن الدنيا مسرح ، وإننا جميعا ممثلون ، وكنت تعارضنى بشدة ، وتظن أن هذا أمر غير وارد .. والآن رأيت كل شىء بأم رأسك ، رأيت كيف أطبق هذه الأصول بطريقة عملية . . يا أخى أنا أصدقك القول ، أنا أكثر منك سرورًا واطمئنانًا ،

فأنا حر بعيد عن غم الدنيا وقلق الآخرة ، طعام جيد ، ملبس جيد ، أتفرس طبائع البشر فى بمباى .. ما ذا ينقصنى غير ذلك ؟ إننى أعيش فى عالم من الحرية ، فى السنتين والنصف الماضيتين مارست عشرات الأعمال ، قمت بالتدريس تارة ، وبالكتابة فى الصحف تارة أخرى ، عملت وكيلاً لشركة " سنجر " التى تنتج ماكينات الحياكة ، وتنقلت بين دور السينما والمسرح ، وعملت أيضًا فى الترام ، وباختصار كنت كلما شعرت بالضيق أو شعرت بآثار الشيخوخة تظهر على مشاعرى ، أغير على الفور نوعية عملى .. انظر إلىّ .. أراك تغبطنى على ما أتمتع به من صحة جيدة ...

حقًا كان أصغر يتمتع بصحة جيدة ، فقد امتلأ جسمه واكتنز ، واحمر وجهه من الدماء التى تجرى فى عروقه ، وبدا بقامته الفارعة كأنه مصارع .. قال :

– أقوم هذه الأيام بتدريس ابن أحد الأثرياء ، فبالإضافة إلى الراتب الشهرى أقيم فى بيته ، وفى المساء أكون فى مطعم "تاج محل" ، التقيت منذ أيام بمندوب شركة تجارية مشهورة فى ألمانيا ، وقد وافق على أن يأخذنى معه إلى ألمانيا للعمل فى مجال التجارة .. لم نتفق على الشروط بعد ، فمن الممكن أن أسافر إلى ألمانيا خلال شهور قليلة وهكذا أكون قد حققت رغبتى القديمة فى السفر إلى أوربا ..

مضت سنة أو أكثر من سنة على عودتى من بمباى ، توطدت علاقة الصداقة بين آدم إسماعيل وأصغر ، وهكذا عرفت من خطاب وصلنى من آدم إسماعيل أن أصغر سافر إلى ألمانيا !!!!

تمت

السـراب

شهناز إسلام

منذ أول يوم خـرجت فيـه " وردة" من بيتـهـا إلى العالم الخـارجى ، لتلتـحق بالعمل فى المكتب ، لاحقتـها كثير من النظرات الجـائعة ، وفى اليوم التـالى حين جلست أمـام الآلة الكاتبة ، لاحظت أن رئيس الموظفين وجـمـيع العـاملين بالقـسم ، قـد جلسـوا فى غـاية الأدب والكمـال ، فى المسابقة التي أجريت بالأمس ، كانت ترتدى ملابس نظيفة ، فيها سمات الاستعـراض ، والتـباهـى أيضًا ، وكـان انضـمـامـها إلى " مجموعة " العـاملين بالمكتب بمثـابة نسـمـة مـعطرة ، قـادمـة من حـديقـة مملوءة بالورود،هبت من خلال نافذة مشرعة.

كان كل إنسان يحاول أن يتمتع برحيقها من على البعد ، ويستمتع بلطافتها ورقتها ، رغم أنها كانت تمضى فى عملها على وتيرة واحدة : تؤدى عملهـا ، وفى وقت فـراغـهـا كـانت تشـغل نفـسـهـا بحل الكلمـات المتـقطعة .. وحـين يحين مـوعـد الخـروج تحـمل المظلة وحـافظة الطـعـام ، وتتسحب من المكتب فى صمت، وإذا حاول أحد الموظفين الاقتراب منها ، لم تكن تبدى تجاهـه أى نظرة عدائية، كما لم تكن تعنفه بشكل أو بآخر ،

فلم تكن ترى فى التحية الرسمية ، أو السلام العادى بين الزملاء أى حرج .

وكانت تعرف قدر الموظفين الأشقياء ، فإذا حاول بعضهم التمسح بها ، أو إظهار تواضع من نوع ما ، واجهته برفع حاجبيها بحركة خفيفة لها مغزى واضح ... ثم تظل منهمكة فى تحريك إبرتها التى تغزل بها الصوف أحيانًا ، وهى تصدر آهة من الأعماق .

لم يكن هذا القبول المتزايد على خطب ودها، إلا عاملاً نفسيًا ، يمنحها القوة ، وبالتدريج بدأ إعجابها بنفسها يحيط بوجودها حتى غرقت فى كأس الغرور ، فلم تكن تنعم على أحد بغير الابتسامة الرقيقة ، فصارت بطبيعتها ، تهرب سريعًا من أى حديث أو جلبة أو ضوضاء ..

كانت تعيش فى البيت مع زوجتى أخويها ، وأطفالهم الذين يتحركون فى كل مكان مثل الدود ، والذين أفسدوا عليها كل شىء ، وجعلوا عيشتها مرة ... " مومو" و" فيصل " يبكيان على الدوام ، وكأنهما فى حفل موسيقى ينشدان معًا حينًا ، أو يرد أحدهما على الآخر حينًا ، أما " كلّو " و" أشرف " فقد جعلا كل ركن من أركان البيت ملعب كرة ، يضربان كرة التنس هنا وهناك ، ناهيك عن " سنبل " و"ناهد " فتظلان تطلبان منها استعمال عطرها الغالى ، وكريم يدها .

ذات يوم عادت " وردة " من المكتب ، فرأت زجاجة الكولونيا المعطرة التى تستخدمها يوميًا لتعطير جسمها، مفتوحة، فثارت ثائرتها :

– يا زوجة أخى ! هل رأيت ما حدث ؟ هل رأيت ماذا أصاب زجاجة عطرى على يد سنبل الشقية ، لو تجرأت مرة أخرى ، وخطت

خطوة واحدة داخل غرفتى ، فى غيابى ، فسوف أعلمها الأدب فعلاً ..
تفضلى ها هى الزجاجة فارغة .. مبروك عليك !!

فرفعت زوجة الأخت صوتها حتى تسمع سنبل ما تقول :

– هذه الشقية .. الله يأخذها .. منعتها ألف مرة ألا تلعب فى أشياء لا تخصها .. لكنها لا تسمع كلامى !!

– يا زوجة أخى ! لا تؤاخذينى .. لكن هذه العيشة لا يمكن أن تستقيم بهذا الشكل.. لو كان هذا سلوك الأطفال فى جميع أنحاء الدنيا، فليسامح الله مثل هؤلاء الأطفال .. وعلى الدنيا السلام.

ثم مطّت شفتيها ، كأنها تغلق باب الحديث مع زوجة أخيها التى ردت عليها بكلمات ، تحمل معان خفية وهى تهز رأسها قائلة :

– أنت الآن وحيدة ، لهذا تنتقدين تصرفات الأطفال مهما كانت ، لكن كل هذا سينتهى حين تدخلين بيت العدل يا أختى ، ويمتلئ بيتك بالأطفال الذين سينزلون عليك نزول المطر.. عندئذ سنسألك عن حال روضتك !!

ألقت " وردة " بأوراق اللعب هنا وهناك ، تبعثرها ، دون إظهار أى نوع من الخجل أو الحياء وهى تقول :

– لست من القائلين بزيادة أعداد الشيالين والحمالين فى هذا العالم .

وكانت عادة تلقى بأوراق " الكوتشينة " هنا وهناك فى مثل حالة الاضطراب تلك، بينما زوجتا أخويها تلزمان الصمت، وهما مضطربتان..

وحين يغنى المذياع أغنية حسنين ومحمد، أو أغنية طفلان يكفيان.. إلخ

تجلس وردة بجوار زوجة أخيها ، تدلك لها قدميها و هى تقول لها :

- اسمعى !

فتضحك زوجة أخيها ثم تقول :

- وردة ! ارضى بنصيبك .. وتزوجى كما يتزوج البسطاء ، وسوف نراك بعد الزواج .. كيف ستضعين " فل ستوب " على الخلفة ، وكيف ستتوقفين عن إنجاب الأطفال ؟

* * *

كان جنيد يعد من أكثر موظفى شركة الإعلانات هذه من حيث الكفاءة والنشاط ، وقد حقق خلال السنوات الخمس الماضية مكانة مرموقة ، ومركزًا متقدمًا فى إدارة الشركة ، بشخصيته الجذابة ، ونشاطه المتواصل ، وعزيمته التى لا تعرف الملل ، والآن يتقلد منصب مدير فرع الشركة فى لاهور ، كانت وردة محل اهتمامه ، فقد كان يرى فيها الفتاة الذكية المجتهدة ، التى يمكن أن يثق بها ، ويعتمد عليها ..

ظل الاثنان لفترة طويلة يحيطان شخصيتيهما بسياج حديدى ، حتى صارا كالغرباء ، كل منهما يؤدى عمله فى صمت ، ولا تتعدى علاقتهما حدود العمل .

فى الحقيقة كان جنيد طول هذه المدة يختبر " وردة " ، ويحاول أن يقيِّم شخصيتها ، فهو من واقع تجربته يرى أن النساء اللاتى يقضين معظم وقتهن فى مكاتب الرجال ، ومجالسهن ، يفقدن سريعًا أنوثتهن ، ويعتبرن المرأة التى تفضل حياة البيت ورعاية الأسرة أسوأ من الدجاج ،

كما أنهن ينفرن حتى من حضور حفلات الزواج ، ولهذا فمثلهن لا يمكن أن يصبحن زوجات طيبات.

لكن خلال السنوات الأربع التى مضت ، كانت " وردة " تتجنب أحاديث المكاتب ، والاختلاط الذى لا لزوم له ، وهكذا لم تسمح للصدأ أن يتكون على جاذبية أنوثتها ، فكانت فى معظم أوقات فراغها تنشغل بغزل " بلوفر " أو "سويتر" لابن أخيها أو ابنة أخيها ، كان جنيد يشاهدها فى هذا الوضع ، فيضطرب قلبه ، كان يحاول أن يتطلع من مكتبه على الغرفة التى تجلس فيها "وردة " وذلك من خلال النافذة المشرعة ، التى تطل على الغرفة التى تجلس فيها وردة ، وكانت السعادة تغمره إذا ما كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها ..

وحينما كانت وردة ، تمسك بالمشط ، تسوى شعرها ، كان قلبه يموج بمشاعر غريبة ، وهو الذى رأى الكثير من الفتيات الأوربيات ، لأن طبيعة عمله كانت تفرض عليه السفر كثيراً إلى بلدان أوربا ، لكن نساء أوربا لم يعجبنه أبداً .. كم من نوات العيون الزرق تتبعنه ، وحاولن النيل منه ، لكنه كان واضحاً وصريحاً ، فنجا من شباكهن .

كان الوقت صيفاً ، فى شهر يونيو ، وكانوا مشغولين فى إغلاق حسابات المكتب ، لم يكن يشعر بمرور الوقت ، فقد كان يراجع الميزانية بأرقامها الممتدة على طول صفحات الدفاتر المكومة أمامه ، كما كان يراجع التقارير المتعلقة بحسابات الميزانية .. وفجأة دخل أحد المحاسبين فى الغرفة ..

– سيدى دقت الساعة السادسة.. لن أستطيع اللحاق بالحافلة ..

فتأوه جنيد وقفز من مقعده قائلاً :

- يمكن أن تذهب .

نطق بهذه العبارة وهو يمسح زجاج نظارته ، وبعد خروج المحاسب قال لوردة :

- آسف يا وردة ! ! لم أنتبه ، لقد تأخرت كثيراً ، لقد حل الظلام .. سوف أوصلك بنفسى ..

- لا عليك يا سيدى !

ردت عليه وردة بلهجة كلها دلال .. فانصرف جنيد إلى عمله ثانية .

بعد قليل حين دق الجرس ، يطلب من العامل أن يحضر من المطعم الموجود فى أسفل المبنى بعض السندوتشات ، أخبره العامل أن السماء تمطر .

كان المطر هو نقطة الضعف عند جنيد ، كان منذ طفولته يعشق الفسحة أثناء هطول الأمطار ، وكان يتمتع بذلك كثيراً ، فى ذلك الوقت أيضاً قفز من على الكرسى وهو يقول فرحاً :

- هيا يا آنسة وردة سوف أجعلك تتفرجين على بلاد الله وسط هطول المطر .

قال هذا وهو يرفع معطفه المعلق على الشماعة ، ثم يرتديه بسرعة ، ويلملم الأوراق ويغلق الأبواب ، ويخرج فى معية وردة من المكتب ، ووصل إلى أسفل المبنى بعد أن نزل على السلم الضيق الطويل ، واندفع يجرى ناحية السيارة كطفل فى العاشرة من عمره ، فتح الباب وشغل الموتور

وحرك السيارة حتى باب المبنى ، بجوار الرصيف ، حيث كانت وردة فى انتظاره ، أعاد تحريك السيارة حتى تتمكن وردة من أن تركب فى الكرسى المجاور له ، ثم فتح الباب وهو يقول :

- هيا تعالى يا وردة .. أسرعى !

وفى لمح البصر ، كان يقود سيارته ، متجهًا إلى شارع المال فى وسط لاهور .

كانت السماء الملبدة بالغيوم تمطر بغزارة ، وهكذا تجمع المارة عند مداخل المحلات ، والطرق المؤدية إليها ، هروبًا من ماء المطر ، أوقف جنيد سيارته عند " دكان " مولا بخش بنوارى وقال :

- اثنين " بان " (أى ورقتى تنبول تمضغ فى الفم بعد إضافة بعض التوابل إليها)

فنهض الرجل الذى يعد أوراق " التنبول " وقال بلهجة خشنة :

- يا سيد اتنين إيه ! قل عشرة .. كله جاهز ، لكن كيف يمكننى أن أعبر هذا النهر؟!

تكون نهر صغير بين الدكان والشارع ، فقال جنيد مازحًا :

- يا باشا أنت يا باشا ! بربط فى الماء ، وغوص برجليك وتعال ، فهذا ربيع موسم المطر ..

وضع ورقة التنبول فى فمه وأخذ يمضغها بلذة ، وعرج تجاه فندق " هيلتون " ، حيث أخذ بعض الساندويتشات والقهوة ، وأخذ يدندن كأنه يحلق فى عالم من الفرح والسعادة .. " استحمى أيتها الفتاة فالسماء

تمطر " وظل يردد مطلع الأغنيـة كأنه في حـالة وجد ، وبعـد فتـرة طويلة وقعت عيناه على " وردة " فغطت حمرة الخجل وجهه فجأة ، حتى صار لونه مثل لون الورد البلدى ..

– أوه ! آسف لم أنتبه أن بجوارى جنس لطيف !

ثم ابتسم وقال :

– هل سبق لك الاستحمام تحت مياه المطر ؟ !

فسحبت " وردة " طرحتها لتغطى بها جزءًا من وجهها خجلاً وهى تقول :

– لا .. لم يحدث هذا أبداً ..

فرد عليها بشكل عفوى قائلاً :

– يا لك من فتـاة ظالمة ! مـرة واحـدة جربـى ذلك .. ستـشـعـرين بسعـادة غامرة ، كم مرة ذهبت فى طفولتى عند النهر لأسبح فيـه عند سقوط المطر .

بعـد ذلك اليـوم ، صـار من عـادة جنيـد أن يصطحب " وردة " فى سيارته إلى بيتـها ، ومـع مرور الأيام تعرف على أهل بيتـها ، وبسرعة تركت " وردة " العمل فى المكتب لأن زوجها المحترم جنيد لم يكن ليقبل أن تعمل زوجته ضاربة آلة كاتبة .

* * *

أقامت "وردة" مع جنيد فى " فيلا " جميلة فى أرقى أحياء المدينة ، كانت " وردة " تعيش حياة هادئة مطمئنة ، وكان كل اهتمامها منصبًا على ترتيب البيت وعلى زينته ، فكانت تقضى معظم يومها فى ترتيب كل ركن فيه ، وتزيينه بشتى الطرق ، ستائر فخمة من كل نوع ، سجاجيد عجمية نادرة ، وتحف وأدوات زينة لا حصر لها ...

فى بيتها هذا كان بعض أفراد أسرتها يتجمعون لديها ، لكنها كانت فى كل مناسبة تشعر بالقلق الشديد ، فكانت دائمًا تضع عينيها على " مومو " و " فيصل " و " سنبل " و " ناهد " وكانت دائمًا تحذرهم :

- انتبهوا ... هنا ... ناحية الشمال ... لا تلمسوا المزهريات ، لقد أحضرها جنيد من باريس ، انتبهى يا ناهد ، نظفى حذاءك جيدًا قبل أن تمشى على السجاجيد ..

وهكذا عاشت أيامها على أكتاف الرياح، فى سعادة غامرة، وهناء ، وطمأنينة ، وفجأة بدأت تذبل ، وتتغير ، وحين ابتسم لها الطبيب وهو يخبرها بأنها حامل ، عقدت وجهها ، وزمت شفتيها قائلة :

- يا إلهى ! هل سأعانى من هذه الحياة الشاقة مثل زوجتى أخوى ..

هكذا فكرت ، وتملكها مثل هذا التفكير على الدوام ، حتى صار أمرًا مؤلمًا لها ، فقالت لجنيد :

- لا أريد أن أربك نفسى بسرعة بإنجاب الأطفال وتربيتهم..

وكان جنيد يسمع منها هذا الكلام ، فتعصره الآلام ، ويحاول أن يفهمها :

- اسمعي يا وردة ! لا يجب أن نتدخل فيما يقدره الله لنا .. ثم إن الأطفال رحمة من عند الله.

لكن مسألة "تنظيم الأسرة" كانت تطغى تمامًا على ذهن "وردة" ، وفي النهاية قامت بإسقاط جنينها في عيادة خاصة بإحدى الطبيبات !

طبقًا لحساباتها كانت تعيش حياة سعيدة ، وكانت تشعر بأن الحياة سهلة بالنسبة لها وهي تعيش وحيدة ، لكن بعد مرور خمس سنوات ، بدأت تعاني من نوبات قلق ، وضغط ، فاستشارت أكبر الأطباء وأمهرهم ، فقالوا لها إن يد طبيبة غير ماهرة ، عديمة الخبرة ، ظالمة ، قد أصابت المنطقة الحساسة في جسمها بالعطب ، وعليه فيجب عليها ألا تأمل مطلقًا في إنجاب أطفال ...

ثم أخذها جنيد إلى أمريكا ، وبعد إجراء فحوصات عديدة ، أعطاه الأطباء هناك تقريرًا مطابقًا للتقرير الذي استلمه من أطباء وطنه .

عادت " وردة " من أمريكا ، وذهبت إلى بيت أهلها حتى تقضي عدة أيام ، تحاول فيها أن تنسى آلامها وحزنها ، وفي المساء حين يرتدي الأطفال ملابسهم الملونة ، ويجرين هنا وهناك كالفراشات ، تظل تتطلع إليهم في حسرة .

ذات يوم كانت تجلس على الأريكة حين بدأ فيصل ومومو الملاكمة ، وفجأة سقطت " مزهرية " غالية من على الطاولة ، نتيجة اندفاعهما معًا ، فتهشمت "المزهرية" الغالية ، فجرت زوجة أختها ، وأمسكت بفيصل ، وبدأت تضربه ، فاندفعت وردة ، لتخلص فيصلاً من قبضة أمه ، وضمته إلى صدرها وقالت :

– يا زوجة أخى ! ما ذا بك ؟ ماذا تساوى هذه المزهرية مقابل طفل ، لا يوجد هناك ما هو أغلى ، أو أثمن من طفل !!

قالت هذه العبارة وانخرطت فى البكاء ، بينما ظلت زوجة أختها تنظر إليها فى دهشة واستغراب ، ثم قالت لها :

– " وردة " كنت تريدين البقاء دائمًا بعيدًا عن الأطفال وهوسهم .. أين ما يسمونه " تنظيم الأسرة " ؟!

فقالت وردة :

– آه ! لا شىء .. كان هذا كله سرابًا يا زوجة أخى .. مجرد خداع ..

تمت

الحب أشكال وألوان

سيد جاويد أختر

كان هذا هو اليوم الثالث على اعتزال "رمضان الأهطل" لأهل بيته ، كان قد جاء منذ مساء أمس ليقيم فى غرفة "الخزين " المبنية فى " الجرن " البعيد عن ساحة البيت ، حتى لا يتشاجر مع أهل بيته مرة تلو الأخرى .

ومنذ أن مرضت " خليلته " ، ثم افتكرها الله ، فانتقلت إلى عالم الآخرة ، وولداه قد نسيا تمامًا فرض طاعته ، وصارا فى غاية الوقاحة بل ركبا دماغهما ، وصارا عنيدين، والأدهى والأمرّ من هذا أن زوجته بنت الواحد والعشرين سنة ، زينب التى تقضى معه حياة زوجية طيبة ، صارت متواطئة مع ولديها ، وبدأت تعارضه أيضًا ، وتتكلم عنه ، وقد اتفق الجميع على أن صدمة موت " خليلته" أصابته بالخبل أو الجنون .

هذه " الخليلة" التى هى أحب إلى رمضان الأهطل ، وأعز عليه من روحه هى " الجاموسة " التى شاع أمر حب رمضان لها فى جميع أنحاء القرية بل وفى نواحى المركز أيضًا ، وكان حكماء القرية يقولون إن هذه

حادثة فريدة تعبر عن حب الحيوان للإنسان ، فقد سمعوا عن حكايات ارتباط الخيل والكلاب والقرود والفيلة الشديد بإنسان ما ، لكنهم لم يشاهدوا مثل هذا الحب الشديد الذى ربط بين رمضان و" خليلته" ، وكان الشيخ سردار إمام مسجد القرية يظن أنه نظراً لتشابه الألوان بين رمضان الأهطل صاحب الوجه الأبيض المحروق ، والجاموسة ذات اللون الأحمر المائل إلى السواد ،فقد أحب كل منهما الآخر .

كانت " خليلة " رمضان الأهطل منذ مولدها حمراء حمرة يشوبها السواد ، ولم يكن هذا بالأمر المستغرب ، فبعد ، مولد عشرة أو خمس عشر جاموسة سوداء ، قد تولد جاموسة حمراء اللون ، وإن كان لونها يشوبه السواد ، ولم يكن الأمر كما قال الشيخ سردار إمام المسجد ، فرمضان الأهطل فى طفولته ، ونظراً لأشعة الشمس المحرقة ، فقد تأثرت يداه وقدماه وجزء من رقبته ، بحرقة الشمس التى تركت أثرها الطبيعى عليه ، فتحول جسمه من اللون القمحى - بقدرة قادر - إلى اللون الوردى ، مما جعل شكله يبدو عجيباً لمن ينظر إليه ، بل جعلت هيئته تلك ، الناس يضيفون على اسمه منذ طفولته صفة الأهطل ..

فى البداية كان يتأذى كثيراً ويغضب ، إذا ما أضاف شخص ما هذه الصفة على اسمه ، لكنه بالتدريج سلم بهذه الحقيقة ، ولم يعد يتضايق إذا ما ناداه أحد باسم رمضان الأهطل ، كان الناس فى البداية يذكرونه بهذا الاسم خفية من وراء ظهره ، لكنهم الآن يقولونه فى وجهه ، حتى زوجته زينب كانت تناديه بهذا الاسم بشكل طبيعى جداً ودون أى حرج .

كان رمضان الأهطل طيب القلب ، محبًا للخير ، لا يتمنى الشر لأحد ، يداوم على الصلاة ، وكان تقيًا ورعًا ، يسعى إلى مصالحة الآخرين ، يشاطر الجميع أحزانهم وأفراحهم ، وهو معهم فى السراء والضراء ، ومع هذا لم يكن صاحب حظ أو نصيب طيب ، هكذا شاءت الأقدار أن تموت أمه بعد أن أنجبته وحيداً ، بعد زواجها بسنوات ، وحين بلغ العاشرة من عمره ، كان قد انتقل إلى الصف الخامس فى مدرسة القرية، وشاء القدر مرة أخرى أن يحرمه من أباه الذى مات متأثراً بلدغة ثعبان سام ، حين كان يروى الحقل فى الليل ، وقبل أن ينسى الحزن على وفاة والده ، شب حريق فى بيت عمه ،حيث كان قد انتقل ليقيم هناك ، ونجا من الموت بأعجوبة ، وقد ظهر فيما بعد أن العم كان يطمع فى القراريط الثلاثة التى تركها أخوه لابنه ، ولهذا دبر مؤامرة الحريق ليقضى على ابن أخيه ويستولى على القراريط الثلاثة ، وكان شيخ البلد رجلاً صالحًا تقيًا وورعًا ، فاحتضن رمضان ، وتولى علاجه من الحروق التى أصابته، ثم أسكنه فى بيته.

كانت " خليلة" رمضان أى الجاموسة فى الأصل ملكًا لشيخ البلد ، وكان رمضان يسرح بها مع بقية المواشى ، يرعى العشب هنا وهناك فى نواحى القرية ، لكن كيف بدأت الصداقة بين هذه "الخليلة " وبين رمضان الأهطل ؟! لقد قيلت حكايات وقصص كثيرة على ألسنة كثير من الناس عن هذه البداية ..

ولا تزال الحكايات تروى عن هذا الأمر حتى يومنا هذا ، ويحكى أنه منذ حوالى عشرين سنة فى عز الصيف ، وفى وقت الظهر ، بينما كانت الأبقار والجاموس ترعى العشب على شاطئ نهر "شِشماهى " ،

اشتدت الحرارة لدرجة الناس غرقوا فى العرق الذى كان يتصبب من أجسامهم .. فجأة جاء على خاطره أن يستحم ، وأعجبته الفكرة أيما إعجاب ، فقد كان الماء بموجه الهادئ الذى يربت على الشاطئ يدعوه للاستحمام .. لكنه لا يعرف العوم ، ومع هذا فكر فى أن يجلس على الشاطئ ، ويبرد جسمه ببعض الماء ..

لم يكن حوله أحد ، ولا " نفّاخ النار " ، وهكذا فك حزام سرواله، خلع قميصه ، وخلع السروال ، ثم جعل من عمامته رداء التف به ، وزحف على الحشائش الخضراء إلى أن وصل إلى حد الماء ، وأخذ يغرف الماء ، يرش به جسمه ، وشعر بسرور عجيب ، وهكذا ظل لفترة طويلة يلعب فى الماء ، يحاول أن يتخلص من حرارة الشمس المحرقة .

فجأة ! انزلقت قدماه من فوق الحشائش المبتلة ، ووجد نفسه فى لمحة واحدة يسقط فى النهر ، ثم ماذا حدث ؟ لقد أخطأ خطأً كبيراً ، حاول أن يضرب بيديه ورجليه هنا وهناك فى محاولة للإمساك بالحشائش ، لكن دون فائدة ! فقد جرفته سرعة الماء فوراً إلى عرض النهر، حيث الماء العميق ، وبدأ الماء يدخل حلقه ، وحين رأى أنه يواجه الموت لا محالة أخذ يصيح ويصرخ : " النجدة ! النجدة !" لكن من أين له من يأتى لإنقاذه ؟! .. لم يكن هناك من أحد على الإطلاق .

لا يزال يذكر حتى اليوم منظر ماء النهر القريب من القاع ، فى عز الظهر ، وفى فصل الصيف ، كانت هناك دقائق تفصل بين حياته وموته ، دقائق معدودة ، وهى الدقائق التى كان يتمكن فيها من إخراج رأسه من تحت الماء ، فى محاولة منه لإنقاذ نفسه ، وبينما هو كذلك شاهد بعينين عليها سحابة كثيفة ما يشبه " خليلته " الجاموسة تقفز فى النهر ،

ظل للحظات مثله مثل علبة لا حول لها ولا قوة تتحرك هنا وهناك مع موج ماء النهر، وفجأة وجد نفسه يصطدم بشيء ضخم ، شعر كأنه بجوار حيوان ما ، لا بد أنها "خليلته " التى قفزت فى الماء منذ لحظات ، قامت الجاموسة بحركة لا يعلم إلا الله كيف قامت بها ، فقد وضعته على رقبتها ، وأخرجته من قاع النهر إلى سطح الماء ،وأخذت تسبح بينما هو يمسك بشدة بقرنيها ، حتى وصلت به إلى الشاطئ.

حين وصل إلى الشاطئ نط من فوره ، واستلقى على الحشائش وهو يضغط على بطنه حتى يخرج ما بداخله من ماء ، وخرج الماء من بطنه على عدة دفعات ، كما يخرج الماء من فوهة " مضخة " ماء ، ثم جلس على ركبتيه فى محاولة منه لاسترداد عافيته ، بينما " خليلته " بجواره تهز رقبتها فوق وتحت فى قلق عليه شديد ، وقطرات الماء تنساب من فوق جسمها .

كل هذا بينما كانت هناك تسع جاموسات سوداء ، مع ثلاث من ولدانها ، وعدد من البقرات ترعى على بعد مسافة قصيرة منه ، لا يبدو عليها أى تأثر أو اهتمام بما حدث، لم يفكر فى إنقاذه سوى خليلته تلك ، التى لم يزد عمرها على سنتين أو سنتين ونصف ، فهى لم تكد تشب وتصبح جاموسة بالغة إلا وقد عرفت معنى عواطف المحبة والتضحية ، فكيف جازفت بنفسها لتنقذ إنساناً من فك الموت ؟ كيف تولدت بداخلها هذه العاطفة ؟ ... لم يستطع أن يفهم ما حدث ؟ ولم يتمكن من أن يجد تفسيراً له..

تنهد تنهيدة طويلة .. تنهيدة الحياة .. ثم وجد نفسه يحتضن رقبة خليلته الجاموسة ، وانتقل إلى صرتها - حيث الحبل السرى - يقبلها

بجنون ، ثم أخذ يحك رأسه فى رقبتها ، ويربت عليها براحتيه فى سرور ومحبة .

فى ذلك اليوم رجع بالمواشى من المرعى مبكرًا ، فتحير شيخ البلد من هذا الأمر كثيرًا ، وتحير أكثر حين سمع القصة ، وقرر أن يهديه هذه الجاموسة فرحًا بنجاته من الغرق .

أخذ رمضان الأهطل نفسًا عميقًا وهو يقول فى نفسه :

- يا له من إنسان طيب شيخ البلد هذا !!

ثم وضع خرطوم النارجيلة فى فمه وسحب نفسًا من بعد آخر ، بينما صوت " الكركرة " ينبعث فى تناغم عجيب ، ثم تذكر أن شيخ البلد هذا هو الذى زوجه من زينب ، وهو الذى رتب أمر زفافه ، وحفل عرسه ، فلم يكن يمتلك شيئًا ، وكما يقولون :

- لا وراءه ، ولا قدامه ..

ثم انقطعت العلاقة بينهما ، لأن شيخ البلد تمكن من رفع قضية فى المحكمة ، وأعاد لرمضان الأهطل قراريطه الثلاثة التى ورثها عن أبيه ، وفى السنة الأولى التى حملت فيها " خليلته " أول حملها ، توفى شيخ البلد ، بعد أن تعرض لحادثة أثناء عودته من لاهور .. كم عم الحزن والغم احتواه آنذاك .. كانت فجيعة ما بعدها فجيعة .. وهكذا وفى شتاء نفس العام ، وبناء على إصرار زينب ، انتقل رمضان الأهطل إلى حيث يعيش أهل زوجته .

باع أرضه ، ثم اشترى أرضًا جديدة ، ثم أسس هذا " الدوار " الفسيح ، وهنا رزقه الله بولدين مطيعين ، مخلصين ، فى السنة الماضية

تزوج ولده رشيد بزوجة سمحة الوجه ، هشاشة بشاشة ، تقوم على خدمته خير قيام ، وهكذا مرت عليه واحد وعشرون سنة ، كانت كلها سعادة وهناء ، وطمأنينة ورخاء ، حتى مرضت "خليلته" فجأة ماتت ، ومن وقتها كأن عين سوء أصابت أسرته وبيته ..

وبينما كان يضغط على خرطوم النارجيلة وهو يسحب نفساً من بعد نفس ، والدخان يتصاعد أمامه ، وهو غارق بطريقة لا شعورية فى ذكريات الماضى ، إذا به يسمع صوت أسلم ولده الأصغر :

– أبى ! " كرسى " الدخان ليس فيه نار ، وأنت تسحب الأنفاس هكذا دون دخان !

أخذ الابن كوب الشاى ، أمسكه بيده .. ووقف عند الباب وهو يبتسم ، ثم خطا خطوة للأمام وقال لأبيه :

– خذ ! اشرب الشاى .. سوف أقوم بتغيير كرسى الدخان وأضع عليه الفحم ..

– لا .. يا طيب ..لا ضرورة لذلك .

هكذا خاطب رمضان الأهطل ولده أسلم ، فكان يقول له دائمًا يا طيب .

فقال له أسلم وهو يضغط على كلماته :

– يبدو أنه لم يرجع إليك عقلك ..

ثم أكمل حديثه قائلاً :

– أبى ! حبك لخليلتك تلك أمر فى محله .. خلاص ! لكن يجب أن تساير الزمان ، فلكل وقت أذان .. خذ ! اشرب الشاى ..

أمسك رمضان الأهطل بكوب الشاى ، ثم أخذ يرتشف رشفة بعد رشفة بصوت مسموع ، ثم توقف وقال فجأة :

– أنت تعلمت حتى الثانوية ، تعلمت أكثر منى ، لهذا تعتبرنى جاهلاً وتهزأ منى !

فرد عليه أسلم بلهجة ممزوجة بالحنان :

– لا يا أبى ! ليس الأمر كذلك ... لكن عليك أن تفكر بنفسك ، أليس كلامك هذا عجيبًا ؟ لو سمعه الناس لسخروا منك .. ثم انظر ! نحن لم نذبح خليلتك الجاموسة بناء على أمرك ، ودون ما سبب ماتت الجاموسة " فطيس" ... و ...

فاشتعل الأب غيظًا وقاطع ولده قائلاً :

– لماذا تعيد وتزيد فى قولك ماتت " فطيس " ، إن الإنسان يموت موتة طبيعية بعد مرضه دون أن يذبحه أحد ، فهل هذا يعنى أنه مات "فطيسًا" .. أنتم أيها الناس ! منطقكم عجيب .. يا أهبل ! " خليلتى " هذه لم تكن حيوانًا عاديًا مثل بقية الحيوانات ، لقد أحببتها مثل أمى تمامًا ، أنت تعرف أنها قبل عشرين سنة أنقذت حياتى ، ولو كنت غرقت فى نهر "ششماهى" فى ذلك اليوم ، لما كنت ولدت أنت نفسك .. فمن أين كنت ستأتى ؟!

– صحيح كلامك يا أبى .. لكن فى ديننا نحن نسمى على الحيوان ونكبر ، ونذبحه ويحل لنا أن نأكل لحمه، الشيخ سردار يقول هذا أيضًا..

فانتفض رمضان الأهطل قائلاً :

– غلط .. كلام الشيخ غلط ..

فقال إسلم بلهجة فيها مرارة :

– حسنًا ! لماذا دفنتها وبنيت لها قبرًا، ووضعت على قبرها الزهور؟ ما ضرورة كل هذا ؟ إن الناس يتندرون عليك ، ويسخرون مما تفعل..

فقال رمضان الأهطل بصوت خافت :

– يا بنى ! ألم أقل لك .. لقد كانت مثل أمى ...

ثم أردف يقول :

– ... كنت ابن ستة أشهر .. ربما .. حين رحلت جدتك عن هذه الدنيا ، وخليلتى هذه ، جاموستى حبيبتى صارت أمى وأرضعتنى مدة واحد وعشرين سنة ! حملت خلالها خمس عشرة مرة ، وتكاثر أولادها فعم الخير ، وجرت أنهار اللبن ، ماذا كنت أكسب من الأرض..؟ يا أحمق ! يا مجنون ! هذا الكسب الذى حققناه كان من لبنها ، وهذه الثروة التى كسبناها كانت من ورائها ، ألا يكون من حقها علىّ أن أجعل منها أمًا ، أبنى لها قبرًا ، وأضع عليه باقة من الزهور؟!

– نعم ! نعم ! لم لا ؟ لك كل الحق فى هذا ..

هكذا قالت زوجته زينب التى كانت تسمع حديث الابن مع أبيه ، وهى تقف بجوار الباب ، فدخلت ، وقالت بلهجة غاضبة :

– ضع الزهور على قبرها ، زيّنه بالورود ، وضع التراب على رؤوسنا ، سوّد عيشتنا ! اسمع يا رمضان يا أهطل ! لقد تحملت طوال

حياتي تدليلك لخليلتك ، تلك الجاموسة ، ومسلكك العجيب تجاهها ، وكنت أعد لها طعامها ليل نهار ، وأنظف روثها طول النهار والليل حتى لا يتسخ المكان وتصبح رائحته كريهة .. و ..

فقاطعها رمضان الأهطل مذكرًا إياها قائلاً :

- لقد كنت أقوم أيضًا بكل هذه الأمور ... خليلتي هي خليلتي ، هكذا كانت ، لا يمكن أن تولد في هذه الدنيا جاموسة محبة مثلها حتى يوم القيامة ..

ثم قال :

- حسنًا .. هذا كذب ! أتتذكرين حين جاء إلى " دوار بيتنا " هذا لصوص ، وكان عندنا خمسة أو أربعة جاموسات ، وعدد من الخراف ، ماذا حدث في ظلمة الليل ، دخل اللصوص ، وكادوا أن يهربوا بالجاموس لولا هجوم " خليلتي " عليهم ، وسماعنا لصوت الصياح ، فاستيقظنا ، وفر اللصوص ..

ثم صرخ رمضان قائلاً :

- ومرة كادت كلاب القرية المجاورة أن تنهش لحمي لولا دفاعها عني ، فقد ضربت الكلاب المؤذية بقرونها ، بل رفعتها إلى أعلى وضربتها في الحائط .. هذه هي خليلتي ، جاموستي ، حبيبتي !

فصرخت زينب قائلة :

- خلاص ! الآن أنت تسبح بحمد خليلتك ، وأنت تجلس هكذا وحيداً في محرابها ، ألا يهمك أمر جاموسة أخرى دون قرون ، أنا الآن

حامل ، على وشك الإنجاب ، أنا ذاهبة .. وراءى عمل كثير .. ماذا يهمك أنت ؟

فقال أسلم :

- أنا أيضًا ذاهب يا أمى ! فأبى يشد نفسًا من بعد نفس بينما الدخان قد انتهى ، كما انتهى الفحم من حجر النارجيلة ..

وحين ذهب الابن مع أمه قال رمضان الأهطل لنفسه :

- هؤلاء الظلمة لا يريدون السماح لى بالحزن على خليلتى .. لكنى سوف أقيم عزاء الأربعين لها ..

بعد نصف ساعة أو أكثر رجع أسلم ، ومعه شميم زوجة أخيه ، وقد نظفت النارجيلة ، وغيرت الماء بداخلها ، ونظفت الحجر الذى يوضع فيه الفحم مع الدخان ، أما رمضان الأهطل ، فأقبل على النارجيلة يسحب نفسًا بعد نفس بشدة، مثل صقر جائع ، وقع فجأة على فريسة ، وبدأ الدخان يتصاعد ...

وحين شعر بقليل من النشوة قال :

- لا بد أن أقيم الأربعين لخليلتى ..

انفجرت شميم ضاحكة حين سمعت هذه العبارة

فانتفض رمضان الأهطل يسألها :

- ماذا يا بنت أنت ! على أى شىء تقهقهين ؟

فردت عليه شميم ، وهى تحاول أن تكتم ضحكاتها:

- يا أبى هل ستعمل للجاموسة أربعين ؟!

فسحب رمضان الأهطل خرطوم النارجيلة وقال :

– يا لك من مجنونة !

فقال أسلم :

– لا يا أبى هى ليست بمجنون ، المجنون هو من يقول ما قلت .. هل رأينا من قبل من يقيم عزاء لبقرة أو جاموسة ، أو يقيم الأربعين لوفاة حيوان ما .. لا أدرى ماذا أصاب عقلك ؟

حرك رمضان الأهطل رقبته مثل جمل يتمطى ، بعد أن فوجئ بالسؤال ، وتغير لون وجهه من فرط غيظه .. فقال أسلم مستفسراً باستخفاف :

– من الواضح أن الحيوانات لن تأتى يوم الحشر ومعها كتابها ، كما أنها لن تذهب لا إلى الجنة ولا إلى النار .. ولهذا ..

فاستشاط الوالد من كلام ابنه ، وصرخ فى وجهه قائلاً :

– حسناً .. أنهار اللبن التى فى الجنة .. يا أحمق ! لبن من ؟! غير لبن البقر والجاموس ..

عندئذ ضحك أسلم وشميم معًا ، واستمرا فى الضحك حتى كادا أن يسقطا على الأرض ، بينما استمر رمضان الأهطل فى كلامه :

– يا أيها البلهاء ! لقد حصلت على شهادة الإعدادية ، لو أن من الممكن لكلب أصحاب الكهف أن يذهب إلى الجنة ، فلماذا لا يمكن لخليلتى ، جاموستى ، أن تذهب إلى الجنة أيضًا ؟ ذلك لأننى أقرأت على روحها القرآن الكريم ، وأوصلت لها الثواب .

حاول أسلم أن يتماسك ، ويعبر لأبيه عن رأيه في جدية تامة :

– أبى ، أنا أشك أن صدمة وفاة " خليلتك " قد أثرت عليك ، جعلتك شبه مجنون ، يجب علينا أن نطلب لك الطبيب .. نحن جميعًا قلقون من أجلك .

فقال رمضان الأهطل ساخرًا متهكمًا :

– طبيب .. ماذا يفعل لى الطبيب؟ مثلما عالج الدكتور رانا محمد " خليلتى " لم تأكل المسكينة الطعام مدة شهر كامل ، حتى الشرب أيضًا لم تشرب شيئًا ، وأخذ يعطيها حقنة من بعد حقنة ، وقلت له ألف مرة أن يعمل لها أشعة " إكس " حتى يمكن التعرف على المرض ..

لم تتمالك شميم نفسها وحاولت أن تكتم ضحكاتها ، فوضعت طرف " الإيشارب " فى فمها لتكتم الضحك ، ثم أخرجته من فمها وهى تقول :

– يا أبى العزيز ! أشعة إكس للجاموسة ؟

ثم ضغطت على أسنانها ثانية، وهى تعض على طرف "الإيشارب" ، تكتم ضحكاتها ، ولم يستطع أسلم أن يدارى ابتسامته العريضة ، لم يكن يدرى هل يضحك أو يبكى على حالة والده ، لكنه قال :

– يا أبى ! الدكتور رانا عطا محمد هو أمهر طبيب بيطرى فى مدينة بهاولبور ، وبناء على كلامك طلبته هنا أكثر من مرة ، فى الحقيقة مرض " خليلتك " كان تقدم العمر ليس إلا ، وهو مرض الشيخوخة ...، كان عمرها أربع وعشرون أو خمس وعشرون سنة ، كانت ستموت فى يوم ما .. أليس كذلك ؟! هيا يا أبى أمى والجميع فى انتظارك .

قالت شميم وهى تخاطب حماها بهدوء وتعقل :

- حسنًا يا والدى ! أخبرنى .. إنك تحب خليلتك كثيراً ، ولهذا صرت هكذا عاطفيًا للغاية ، ولا تفكر فى الجاموسة " مينى " مع أنها ابنتها .. ربما لأن قرونها ليست مثل قرون أمها !

فقال رمضان بلهجة ممزوجة بالحزم والشدة ، وهو يكركر ويسحب نفسًا قصيراً :

- هيا .. هيا اذهبى يا بنت ، لا توجعى دماغى !!

جاء ابنه الأكبر رشيد بطعام العشاء إلى أبيه ، كان مثل أبيه ، لم يتعلم إلا لسنوات قليلة حصل بعدها على الشهادة المتوسطة ، ولا شك أن جميع أعمال البيت تقع ضمن مسئوليته ، كانت أمه سعيدة به ومسرورة منه كثيراً ، وقد زوجته فى العام الماضى ، حين رآه أبوه صاح فيه :

- ارجع بالطعام يا رشيد ! لا أشعر بالجوع .

فقال رشيد بصوت متلجلج :

- ماذا ! إنك لم تأكل منذ ليلة أمس ، قالوا لى إنك لم تأكل اليوم أيضًا ، وشربت كوبين من الشاى ليس إلا .. يا أبت ! بالله عليك توقف عن هذا !

- أنا لن أموت ، ماذا لو توقفت عن تناول الطعام عدة أيام ..

هكذا رد رمضان الأهطل على ولده ..

- إن شاء الله أعداءك يا أبى !

قال الابن هذه العبارة ، ثم وضع الصينية التى حمل عليها الطعام أمام أبيه ، وبدأ يكشف غطاء الطبق الأول ، كان بداخله دجاج مطبوخ بالصلصلة ، وكشف غطاء الطبق الثانى فكان بداخله خبز ساخن أعد فى الفرن ، ثم خاطب أباه قائلاً :

– لقد عجنت أمي بنفسها هذا الخبز ، وأعدته لك فى الفرن ليكون ساخنًا، ويليق بهذا الدجاج اللذيذ.. هيا كُل... كُل .. ولا تخجلنا يا أبى .

فرد الأب على الفور :

– ماذا يخجلكم إذا بقيت جائعًا ؟ ثم هل الطعام يدخل بطنى أم يدخل بطونكم ؟

سأل رشيد أباه بلهجة كلها مسكنة وتضرع :

– يا أبى ! ماذا أصابك ؟ أركع أمامك راجيًا عفوك عنا .. هيا معى إلى صحن الدار ..

ثم أمسك بيد أبيه ، يقربها من فمه ، يشبعها لثمًا وتقبيلاً ..

قام رمضان الأهطل يضم إلى صدره ابنه البكر فى حنان ، وأخذ يمسح بيديه على رأسه ، وتحركت عاطفة الأبوة بداخله فقال :

– اسمع يا رشيد ! هل تذكر حين أحضرت إلى البيت بطتين بناء على رغبتك ، كنت فى ذلك الوقت طفلاً صغيراً ، فى الليل وضعنا البطتين فى القفص ، ثم أطلقنا سراحهما فى الصباح الباكر ، فقام ذكر البط بتحريك رقبته البيضاء ، يمدها إلى الأمام ، ثم انطلق يجرى ورائى ، فى ذلك الوقت كانت " خليلتى " جاموستى تشرب من حوض الماء ، وحين

شاهدتنى أجرى فى ساحة البيت ، جاءت بسرعة ، وضربت بقرنها ذكر البط ، دفاعًا عنى .

فهز رشيد رأسه موافقًا على قول أبيه قائلاً :

- نعم .. نعم يا أبى أتذكر..

فقال رمضان الأهطل :

- فى تلك الأيام كنت فى السادسة من عمرك . . ومع ذلك فقد كنت تدرك كم كانت تحبنى.. والآن ماتت .. ألا تعطوننى فرصة لإقامة عزاء لها..!!!

أراد رشيد أن يعيد لأبيه عقله ، فقال يحاول إفهامه :

- هل من الضرورى أن تقيم هذا العزاء ؟ .. لكن يا أبى لسنا بإنجليز، نحن مسلمون ، وإقامة قبور للحيوانات ، وقراءة الفاتحة على أرواحها ، غير جائز فى ديننا ، فنحن مسلمون يا أبى .

فرد رمضان الأهطل :

- هذه كلها دعاية يعملها الشيخ سردار إمام المسجد

وبينما كان هذا الحوار يدور بين الأب وابنه ، سمع صوت زينب يأتى من ناحية الشرفة ، وهى تصرخ تنادى على رشيد ..

فنهض رشيد وهو يخاطب أباه قائلاً :

- حسنًا يا أبى ! إن شعرت بالجوع فتناول الطعام.. أمى تنادى .. ربما تلد "مينى" عجلاً صغيراً الآن . فهى فى حالة المخاض ..

خرج رشيد من الغرفة ، بعد أن وضع صينية الطعام على طاولة مجاورة ، وكانت نكهة الخبز الطازج ، قد ملأت الغرفة ، لكن الشعور بالجوع تلاشى تماماً ، وسط الحزن على " الخليلة " الوفية ، لهذا لم يمد رمضان الأهطل يده إلى الطعام ..

فى الخارج كانت السماء صافية ، وقمر ليلة الرابع عشر يتوسط السماء فى منظر بديع ، لكن نسمات الهواء غابت عن الوجود ، لهذا قرر أن يقضى الليلة تحت المروحة ، ورغم أن النوم ابتعد عن عينيه آلاف الأميال ، مع هذا أطفأ نور مصباحين كهربائيين كانا يضيئا الغرفة ، ثم تمدد على الفراش ، فى البداية حلت الظلمة الحالكة جنبات الغرفة ، لكن بالتدريج ، بدأ ضوء القمر يتسرب رويداً رويداً إلى داخل الغرفة ، حتى صار كل ما فيها واضحاً إلى حد كبير ، فصدرت عنه آهة ، ممزوجة بالألم والأسى ، ثم أغلق عينيه . .

وبينما هو كذلك تخيل صورة " خليلته " بحسنها وجمالها ، بحوافر رجليها الأربعة ، وذيلها الطرى ، وقطعة البياض البراقة على جبهتها ، مع اللون الأسود البراق ، والعيون الواسعة الجميلة، وجسمها المتناسق ، وقوامها الجميل ، كأنها " قلة" ملتانية ، تروى العطشان ، قرناها الملتفان إلى الداخل فى شكل بديع .. كان أحياناً يتخيل أنه يحلب ضرعها ، أو يغطيها ، أو يقوم بإعطائها حمّاماً بارداً ، يغسل عنها أيضاً الأوساخ والأتربة ، ومرة قام الدكتور رانا عطا ملك بإعطائها حقنة فى الرقبة ، فما كان منه إلا قام بعمل مساج لها ، وفى الأيام الأخيرة حين تدهورت صحة " خليلته " المسكينة ، قام بتركيب " الجلوكوز " لها ، لكن المسكينة أصابها الضعف الشديد ، وساءت حالتها يوماً من بعد يوم ، وحين تخيل تلك الأيام ، لم يتمالك نفسه وفتح عينيه .

وهكذا مر من الليل أكثر من نصفه، ربما حرك جنبيه آلاف المرات ، لكن كيف ستمر عليه البقية الباقية من الليل ، يقولون إن النوم سلطان ! لكن رمضان الأهطل استمر يستعيد ذكريات خليلته حتى غلبه النوم فى النهاية .

كان من عادته طول عمره أن يفتح عينيه تلقائياً إذا ما أذن المؤذن فى الفجر ، فيبدأ الاستعداد لصلاة الفجر ، لكن الأمر اختلف اليوم ، فلم يتمكن مكبر الصوت الذى يحمل عادة صوت الشيخ سردار إلى القرية كلها من إيقاظه ، فأذناه أصيبتا بالصمم ، وكأنه أصيب بصدمة مفاجئة ، فظل طريح الفراش ممدداً ، مثل ثور أصيب بالإرهاق الشديد لا يقوى على الحراك ..

كانت الشمس على وشك الظهور حين قدمت زينب ومن خلفها ولدها شميم ، وصعدا إلى حيث كان رمضان الأهطل مستلقياً على الفراش ..

صرخ رشيد وصاح :

- أبى ! استيقظ يا أبى .. انظر ! ماذا أعطاك الله ؟

أخذ رمضان يتمتم بكلمات غير مفهومة ، ثم نهض من الفراش .. كان رشيد يحمل " زكيبة " كبيرة ، وهو ينظر إليها بتمعن شديد ، ففى نور الصبح الصادق من الله عليهم وضعت الجاموسة عجلاً صغيراً ، حمله رشيد فى حضنه ، وأخذه إلى الغرفة ليحاول تدريبه على الوقوف هناك ، وبسرعة أضاء المصباح الكهربائى ، فعم الضوء أركان الغرفة ..

قالت زينب وهى مبتهجة :

– يا رمضان يا أهطل ! افـرح .. ابسط وجهك سروراً وغبطة .. يا ظالم ! انظر " خليلتك " أنجبت .. انظر إليه إنه يشبهها تماماً .. الأرجل ، والذيل ، والجبهة تماماً مثلها ..

ثم أخذت زينب تتحسس كل جزء في جسم المولود الجديد

– يا أبى ! انظر.. هذا مولود "مينى" ابنة خليلتك، تماماً مثل خليلتك ..

هكذا قال شميم لأبيه ، وهو يفتح " الزكيبة " أمام أبيه :

– حين يكبر سوف يلتف قرناه مثل " المشّبك" الحلو.

نط رمضان الأهطل .. ونزل من على السرير، بينما كان الضيف الجديد يحاول أن يتماسك ، ليقف على أرجله الأربع ، في وقت غرق فيه رمضان الأهطل في عالم من الحيرة ، وكأن كيس جواهر انفتح أمامه فجأة ، فتلألأت الجواهر من داخله ..

اندفع رمضان الأهطل إلى ولده وقد ملأ الفرح قلبه :

– أوه .. يا رشيد ! صحيح .. هذه خليلتى ! تماماً .. نفس الجبهة .. نفس الذيل .. نفس الحوافر ..

وغرق رمضان الأهطل في عالم من الجنون ، فأخذ يلثم كل جزء في جسم المولود الجديد ، بينما امتلأت عيناه بدموع الفرح التى تساقطت على خديه كحبات لؤلؤ ... وهو يقول :

– أوه ! لهذا كانت " مينى " قلقة مضطربة ..

ثم بدأ رمضان الأهطل ينتعل حذاءه ، بينما انفجر شميم الواقف بجواره في الضحك !

تمت

كارمن

قرة العين حيدر

دقت الساعة الحادية عشرة ليلاً حين مرت بسيارة أجرة فى شوارع المدينة الصامتة لتتوقف أمام بوابة على الطراز القديم ، فتح السائق باب السيارة ، وبحركة ثابتة حمل حقيبتى ووضعها على رصيف الشارع ومد يده طالباً الأجرة ، فبدا لى رجلاً عجيباً إلى حد ما ... فسألته ببطء :

– أهذا هو المكان ؟

فأجاب باطمئنان :

– نعم

نزلت من السيارة ، التى اختفت فى ظلمة الحارة ، وبقيت واقفة على رصيف الشارع ، وسط جو من السكون مخيف ، حاولت أن أدير مقبض البوابة لأفتحها ، لكن يبدو أن البوابة كانت مغلقة من الداخل ، عندئذ حاولت أن أطرق النافذة الصغيرة المثبتة على البوابة.. فانفتحت النافذة بعد قليل ، فنظرت إلى الداخل مثل اللصوص ، فى الداخل شاهدت الفناء الذى كان معتماً إلى حد ما ، وهناك فى ركن منه جلست

فتاتان بملابس النوم ، تتحدثان فى همس ، وعند نهاية الفناء يوجد مبنى قديم ، جعلنى أتذكر على الفور مدرسة "سوق كهسياری" فى لكهنو ، حيث درست فيها وتأهلت لدخول جامعة بنارس ، التفت خلفى ناحية الحارة ، حيث كان الصمت قد أطبق على كل شيء .. وخاطبت نفسى :

– تخيلى أنك وصلت هنا إلى مكان بائعى الأفيون أو معقل المهربين ، فماذا عساك فاعلة ؟ !

كنت قد جئت إلى مدينة أجنبية فى بلد أجنبى ، وأطرق فى الساعة الحادية عشرة ليلاً باب مبنى مجهول ، كان يشبه تماماً مبنى مدرسة "سوق كهسياری " !

قدمت إحدى الفتاتين تجاه النافذة..

– مساء الخير! أليس هذا "واى دبليو سى" (Y W C)

ابتسمت بكل تواضع ، وأنا أوجه سؤالى إلى الفتاة ، ثم قلت لها :

– كنت قد أرسلت برقية ، حتى يتم حجز غرفة لى ..

ثم قلت فى نفسى :

– لكن كم هو مبنى متهالك " واى دبليو سى " هذا !

– لم يصلنا منك أى برقية ، وللأسف جميع الغرف مشغولة!

عندئذ أقبلت الفتاة الأخرى وهى تقول :

– هذا بنسيون للفتيات العاملات، وعلى العموم .. المسافرون لا يقيمون هنا .

فأصابنى القلق فجأة ، ماذا عساى أفعل الآن ؟ وإلى أين يمكن أن أذهب ؟! .. لاحظت الفتاة الأولى اضطرابى وقلقى ، فتبسمت وهى تكشف عن حسن أخلاقها :

– لا عليك.. لا تقلقى ! تفضلى.. ادخلى.. اقفزى من هنا وادخلى !

فقلت لها وأنا متلجلجة :

– لكن لا توجد هنا غرفة خالية .. فأين تجدون لى مكانًا هنا؟

– حسنًا .. حسنًا ، لا عليك ! سوف نوجد لك مكانًا ، فأين يمكنك الذهاب الآن فى منتصف الليل ؟

هكذا قالت الفتاة، فحملت حقيبتى، وقفزت من النافذة إلى الداخل ، فوجدت نفسى معهما فى الفناء ، أخذت الفتاة منى الحقيبة ، واتجهت ناحية المبنى ، فقلت لها بسرعة :

– اسمحوا لى بالبقاء الليلة فقط ، فى الصباح سوف أتصل هاتفيًا بأصدقائى ، فأنا على معرفة بثلاث أو أربع عائلات فى المدينة ، لن أسبب لكم أى مضايقة .

فقالت الفتاة :

– لا تقلقى ..

بينما غابت الأخرى بعد أن قالت تصبحين على خير .. صعدنا درج السلم حتى وصلنا إلى الشرفة ، وفى ركن من أركان الشرفة ، كانت هناك بعض الألواح الخشبية ، التى تم ترصيصها بشكل جعلها تبدو وكأنها غرفة بحق ، رفعت الفتاة ستارة من القماش المزخرف بالورود الحمراء ، ودخلت ، فمضيت من خلفها :

- أنا أقيم هنا ، يمكنك أيضًا أن تنامى هنا .

وضعت الحقيبة على أحد الكراسى ، وبدأت تخرج من "الدولاب" منشفة نظيفة ، وقطعة صابون جديدة ، وفى ركن من الأركان كان هناك سرير ، نصبت عليه " ناموسية " ، وأمامه منضدة وضعت فوقها أدوات الزينة ، وبجوارها دولاب للكتب .. تمامًا مثل أى غرفة فى البنسيونات التى تقيم فيها الفتيات فى جميع أنحاء العالم .. قامت الفتاة على الفور فأخرجت من الدولاب مفرشًا وبطانية ، ثم فرشتها على السجادة الصوفية الموضوعة على الأرض، ثم وضعت مفرشًا جديدًا على السرير ، وأصلحت من حال الناموسية ، وقالت لى :

- هيا ! ها هو سريرك جاهز الآن .

فشعرت بالندم أو هو شعور بالخجل خامرنى فقلت لها :

- اسمعى ! سوف أنام على الأرض .

- لا يمكن أبدًا .. سوف يأكلك الناموس ، وتصير حالتك صعبة ، نحن هنا تعودنا على الناموس .. هيا غيرى ملابسك ..

قالت هذه العبارة ثم جلست باطمئنان على الأرض ، وقالت:

- اسمى " كارمن " ، أنا موظفة بأحد المكاتب ، وأقوم فى المساء بإجراء بعض الأبحاث فى الجامعة ، متخصصة فى الكيمياء ، كما أننى أيضًا سكرتيرة اجتماعية فى "واى دبليو YW" والآن حدثينى عن نفسك ..

هكذا عرفتنى على نفسها ، لكنها قالت حين رأتنى أتثاءب :

- نامى الآن !

ثم بركت على ركبتيها ، ورفعت يديها بالدعاء ، وتمددت على الفراش ، وغرقت على الفور فى نوم عميق .

فى الصباح استيقظ المبنى كله ، كانت البنات يضعن المناشف على رؤوسهن ، ويرتدين الأرواب ، مندفعات خارج دورة المياه، كانت نكهة القهوة الساخنة الطيبة ، تنبعث من تجاه الشرفة ، بينما كانت عدة فتيات يتبخترن فى الفناء ، وهن ينظفن أسنانهن بالفرشاة ..

قالت لى كارمن :

- هيا ! سأصحبك إلى دورة المياه .

ثم مرت من الصالة ، واتجهت إلى ممر ضيق يؤدى فى النهاية إلى حجرة ضيقة ، جار عليها الزمن ، ليس فيها غير صنبور واحد ، وعلى الحائط علاّقة من الحديد ، كانت أرضيتها مكسرة ، بينما الحائط تساقط طلاؤه ، كان صوت غناء إحدى الفتيات يأتى إلينا من حيث ينبعث مصدر الضوء الخافت .. وقفت وسط دورة المياه تلك ، وأخذت أفكر ، وأنا أحدث نفسى :

- يا له من أمر عجيب .. منذ مدة طويلة لا تزال دورة المياه هذه موجودة فى مكانها ، فى هذا المبنى ، وفى هذه المدينة ، وفى هذا البلد... وهى لا تدرى شيئًا أبداً عن وجودى .. واليوم أنا موجودة فيها ، كم كانت فكرة حمقاء تلك التى راودتنى!

اغتسلت وخرجت من دورة المياه ، اختاروا لى أن أتناول فطورى على منضدة صغيرة فى صالة معتمة ، اجتمعت من حولى عدة بنات ، فعرفتنى كارمن عليهن جميعًا ، وفى لحظات قليلة كنا جميعا نضحك معا ونقهقه مثل صديقات قدامى .

قلت لهن بعد أن انتهيت من شرب الشاى :

- الآن سأتصل هاتفياً ببعض معارفى ..

فابتسمت كارمن فى شقاوة وقالت :

- نعم ! اتصلى بأصدقائك المشهورين وأحبابك المعروفين ، واذهبى إليهم .. لماذا تهتمين بنا ؟ ولماذا تعيرينى بالاً ؟ أليس كذلك يا روزا ؟

- هل نعيره بالاً ؟ لا .. أبداً.. أبداً.. لا !

هكذا رددت البنات فى صوت واحد مقطع أغنية شهيرة ، ثم نهضن جميعًا فقالت ميكديلنا :

- نحن ذاهبات إلى أعمالنا ، سوف نلقاك فى المساء

وقالت إميليا :

- فى المساء ؟ .. فى المساء نجلس فى أحد النوادى البلدية.

بعد أن ذهبت كارمن إلى المكتب ، اتجهت أنا إلى الشرفة ، وبدأت أتصل هاتفياً ببعض معارفى .. رئيس الأطباء فى الجيش الميجر جنرال كيملو كلداس ، كان زميلاً لخالى أثناء الحرب .. السيدة أنطونيو كوتيلو زوجة تاجر مليونير ، كانت زعيمة مشهورة بين الناس هنا ، التقيت بها فى مؤتمر دولى .. انفانسو وليرا .. أديب وروائى مشهور وصحافى ، كان قد زار كراتشى مرة ...

- ألو .. ألو .. آه .. متى جئت .. ؟ .. لماذا لم تخبرينا من قبل ..؟ أين تقيمين الآن ... ؟ هناك ...؟ يا إلهى .. !! هل هذا مكان يصلح للإقامة..؟! لابد أن آتى لاصطحابك فوراً..

هكذا ردد جميع من اتصلت بهم هذه العبارات ، كان آخر من اتصلت بهم دون كارسيا ديل بريدوس ، كان قد عمل سفيراً لبلاده في إحدى بلدان أوربا الغربية ، وهناك توطدت العلاقة بيني وبين زوجته ، فأخبرتني سكرتيرته بأن الأسرة قد ذهبت اليوم للتنزه في الجبال ، وحولت مكالمتي إلى قصرهم الكائن في المنطقة الجبلية .

بعد قليل حضرت السيدة كوتيلو في سيارتها المرسيدز لتصطحبني معها ، وتأخذني من حيث أقيم ، دخلت إلى غرفة كارمن ، وأخذت تتطلع إلى جوانبها الأربعة ، ثم حملت حقيبتي ...

دفعتني قليلاً .. لكنني لن أترك هؤلاء الفتيات ، أريد أن أقيم مع كارمن ، وإيميليا وبرناردا وروزا ومجديلينا ، فقلت للسيدة كوتيلو بحياء :

- اتركي الحقيبة الآن .. ولنقرر في المساء ماذا سيحدث ..

فقالت السيدة كوتيلو :

- لكنك ستتعبين كثيراً في هذا المكان الذي لا يطاق ..

وأخذت السيدة كوتيلو تردد هذه العبارة ...

حين رجعت في الليل ، كانت كارمن وإميليا تمدان رأسيهما من النافذة في انتظاري ، فقالت كارمن :

- اليوم جهزنا لك غرفة خاصة ..

فسررت كثيراً لأنها لن تضطر إلى النوم على الأرض .. في الناحية الأخرى من الصالة ، وفي غرفة فسيحة ، شاهدت سريرين ، أحدهما أعد لنومي ، والآخر كانت تجلس عليه السيدة سوريل تنفث دخان

سيجارتها ، كانت في حوالى الثامنة أو التاسعة والأربعين ، كان في عينيها ملامح حزن ويأس عجيبة ، ربما كانت من أحد فروع الجنس البوليني ، لا يمكن أن يعرف هذا من ملامحها ، بدأت على الفور تحكى لى تفاصيل حياتها ، وهى مستلقية على الفراش ، واضعة رأسها على ذراعها ، قالت :

- لقد جئت من جزيرة " جوام " (بجيم قاهرية)

ثم استدركت قائلة :

- أوه ! أين جوام ؟ .. جوام جزيرة في المحيط الهادى كانت أمريكا تسيطر عليها ، وهى جزيرة صغيرة جداً لدرجة أنك يمكن أن تشاهديها على الخريطة مجرد نقطة لا أكثر ..

ثم قالت بفخر :

- أنا أمريكية .. أحمل الجنسية الأمريكية .

فكرت وتحدثت مع نفسى :

- جوام .. يا للعجب .. كم في الدنيا من أماكن ، يعيش فيها أيضاً أناس أمثالنا .

- ابنتي هربت مع عازف " فايولين " جئت لأبحث عنها وأعيدها إلى صوابها، فهى في السابعة عشرة من عمرها فقط، لكن دماغها صلبة ! .. مثل بنات هذه الأيام ..

وفجأة اعتدلت وجلست :

- لقد أصبت بالسرطان !

فصدرت عنى آهة محرقة .. بينما قالت بلهجة كلها ألم :

- أصبت بسرطان الرئة .. وإلا فمنذ ثلاث سنوات ... وأنا أيضًا ... أنا أيضًا مثلى مثل جميع الناس .. امرأة عادية ..

حمل صوتها نبرة الحزن الشديد والكرب الذى لا حدود له .. ثم قالت وهى ترفع ياقة رداء نومها :

- انظرى ..

فارتعدت ، وأغلقت عينى .. فجسد المرأة الجميل التى تفخر به دائمًا ، تحول إلى شكل لا يطاق النظر إليه !!

بعد فترة وجيزة نامت السيدة سوريل ، كان ضوء القمر الفضى يتخلل الغرفة من سياج الشباك الحديدى ، وتوقف صوت مجدينيا الرخيم عن الغناء .. وفجأة شعرت برغبة شديدة فى البكاء ..

مر الأسبوع التالى فى أمور الفن والثقافة ، كما يقال على لسان محررى مجلات " المودة والأزياء " مر كأنه عاصفة من المشاغل الاجتماعية والثقافية .. كنت أقضى اليوم بطوله فى بيت السيدة كوتيلو ، وبيوت صديقاتها ، وهى بيوت واسعة جميلة ، بينما كنت أقضى الليالى فى أماكن النزهة والفسحة المتلألئة بالأضواء المبهرة .. أناس من كل صنف ونوع.. مثقفون... صحفيون .. أدباء ومؤلفون .. قادة سياسيون .. هؤلاء جميعًا كانوا يأتون إلى بيت السيدة كوتيلو ، ويدور بينهم حوار وبحث ونقاش ، بينما كنت بدورى أمتع نفسى بالتحدث بالإنجليزية ، وفى الليل أعود أدراجى إلى واى دبليو سى ، فأجلس إلى الطاولة المتواضعة ، حيث تلتف حولى الفتيات الخمس ، فى شوق للاستماع إلى ما جرى لى طول اليوم .. فتقول روزا :

- يا للعجب ! .. نحن من أهل هذه المدينة ، ثم لا ندرى شيئًا عن أجواء ألف ليلة وليلة تلك !

فتسأل إيميليا :

- هؤلاء الناس أغنياء جدًا .. أليس كذلك ؟ ماذا عسى يفعلون بما لديهم من أموال ؟

كانت إيميليا تعمل مدرسة فى إحدى المدارس ، أما روزا فكانت تعمل سكرتيرة فى أحد المكاتب الحكومية ، بينما كانت مجديلينا وبرناردا تحصلان على شهادة عليا فى معهد الموسيقى ، فى البيانو والفايولين ، وجميعهن من الطبقة الدنيا والمتوسطة .

فى صباح يوم الأحد ، بينما كانت كارمن تعد نفسها للخروج ، فتحت " الدولاب " لأخرج شيئًا منه ، فسقطت دمية على شكل أرنب ، فوقفت على أطراف قدمى حتى أعيد اللعبة إلى مكانها ، فشاهدت على سطح الدولاب كثيرًا من اللعب ..

قالت كارمن بهدوء شديد ، وهى تسرح شعرها أمام المرآة:

- هذه لعب ابنى ..

- لعب ابنك ...؟

توقفت فى ذهول ، ونظرت إليها فى حزن ... هل كارمن أم ..؟ هل هى أرملة ؟

شاهدت رد الفعل على ملامح وجهى من خلال المرآة ، فاستدارت ناحيتى ، احمرّ وجهها .. قالت :

– لقد أسأت فهمي ..

ثم انفجرت في الضحك ، وفتحت درج الدولاب الأسفل ، وأخرجت كتاباً من كتب الأطفال ، كان لونه أزرق لامعاً وقالت :

– انظري ! هذا هو الكتاب السنوي لابني ... حين يصير عمره عاماً سيفعل هكذا ، وحين يصير عمره عامين سيقول هكذا .. هنا سأضع صوره ...

تحدثت بهدوء شديد وهي تشير هنا ، وتشير هناك ، وتجلس على السرير ، ثم تخرج من الكتاب مجموعة صور ملونة لأطفال أمريكيين ، وتضعهم على السرير ..

– انظري إلى أنفي المفطوس ، لو جاء أنف الطفل هكذا ، فستكون مصيبة ،ثم ماذا مر عليّ من جراء علاقتي مع "نيك" ؟ أنا أشاهد هذه الصور قبل مولده بشهور ، فلعل المسكين القادم يتأثر بأنف هؤلاء الأطفال...

– أنت فعلاً مجنونة إلى حد ما !! ثم من هو نيك المحترم هذا ؟!

تغير لون وجهها :

– لا تأتي بذكره على لسانك ، فسماع اسمه يقطع القلب ...!

ومع هذا تظل تتحدث عن نيك وتتكلم عنه ..

– إنني قبيحة ، دميمة ، لكن نيك دائماً يقول : كارمن ... كارمن أنا عاشق لقلبك ، لعقلك ، لروحك ، ونيك شاهد بلاد العالم ، وله صداقات مع فتيات حسناوات ، لكنه لا يشعر أبداً بأن شكلي قبيح ودميم ...

بعد العودة من الكنيسة ، وبينما كانت كارمن تكوى ملابسها فى صالة واى دبليو ، أسمعتنى حكايتها مع نيك ، كان نيك طبيبًا ، سافر خارج البلاد ليتدرب فى مجال جراحة القلب ، وقد أحبها بجنون .

فى الليل تركت غرفة السيدة سوريل ، ورجعت إلى غرفة كارميل ، لأن السيدة سوريل نجحت فى الإمساك بابنتها ، والبنت الآن تقيم معها فى الغرفة ، رتبن الناموسية قبل النوم ، بينما كانت كارمن تجلس على الأرض القرفصاء ..

بدأت تقول :

- آه .. نيك ..

فسألتها :

- أين هو هذه الأيام؟

- لا أدرى !

- ألا تكتبين له رسائل ؟!

- لا أكتب !

فسألتها فى حيرة :

- لماذا ؟

فسألتنى :

- هل تؤمنين بالله؟

فأجبتها وأنا أتثاءب بكسل :

– هذه مسألة يطول شرحها .. لكن ! أخبريني ! لماذا لا تكتبين إليه رسائل ؟

– أجيبي أولاً على سؤالي .. هل تؤمنين بالله ؟

– نعم..

هكذا أجبت على سؤالها حتى لا يمتد النقاش ..

– حسنًا .. هل تكتبين خطاباً لله !!

انطفأت أنوار المبنى .. كانت أغصان الأشجار في الفناء تحركها الرياح ، فتصدر حفيفًا مسموعًا في سكون الليل ، بينما كانت الستارة المزركشة بالورود الحمراء تتمايل على باب الغرفة بفعل الهواء ، فنهضت، وسحبتها إلى جانب الباب .

– يا لها من ستارة جميلة !

حاولت أن أعبر عن رأى في الستارة، بعد أن رجعت إلى السرير .. بينما تحركت كارمن على جنبها الآخر ، ورقدت مغمضة العينين ، فنهضت عند سماعها كلامي ، وجلست ، ثم بدأت تتكلم بهدوء وببطء شديد :

– كنت قد ذهبت في رحلة بالسيارة مع نيك مسافة مئات الأميال في المنطقة الجبلية ... هل تسمعين ؟

– نعم ... نعم .. تكلمي ..

– فى الطريق قال نيك : هيا نقابل دون ريمون ، ودون ريمون هذا صديق والد نيك ، وكان وزيراً فى الحكومة ، والآن يقيم فى فيلا ، شيدها فى المنطقة الجبلية بالمحافظة ، حين وصلنا بالقرب من الفيلا ، رأينا بنات صغار يرتدين فساتين بيضاء جميلة ، يخرجن من المدرسة ، لا أزال أتذكر هذا المنظر ، كأنه حلم ، دخلنا إلى الفيلا ، وجلسنا فى غرفة المعيشة الفخمة ،فى انتظار السيدة ريمون ، لم يكن الوزير موجوداً ، كان الحائط الواصل بين غرفة المعيشة والمدخل مزين بدمية على شكل عروس ، مزخرفة ، كأنها موضوعة فى صندوق من البلاستيك ، وبدا شكل هذه الدمية يطغى على الأشياء الأخرى القيمة التى كانت تزين الغرفة ، فابتسمنا ، وتعجبت من قلة الذوق تلك ، ثم طلعت علينا السيدة ريمون ، قدمت لنا الشاى البارد ، وفرّجتنا على جميع جوانب الفيلا.. شاهدنا دورات المياه الفخمة ، وغرف الضيوف الرائعة ، والبياضات المزركشة ، والمفروشات المخملية ، والوسائد الموضوعة على الأسرة الجميلة .. حين رأى نيك السرير فى غرفة النوم ، سكت ثم قال لى :

– يا له من ذوق عجيب ! غاية قلة الذوق ..

بينما قلت فى سرى :

– ولا قلة ذوق ولا حاجة ، سوف أشترى مثل هذا السرير لنفسى ، وسوف أضع عليه مفروشات بلون هذه المفروشات .. وكنت إذا عبرت أمام محل المفروشات وشاهدت هذه الأقمشة ، توقفت رجلاى رغما عنى ... ثم أخذت أوفر من راتبى شهراً بعد شهر ، حتى تمكنت من شراء القماش الذى صُنعت به هذه الستارة !

صمتت برهة ثم قالت بنفس الصوت الهادئ :

- ... وحين أمر على مطعم معين وأشاهد الطاولة الموضوعة بالقرب من الشباك ، وأتطلع إلى المصباح الأخضر من فوقها ، يغوص قلبى ، فهناك تناولت الطعام ذات ليلة مع نيك !!

كان النوم يغالب جفونى ، وأنا أستمع إلى خرافة نيك تلك ، فأسدلت على نفسى الناموسية وقلت لها :

- أقول لك شيئًا .. إذا كنت تعشقين نيك إلى هذه الدرجة ، فلماذا لم تتزوجى من نيك هذا حتى الآن ؟!

- لقد اضطررت للمعيشة في جزيرة بعيدة مع أبى ..

هكذا أجابتنى بصوت حزين ثم قالت :

- فى البداية كنا نعيش فى هذه المدينة ، فى أيام الحرب احترق بيتنا الصغير من جراء قذف الطائرات بالقنابل ، ماتت أمى ، ومات أخواى أيضًا ، نجوت أنا فقط مع أبى ، كان أبى مدرس علوم فى إحدى المدارس ، فأصيب بالسل ، فتم إدخاله إحدى المصحات المتخصصة لعلاج السل ، فى جزيرة بعيدة ، كان العلاج مكلفًا ، لهذا تركت الكلية ، وعملت فى أحد مكاتب هذه المصحة ، وكنت أعمل بتدريس أطفال الأغنياء والإقطاعيين الذين يعيشون قريبًا من المصحة ، لكن علاج أبى ، صار مكلفًا أكثر فأكثر ، فرجعت إلى قريتى ، وقمت برهن أرضنا وحديقتنا هناك ، ورغم استمرار العلاج لم تتحسن صحة أبى ، أصابنى الإرهاق والتعب ، فقد كنت أنتقل من جزيرة إلى أخرى بالقارب ، وكنت أنتقل من قصر إقطاعى إلى قصر ثرى آخر أدرس أولادهم الأغبياء ، لأكسب مصاريف علاج أبى ، لكن صحته لم تتحسن .. التقيت مع نيك

منذ عشر سنوات فى أحد المهرجانات ، فى تلك الأيام كنت ألتقى به كلما ذهبت إلى العاصمة ، ظل يلح على، ويطلبنى للزواج طوال ثلاث سنوات ، لكن حالة أبى كانت من السوء بحيث لم يكن فى استطاعتى أن أتركه يموت وأعود هنا ، فى ذلك الوقت اضطر نيك للسفر خارج البلاد ، وحين مات أبى ، جئت إلى هنا ، حيث أعمل الآن فى وظيفة ، وسوف أقدم رسالتى للجامعة فى العام المقبل لتحديد موعد المناقشة ، كنت أتمنى أيضًا أن أفك رهن أرض أبى ، كان نيك يرغب فى مساعدتى ، لكن لا يمكننى أن آخذ منه قرشًا واحداً قبل الزواج ، فأهله تفكيرهم عجيب وعقولهم متحجرة ، وأنا بدورى كنت أفكر فى عزة نفسى ، والاعتماد على الذات ، لأن هذه الأمور مهمة جداً بالنسبة للفتاة ، كما كنت أخشى أن يحتقرنى نيك إذا ما فقدت عزة النفس ، وفقدت احترامى لذاتى ...

- أوه .. اتركينى .. أنام .. طابت ليلتك ...

وفى صباح اليوم التالى وكالعادة ، رتبت نفسها ووصلت إلى المائدة حيث كان طعام الفطور ، كانت السيدة سوريل تستعد للعودة إلى جزيرة جوام ، فقد تصالحت مع من سيصبح زوجًا لابنتها ، كان قد وصل فى الصباح الباكر ، كان شاباً منطوياً على نفسه ، وهكذا جلس فى ركن الشرفة مثل قطة مسكينة، طرأ على المكان نوع غريب من الفرح والبشاشة ، كانت البنات يتبادلن الحديث والنكات والضحكات أيضًا ، وكنت أنا أيضًا فرحة مسرورة ، كنت أشعر بإحساس من الطمأنينة الممزوجة بنوع من النشوة ، وهذا الإحساس بالطمأنينة والنشوة ، والهدوء والسكون قل أن يجده الإنسان فى حياته ، ويستمر فقط للحظات قليلة ، لكن هذه اللحظات غنيمة ما بعدها غنيمة ..

تناولت كارمن فطورها بسرعة ، وأسرعت إلى المكتب .

قالت لى مجديلينا :

- إن كنت لن تذهبى اليوم للقاء أصدقائك الأثرياء ، فسآخذك فى عربة مكشوفة صغيرة ، ونتجول فى حوارى وأزقة المدينة

لكن روزا جاءت إلينا وهى تقول :

- يا أختى ! جاءتك الآن سيارة كاديلاك !

فرددت البنات فى صوت واحد :

- كا .. دى .. لاك .. ياه !!

فقالت برنردا مسرورة :

- هذه السيارات الرهيبة التى تأتى إليك جعلتنا نموت من الخوف ، ونحبس أنفاسنا من الرهبة ..

ودعت البنات ، وحملت حقيبتى على كتفى وخرجت ، كنت سأقضى يومين عند السفير السابق دون كارسيا ديل بريدوس .. فتح سائقه الذى جاء فى زى رسمى باب الكاديلاك فى أدب .. وانطلقت بنا السيارة ، وفى لحظات كنا قد تركنا المدينة من خلفنا ، وانطلقت السيارة فى طريق جبلى مملوء بالأشجار والنبات الخضراء .

وهناك فى أعلى قمة الجبل ، كان منزل دون كارسيا الذى أقيم على الطراز الأسبانى ، يتراءى لنا من بعيد ، متخفياً بين الأشجار .

كان الضباب يخيم على الأودية التى نمر بها ، بينما كانت الأزهار الجبلية بألوانها الأحمر والأصفر والأبيض والزرق قد تفتحت ،

وكست المرتفعات حلة مختلفة الألوان .. وصلت السيارة إلى مدخل المنزل فتوقفت ، وخرج الخدم الذين ينتمون إلى القبائل التى تمتاز بالأدب ، نزل باتلر ، وفتح لى باب السيارة .. كان دون كارسيا ينتظرنى مع زوجته فى الصالة الفسيحة ، كان منزلهما مفروشًا بالسجاد الذى يميل لونه إلى البياض بينما كان الأثاث أبيض اللون، أما عن أدوات الزينة والزخارف ، فكانت من نوادر التحف العالمية ، وكانت غرف المنزل مفروشة بتلك المفروشات التى نشاهد إعلاناتها عادة على صفحات مجلة لايف تحت اسم بيردز فرنيتشر أو انتير ديكوريشن .

بعد قليل صعدت مع دونا ماريا إلى الطابق الثانى ، وهناك فى أحد أركان الشرفة المحاطة بالزجاج ، شاهدت طفلاً فى فراش خيرزانى جميل ، لم يتجاوز عمر الطفل ستة أشهر ، كانت بشرته وردية ، وكان يصدر صوت مناغاة عذب ، كان طفلاً .. سبحان الخالق .. لم أتمالك نفسى، فلم أهتم بما كانت تقوله دونا ماريا واندفعت ناحية فراش الطفل، فجاءتنى طفلة أمريكية صغيرة وجميلة ، بعد أن نهضت من على الأريكة التى كانت تجلس عليها ، وابتسمت لى ومدت يدها لأصافحها ..

فقالت دونا ماريا :

- هذه طفلة ابنتى نحن نجلس ثلاثتنا هنا حتى نصبغ الطفلة بالحنان والمحبة.

وعند الظهر وعلى مائدة الغداء حضر أيضاً زوج الابنة الأمريكية

- هذا هو ابننا هوزى ..

هكذا قال دون كارسيا ..

ربما كان عمر هوزى خمسة وثلاثين عاماً ، بدا من هندامه وملابسه أنه إنسان وجيه ، كان يعشق زوجته الشابة الصغيرة عشقاً عظيماً ، كما كان يحب ابنته حباً جماً ، فقد كان معظم حديثه معها فقط .

فى الليل دخلت إلى غرفة نوم ، أعدت بطريقة عجيبة ، وأخذت أفكر كثيراً وأنا قلقة ومضطربة ، كيف ألمس الأشياء الموجودة فيها ، بحيث لا تتسخ ، أو يتغير موضعها ، عندها تذكرت جيداً غرفة واى دبليو Y W القذرة ، والناموسية الضيقة ، والسيدة سوريل ، والمنضدة المتهالكة فى الفناء ، والكراسى المتواضعة.

بعد يومين رجع آل بريدوس معى إلى العاصمة .

بعد أن أوصل هوزى الوالدين إلى بيتهما فى المدينة ، تحركت السيارة الكاديلاك بى ثانية ، لتوصلنى إلى مقر إقامتى ، كان هوزى مع زوجته دورو ، كانا قد رجعا من أمريكا منذ أسبوعين فقط ، وكانت أمتعتهما الكثيرة لا تزال قابعة فى مقر الجمرك ، وكان عليه أن يذهب لتخليصها من الجمرك.. أوقف هوزى السيارة أمام أفخم فندق بالمدينة .. فسألته :

– ماذا تنوى أن تفعل يا صاحبى ؟!

– ألا تنزلين هنا؟

– يا عزيزى هوزى .. لا .. أنا أقيم فى واى دبليو سى إى (YWCA) .

– ماذا ؟ واى دبليو .. يا للعجب حسناً لنذهب إلى هناك ، لكن ألم تستطيعى أن تجدى غرفة خالية هنا ؟ كان من الواجب أن تخبرى والدى بموعد وصولك!

فى ذلك الوقت أدركت على الفور أن كل طبقة فى المجتمع ، وكل صنف من الناس ، يمضى إلى حد ما ، طبقًا لما تعود عليه فى حياته ، لكن هوزى ووالديه من بين أغنى عشر عائلات فى البلد ، وهم من أعمدة الطبقة الحاكمة هنا، ومحاولة إفهام هؤلاء الناس، مدى إعجابى أو رغبتى وإصرارى على الإقامة فى واى دبليو ، محاولة مآلها الفشل لا محالة .

أوقف هوزى السيارة عند منحنى الحارة ، حين وصلت إلى داخل واى دبليو كان الجميع يغطون فى نوم عميق ، فمشيت على أطراف أصابعى ، ووضعت نفسى داخل الناموسية الضيقة ، بينما كانت كارمن تنام على الأرض كالعادة فى هدوء وسكينة ، وكان ضوء مصباح الحارة ينعكس على صورة سانت توماس الموضوعة بالقرب من وسادتها.

فى الرابعة صباحًا ، مشيت على أطراف أصابعى حتى دورة المياه المكسرة ، ففتحت صنبور الماء بهدوء ، لكن الماء اندفع منها بشدة ، فقفزت من الخوف ، وهكذا رجعت إلى الغرفة فى صمت ، فحزمت أمتعتى ، ولم أشأ أن أحدث أى صوت ، حتى لا أوقظ كارمن ، وبينما أقوم بكل هذا باحتياط شديد ، نظرت فإذا هى غائبة عن الغرفة .. رجعت بعد قليل لتقول لى :

- هيا الفطور جاهز !

وكانت قد اتصلت هاتفيًا بسيارة أجرة .. قدمت لى الشاى وسألتنى :

- كيف كانت رحلتك ؟

- ممتعة للغاية !

- من هؤلاء الأصدقاء الذين ذهبت إليهم؟ لم تخبرينا شيئًا عنهم ؟

وحين بدأت الحديث جاءتني فجأة فكرة ، فاندفعت إلى الغرفة وفتحت حقيبتي ، وأخرجت " ساريًا بنارسيًا " جديداً، وكتبت على ورقة صغير : " هذه هديتي بمناسبة زواجك " ثم وضعت الساري والورقة تحت وسادة كارمن .

- وصلت سيارة الأجرة التاكسي ..

نادت كارمن عليّ من الشرفة.

فحملنا معا الأمتعة وخرجنا ، ركبت سيارة الأجرة .. واندفعت كارمن ، لتقف خلف نافذة البوابة العتيقة ، وتخرج رأسها منها ، وهي تصيح :

- أوه .. أنت .. لم تتركي لي حتى عنوانك !

فكتبت بسرعة عنواني على ورقة صغيرة ، وقذفت بها إليها ، ثم تذكرت فجأة أمرًا مهما للغاية فقلت :

- كارمن .. نسيت شيئًا مهمًا ، إن المسئولين في واي دبليو لم يعطوني فاتورة الحساب .

- لا تُخرّفي ..

- اسمعي .. هذا ليس بيتك !

- لقد كنت ضيفة عندي .

- لا تُخرّفي !

– أنت نفسك ، اسكتى ! لا تُخرّفى .. أسرعى وإلا فاتتك الطائرة ، اسمعى حين أرسل إليك بطاقة الدعوة لعرسى ، لابد أن تأتى .. لن أقبل أى عذر . اسمعى سوف يفرح نيك بلقائك كثيراً .

لكننا – معا – كنا نعرف أنه من الصعوبة بمكان أن أعود مرة أخرى إلى هذا المكان .. فقلت لكارمن :

– فى أمان الله يا كارمن !

– فى أمان الله ...

كانت تخرج رأسها من النافذة ، وظلت هكذا تمد رقبتها وتلوح بيدها لفترة طويلة ، واتجهت سيارة الأجرة ناحية المطار فى غسق الصبح الكاذب.

كانت الطائرة تقف فى وضع استعداد على مدرجها ،وبينما كنت عائدة من منطقة الجمرك ، سمعت من ورائى ، صوت دون كارسيا :

– نيك .. سوف أشترى سيجاراً !

– حسنًا يا والدى ..

كان هذا صوت هوزى ، فانتفضت ونظرت خلفى ، كان هوزى يتجه نحوى مبتسماً :

– انظرى ! كيف وصلنا فى الوقت الصحيح !

فسألته وقلبى قد سقط بين قدمى :

– هوزى .. ما هو اسمك الثانى ؟!

– نيك.. حين يكون والدى فى حالة سرور وفرح ينادينى عادة نيك ، وإلا فهو يقول لى عادة هوزى .. لكن لماذا ..؟

– لا شىء ..

بدأت أمضى معه فى صالة المطار ، ثم سألته فى هدوء :

– أنت ... لماذا ذهبت إلى أمريكا ؟

– ذهبت لأتخصص فى مجال جراحة القلب ، كنت قد أخبرتك ... لكن لماذا ؟

– هل .. هل حدث أن ... أنت ..

– لماذا .. ؟ ماذا فى الأمر ... ؟ ماذا جرى ؟

– لا شىء .. لا عليك ...

وضاع صوتى .. كأنه غرق فى بحر لجى ، بينما كان مكبر الصوت يردد :

– على المسافرين على طائرة البان أمريكان سرعة التوجه إلى صالة المغادرة ... على المسافرين على ،،،،،

نظر هوزى فى تعجب وهو يقول :

– هل حان وقت السفر بهذه السرعة ؟!

اشترى دون كارسيا سيجاراً ، وجاء إلىّ وهو يبتسم ابتسامة كلها عطف وشفقة ، فشكرتهما معًا : الوالد والابن ، وودعتهما فى أمان الله ، وأسرعت إلى طابور المسافرين..

من نافذة الطائرة التى بدأت تتحرك على أرض المطار، كنت لا أزال أرى دون كارسيا ونيك يلوحان بالمنديل ناحية الطائرة ، ثم بدأت الطائرة ترتفع عن الأرض .

ومن هنا ، وعلى مسافة بعيدة جداً ، وعبر المحيط العميق بأمواجه المتلاطمة ، توجد مجموعة جزر يطلق عليها الفلبين ، فى عاصمتها المتلألئة بالأضواء ، وفى حى متواضع غير معروف ، وفى مبنى قديم ، متهالك ، تقيم فتاة فلبينية بريئة مثلها مثل الملاك ،تجمع اللعب من أجل طفلها ، تنتظر عودة ربها ، التى تؤمن به إيماناً كاملاً.

تمت

المشروع القومى للترجمة

المشــروع القومــى للتـرجمــة مشــروع تنميــة ثقافيــة بالدرجــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلميـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحـضـور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجـمـة الأصـول المعـرفيـة التى أصـبـحت أقـرب إلى الإطار المرجـعى فى الثـقافـة الإنسـانيـة المعـاصـرة، جنبًا إلى جنب المنجـزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت . محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت . محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت · محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت . لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت · مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف · محمد الجوهري
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار ڤاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى مجموعة من النقاد ت : محمود على مكى

١٠٩ – حروب المياه جون بولوك وعادل درويش ت : هاشم أحمد محمد

١١٠ – النساء فى العالم النامى حسنة بيجوم ت : منى قطان

١١١ – المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون ت : ريهام حسين إبراهيم

١١٢ – الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود ت : إكرام يوسف

١١٣ – راية التمرد سادى پلانت ت . أحمد حسان

١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع وول شوينكا ت : نسيم مجلى

١١٥ – غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف ت : سمية رمضان

١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون ت : نهاد أحمد سالم

١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد ت . منى إبراهيم ، وهالة كمال

١١٨ – النهضة النسائية فى مصر بث بارون ت : لميس النقاش

١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنبل ت : بإشراف/ رؤوف عباس

١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد ت : نخبة من المترجمين

١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال

١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت ت : منيرة كروان

١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيقل الكسندر وفنادولينا ت: أنور محمد إبراهيم

١٢٤ – الفجر الكاذب جون جراى ت : أحمد فؤاد بلبع

١٢٥ – التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديڤى ت : سمحه الخولى

١٢٦ – فعل القراءة ڤولفانج إيسر ت : عبد الوهاب علوب

١٢٧ – إرهاب صفاء فتحى ت : بشير السباعى

١٢٨ – الأدب المقارن سوزان باسنيت ت : أميرة حسن نويرة

١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته ت : محمد أبو العطا وآخرون

١٣٠ – الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك ت : شوقى جلال

١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين ت : لويس بقطر

١٣٢ – ثقافة العولمة مايك فيذرستون ت : عبد الوهاب علوب

١٣٣ – الخوف من المرايا طارق على ت : طلعت الشايب

١٣٤ – تشريح حضارة بارى ج. كيمب ت : أحمد محمود

١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت ت : ماهر شفيق فريد

١٣٦ – فلاحو الباشا كينيث كونو ت : سحر توفيق

١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه ت : كاميليا صبحى

١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيڤلينا تارونى ت . وجيه سمعان عبد المسيح

١٣٩ – پارسيڤال ريشارد ڤاجنر ت : مصطفى ماهر

١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار هربرت ميسن ت : أمل الجبورى

١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين ت : نعيم عطية

١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر ت : حسن بيومى

١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار ت : عدلى السمرى

١٤٤ – صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت . محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت · خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت · إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت . صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت . محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت · شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت · محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة | و . ب . ييتس | ت : ياسين طه حافظ

١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما | رينيه جيلسون | ت : فتحي العشرى

١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام | هانز إيندورفر | ت : دسوقي سعيد

١٨٥ – أسفار العهد القديم | توماس تومسن | ت : عبد الوهاب علوب

١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل | ميخائيل أنوود | ت : إمام عبد الفتاح إمام

١٨٧ – الأرضة | بُزُرج علوى | ت : علاء منصور

١٨٨ – موت الأدب | ألفين كرنان | ت : بدر الديب

١٨٩ – العمى والبصيرة | بول دى مان | ت : سعيد الغانمى

١٩٠ – محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | ت : محسن سيد فرجانى

١٩١ – الكلام رأسمال | الحاج أبو بكر إمام | ت : مصطفى حجازى السيد

١٩٢ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ١ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى

١٩٣ – عامل المنجم | بيتر أبراهامز | ت : محمد عبد الواحد محمد

١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكي | مجموعة من النقاد | ت : ماهر شفيق فريد

١٩٥ – شتاء ٨٤ | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور

١٩٦ – المهلة الأخيرة | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ

١٩٧ – الفاروق | شمس العلماء شبلي النعمانى | ت : جلال السعيد الحفناوى

١٩٨ – الاتصال الجماهيرى | إدوين إمرى وآخرون | ت : إبراهيم سلامة إبراهيم

١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداوى | ت : جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد

٢٠٠ – ضحايا التنمية | جيرمى سيبروك | ت : فخرى لبيب

٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى

٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٢٠٣ – الشعر والشاعرية | ألطاف حسين حالى | ت : جلال السعيد الحفناوى

٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم | زالمان شازار | ت : أحمد محمود هويدى

٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات | لويجي لوقا كافاللي – سفورزا | ت : أحمد مستجير

٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً | جيمس جلايك | ت : على يوسف على

٢٠٧ – ليل إفريقي | رامون خوتاسندير | ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف

٢٠٨ – شخصية العربي فى المسرح الإسرائيلي | دان أوريان | ت : محمد أحمد صالح

٢٠٩ – السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ

٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى | سنائى الغزنوى | ت : يوسف عبد الفتاح فرج

٢١١ – فردينان دوسوسير | جوناثان كلر | ت : محمود حمدى عبد الغنى

٢١٢ – قصص الأمير مرزبان | مرزبان بن رستم بن شروين | ت : يوسف عبد الفتاح فرج

٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر | ريمون فلاور | ت : سيد أحمد على الناصرى

٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | ت : محمد محمود محى الدين

٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى

٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ

٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان | صمويل بيكيت | ت : نادية البنهاوى

٢١٨ – رايولا | خوليو كورتازار | ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت . طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ – شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت . رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ – العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ – المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركي	ت السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت . أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت . مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ – الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت . مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزي ج١	جلال الدين الرومي	ت إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت . أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت . عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت ياسر محمد جاد الله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩ – العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلارافر – رايوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت · صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت · صبري محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفي بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت · توفيق علي منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	وولتر أرمبرست	ت . محمد الشرقاوي
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت . رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت . ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروجان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت . إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت . صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات . الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت . جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت . سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليتباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ - تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ - العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ - تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ - حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البراق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٦	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت . حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت . جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء جاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت . عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت . ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى

٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامي عمارة
٤١٠ – خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوي بغورة
٤١١ – همس من الماضي	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفي بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخاري
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوي
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلي
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلاني
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامي	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعي	ت : محمود سلامة علاوي
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ت : ثريا شلبي
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافي
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجي كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكيافلي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدي الجابري
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	ت : عصام حجازي
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجي رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندي في بلاد الشرق	شبلي النعماني	ت : جلال السعيد الحفناوي
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابي	صدر الدين عيني	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوي
٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتي روي	ت : فخري لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتي
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوي
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية . الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني
٤٤٥ – حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	ت : محمد محمد يونس

٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النتة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	ت : عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى

٤٨٤ – جمالية التلقى	هانس روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو
٤٨٥ – التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ – الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ – هُسِّرل : الفلسفة علماً دقيقاً	هُسِّرل	ت : محمود رجب
٤٩٠ – أسمار الببغاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفى
٤٩٥ – اللوبى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا	إكوادو بانولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ – تقاطعات : والأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت : سحر فراج
٥٠٢ – أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت : هالة كمال
٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ – كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ – ربما كان قديساً	أن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقى فهيم
٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقى جلبنارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ – الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ – كوكب مرقّع	أن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ – كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت جمال عبد الناصر
٥١٣ – العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية	جوناثان كولر	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت : فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون – ودونا باوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٩٠٣١

